التعصب والصراع
العرقي والديني واللغوي
لماذا وكيف؟!
د. أحمد بن نعمان

التعصّب والصّراع

العرقي والدّيني واللّغوي

لماذا وكيف؟!

د. أحمد بن نعمان



شركة دار الأمـــة
للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع

ص.ب. 109 برج الكيفان
120 16 الجزائر
الهاتـف: 04 22 20 (02)
الفاكس: 04 24 20 (02)

تصميم الغلاف
محمد سنـوسـي

تركيب
ناجي مصطفى

الطبعة الأولى
منشورات دحلب 1991

الطبعة الثانيـة
ديسمبر 1997 م

ايداع
4/97

ISBN. 9961-67-021-3

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطاقة تعريف المؤلف

- من مواليد 23/ 01/ 1944 بتاورقة ولاية تيزي وزو سابقا (بومرداس حاليا).
- نشأ في عائلة متواضعة الحال، تشتغل بالتعليم العربي في المدارس والكتاتيب الأهلية، خلفا عن سلف، منذ الجد الأكبر المدفون في مقر الدائرة التي تحمل اسمه" سيدي نعمان" بولاية تيزي وزو حاليا.
- بدأ الدراسة على الطريقة التقليدية بحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه (قرية الخروبة) على يد جده الشيخ المحفوظ بن نعمان، ثم عمه الشيخ الشريف حتى استشهاده سنة 1957، ثم والده الشيخ محمد بقرية سيدي محمد(بلدية برج الكيفان) حتى اعدامه بها سنة 1959.
- فتح عينيه على الثورة المسلحة، وتربى في أحضان رجالها الذين بدأ بنشاطه معهم في سن.
- ألقي عليه القبض بعد اكتشاف أمره سنة 1959، وعرف ألوانا من التعذيب في معسكر تاورقة الذي فرّ منه في نفس الأسبوع ليلتحق بصفوف الجهاد كمسبل، ثم كجندي في جيش التحرير الوطني بالولاية (3) المنطقة (4) الناحية (2).
- وضع البندقية عندما حضر القلم، فترك صفوف الجيش الوطني الشعبي سنة 1963.
- التحق بسلك التعليم " كممرّن" في الابتدائي وواصل الدراسة حتى دخل الجامعة سنة 1968.
- تخرج بشهادة الليسانس في الفلسفة من جامعة الجزائر سنة 1971.
- الماجستير في علم الاجتماع من جامعة القاهرة سنة 1978.
- الدكتوراه في "الأنثروبولوجيا النفسية" من جامعة القاهرة سنة 1982.
- ومن أهم الوظائف التي شغلها بعد ترك مهنة التعليم :
- مكلف بمهمة في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية 1971- 1973.
- موظف (مندوب عن الجزائر) في إطار جامعة الدول العربية بالقاهرة 1973- 1979.
- مستشار بوزارة الداخلية بالجزائر 1980- 1986.
- مدير الدراسات والبحوث بالمعهد الوطني للدراسات الاستراتيجية الشاملة (برئاسة الجمهورية) 1986- 1990.

وهو الآن متفرغ للبحث والتأليف والمحاضرات داخل الوطن وخارجه.

من أهم مؤلفاته

1- التعريب بين المبدأ والتطبيق في الجزائر والعالم العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
2- كيف صارت الجزائر مسلمة عربية!؟، دار البعث، قسنطينة 1981.
3- لاعروبة بدون إسلام، دار البعث، قسنطينة 1981.
4- الجهاد والثورة، دار البعث، قسنطينة 1982.
5- سمات الشخصية الجزائرية، مؤسسة الكتاب، الجزائر 1988.
6- فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر (الخلفيات، الأهداف، الوسائل، البدائل) ، منشورات دحلب، الجزائر 1990.
7- التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف!؟، منشورات دحلب، الجزائر 1991.
8- مولود قاسم نايت بلقاسم (حياة وأثار، شهادات ومواقف)، دار الأمة، الجزائر 1993.
9- هذي هي الثقافة، دار الأمة، الجزائر 1996.
10- حزب البعث الفرنسي، دار الأمة، الجزائر 1996.
11- الهوية الوطنية (الحقائق والمغالطات)، دار الأمة، الجزائر 1996.
12- مفتاح اللغة العربية، دار الأمة، الجزائر 1996.
13- اللسان: قاموس عربي مبسط (حجم صغير، تحت الطبع).
14- المفتاح: قاموس عربي (حجم متوسط، تحت الطبع).
15- تأملات ومواقف (تحت الطبع).
16- وجها لوجه (تحت الطبع).

وإلى جانب الوظائف الرسمية المذكورة، فهو عضو منتخب في عدة هيئات وجمعيات منها:
- عضو قيادي في اتحاد الكتاب الجزائريين.
- أمين عام المجلس الإسلامي الأعلى (سابقا).
- عضو الجمعية العربية للعلوم السياسية بالقاهرة.
- عضو مؤسس وقيادي (نائب الرئيس) في الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية.
- عضو المنظمة الوطنية للمجاهدين.
- عضو المنظمة الوطنية لأبناء الشهداء.
- عضو مؤسس وقيادي، في الجمعية الجزائرية لاتحاد المغرب العربي.
- حائز على جائزة الإمام عبد الحميد بن باديس للثقافة العربية الإسلامية الممنوحة من مركز المستقبل الإسلامي والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، لعام 1992.

مقدمة الطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي حررت معظم فصوله خلال سنة 1989 عرف العالم أحداثا جساما، وتحولات جذرية ومآس فظيعة في العديد من أقطاره، كانت في معظمها ذات صلة مباشرة بموضوع هذا الكتاب... مما يضفي عليه طابع الجدّية ويعطيه بعض المصداقية في التحاليل والاستنتاجات المتوصل إليها في الطبعة الأولى، حول أسباب ونتائج التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي (البسيط والمركب) في العالم...

ولعل من أبرز تلك الأحداث المستجدة التي لها علاقة بهذا الموضوع هي:

أولا: حرب الخليج الثانية (1991) التي انتهت بتمزيق وحدة العراق الترابية على أساس عرقي لغوي في الشمال (كردي- عربي) وديني مذهبي في الجنوب (سنة- شيعة) وقد تم ذلك كله تحت مظلة اللوائح الجديدة للأمم المتحدة القاضية بإعطاء حق التدخل "الدولي" السريع لحماية الأقليات (الدينية أو العرقية أو اللغوية)في العالم... بقطع النظر عن الميزان الأعرج الذي بات يطبق به هذا القانون "النكتة" بين صرامته في العراق... ومهزلته في فلسطين ولبنان والبوسنة والزايير ورواندا والشيشان...!

ثانيا: مأساة البوسنة والهرسك (1992) ذات الطابع (الديني- العرقي) الذي فاق التعصب فيها أقصى درجات تطرفه وأقسى ضروب وحشيته، وأوسع نطاق ممارسته على امتداد السنوات الأربع التي عرفتها المأساة!

ثالثا: مأساة رواندا والزايير ذات الطابع (العرقي- اللغوي) الذي أشعلت ناره في الخفاء كل من فرنسا وانجلترا دفاعا أو حفاظا على نفوذهما اللغوي، ومن ثمّ السياسي ضمن الصراع (الفرنكوفوني- الانجلوفوني) المزمن الذي يكاد يشمل كل أقطار القارة السمراء في الوقت الحاضر!

رابعا: مأساة الصراع والتعصب الأعمى (العرقي والديني واللغوي) الذي تمارسه مخلفات النظام الشيوعي الروسي ضد شعب طاجاكستان والشيشان هذين البلدين المسلمين الصغيرين اللذين يتوقان بكل عزم وإيمان إلى الحرية والاستقلال التام عن مطرقة الكريملن على غرار الشعوب الأخرى التي استقلت في السنوات الأخيرة عما كان يسمى "بالاتحاد السوفياتي"

وبناء على هذه المستجدات حول الموضوع، فقد ارتأينا تضمين فصول الكتاب (في طبعته الجديدة) بعض ما رأيناه مفيدا لدعم تحليلنا السابق، وتأكيد بعض توقعاتنا التي أثبتت الأيام صحتها فيما بعد كاستفحال الأزمة في قبرص والسودان واسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية (أحداث لوس أنجلس العنصرية سنة 1992) وكذلك تفكك "تشيكوسلوفاكيا" التي انشطرت إلى دولتين مستقلتين بعضهما عن بعض بسبب الاختلاف اللغوي، ومثلها كندا التي كادت أن تلحق بها لولا فارق 3٪ من أصوات الناخبين في الاستفتاء الأخير على استقلال مقاطعة "الكبك" عن كندا بسبب الاختلاف اللغوي أيضا!!

ولذلك ننبه القارئ إلى عدم الاستغراب من بعض الصيغ الواردة في الكتاب (في طبعته الجديدة) والتي تتحدث عن الاتحاد السوفياتي وبلغاريا الشيوعية سنة 1990، وعن روسيا الحالية (1996)، وعن اثيوبيا سنة 1990 واريتريا سنة 1996 وعن يوغسلافيا سنة 1990 وصربيا وكرواتيا والبوسنة والجبل الأسود سنة 1996، وعن عنصرية نظام جنوب افريقيا في السابق وديمقراطية هذا النظام اليوم... إلى غير ذلك من البلدان والحالات التي اقتضى ذكرَها سياقُ التحليل والاستشهاد في الكتاب، مما نجم عنه ترك صيغة الماضي مثلما وردت في الطبعة الأولى وأضيفت إلى بعض فصول الكتاب المادة الجديدة التي قيلت أو وقعت فيها، سواء في الهند أو طاجاكستان أو البوسنة أو الشيشان، أو غيرها من الحالات المتصلة بهذا الموضوع الانساني (النفسي الاجتماعي الثقافي السياسي) المعقد الذي لن يعرف -في اعتقادنا- زوالا أو حلولا نهائية ولا حدودا ثابتة في الزمان ولا في المكان على امتداد وجود الإنسان على هذه الأرض.

المؤلف

الجزائر في: 1996/12/31

مقدمة الطبعة الأولى

اذا كانت لعصرنا الحاضر سمات تطبعه، فلا شك ان من بينها ظاهرة التعصب. وعلى الرغم مما يبدو - ظاهريا - من زوال للعامل الأساسي الذي كان يثير التعصب في الماضي، والمتمثل في الدين، وذلك بفعل الإلحاد، وتقلص ظل الكنيسة في الغرب من جهة، وزوال السلطة المركزية للخلافة الإسلامية في الشرق من جهة ثانية، الى جانب ظهور مبدأ اللائكية الذي يقضي بفصل الدين عن تسيير شؤون الدولة والمجتمع من جهة ثالثة... فإن هذه الظاهرة (أي التعصب) لم تزدد إلا تكريسا في الواقع بفعل عوامل جديدة أعطتها مزيدا من القوة والخطورة، وهي تتمثل - على الخصوص - في النزعة القومية التي اجتاحت العالم في الوقت الحاضر، مفرزة بقوة لفيروس من الحمى الانفصالية، والدعوة الى الحق في التميّز والاستقلال والسيادة للعديد من الشعوب والمجموعات السكانية التي كانت - الى وقت قريب - تنضوي تحت لواء دين واحد أو - على الأقل - مذهب واحد، فصار التعصب نتيجة هذه العوامل ذا أبعاد مضاعفة تمثلت في ظهور «الشوفينية» التي تتأجج في الصدور وتنفخ في النفوس الشعور بالحقد لدى الشعوب المتجاورة بعضها إزاء بعض... وبذلك اتخذ المسار التعصبي منحى جديدا في الصراع والتناحر بين الشعوب والمجموعات البشرية على أساس الاختلاف في الجنسيات واللهجات واللغات... فضلا عن بقاء التعصب الديني والمذهبي قائما كسلاح في أيدي السياسيين «المحترفين» يشرعونه كلما رأوا فيه فائدة لتكريس الخلاف والاختلاف الذي يخول لهم «ولرعاياهم» حق التميز والاستقلال عن الأغيار في نظرهم.

وهكذا ظهرت مضاعفات مفعول التعصب في عصرنا الحاضر، فاتسعت دائرته بموجبها من المجال الديني الذي كانت فيه لعدة قرون، الى التعصب العرقي واللغوي، مع كل ما بين هذين العنصرين من تداخل شديد، على اعتبار ان اللغة الى جانب كونها تمثل أحد أقوى رموز السيادة الوطنية، فهي تشتق من اسمها الجنسية المرتبطة باسم العرق (أو الجنس) الذي يتمحور هو الآخر حوله ولاء الشعوب وانتمائها الى أمم وقوميات، وبوصف اللغة وعاء للثقافة، فلها دور أيضا في تشكيل سمات الشخصية القومية التي تحمل ـ عادة ـ اسم اللغة واسم الجنس في نفس الوقت... ومن ذلك مثلا، ما نلاحظه في عالمنا المعاصر من تسمية الشعوب والمجتمعات بأسماء لغاتها، فيوصف أو يسمى ألمانيا من يتحدث بالألمانية كلفة قومية، ويسمى انجليزيا من يتحدث بالأنجليزية، ويسمى عربيا من يتحدث بالعربية، ويسمى روسيا من يتحدث بالروسية، ويسمى فرنسيا من يتحدث بالفرنسية، وقس على ذلك أهم الشعوب والأمم المعتبرة في العالم.

وهكذا تلصق دائما أسماء الأجناس البشرية باللغات التي تتحدث بها (كقاعدة وليس كاستثناء) بقطع النظر عن الأصول السلالية والعرقية لتلك الأجناس، في الماضي أو الحاضر... كما تتغير أسماء الأجناس والمجتمعات بتغير اللغات التي تتحدثها، وقد تزول أسماء مجتمعات بكاملها بمجرد زوال لغتها من التداول في الواقع، وطالما أنه لا يوجد مجتمع بدون لغة، فإن المجتمعات التي زالت أسماؤها بزوال لغتها من التداول في الوجود ـ لسبب من الأسباب ـ ستعطى بصفة عفوية، أسماء جديدة تنسبها الى اللغة التي أصبحت سائدة لديها، وذلك لأن اللغة ـ كما أسلفنا ـ هي قدرة مكتسبة وليست فطرية في الإنسان، ومن ثمة فهي قابلة للظهور والزوال وقابلة للقوة والضعف، وكل ذلك متوقف على إرادة الأفراد الناطقين بها.

والدليل على أن اللغة لا تورث فيزيولوجيا للأمم والشعوب، هو اختلاف اللغات لدى البشر من جهة، وعدم القدرة على الكلام لأي مخلوق إنساني يتربى في معزل عن الجماعة، (حتى ولو كان مولودا لأبوين

فصيحين) من جهة أخرى، والدليل العلمي الآخر على عدم وراثة اللغة كألفاظ وكلمات هو وجود ملايين الأطفال من أبناء العرب الذين ينشأون في مجتمعات أجنبية لا يعرفون غير لغة المجتمع الذي ينشأون فيه، ويتعلمون لغته، عن طريق الاكتساب، ولا نجدهم يعرفون أية كلمة من لغة أبويهم، اذا لم يكن هذان الأبوان يتحدثان اللغة العربية مع أبنائهما في المحيط العائلي (الاجتماعي).

فالملونون لا يستطيعون ـ مثلا ـ أن يغيروا بشرتهم بإرادتهم، ولا طوال القامة يصبحون معتدلي القامة بإرادتهم والعكس صحيح، وذلك لأن هذه الصفات خلقية تورّث فيزيولوجيا دون أن يكون لأصحابها حول ولا قوة في تغييرها جذريا، في حين أن الظاهرة اللغوية هي غير ذلك تماما، حيث يمكن لكل العرب مثلا أن يصبحوا غير عرب اذا تخلوا إراديا وكليا عن استعمالهم للغة العربية (التي يحملون اسمها وأسماءها كشعب وكأمة) لعدة أجيال متلاحقة، أي حاملين لجنسية الأمة التي يتحدثون لغتها، مثل أبنائها دون سواها، كما هو الحال في فرنسا مثلا أو بريطانيا أو أمريكا في الوقت الحاضر، بالنسبة لبعض الجاليات ذات الأصل العربي أو الإفريقي.

وهذا المثال موجود في التاريخ القديم والحديث، وهو صالح لكل زمان ومكان، وينطبق على كل المجتمعات المماثلة، وإلا فأين هم الأقوام الذين كانوا يتحدثون اللغة السامية والحامية، والكنعانية والكوشيطية والفينيقية... وما الى ذلك من اللغات المنقرضة، مع أن سلالة تلك الأقوام لم يثبت زوالها قط، وهي موجودة بيننا في هذا العالم، ولعل بعض أجيالنا في الحاضر قد يكونون منحدرين منها، ودون أن نملك القدرة على إثبات ذلك أو نفيه، وانما الذي زال بالتأكيد من تلك المجتمعات (التي كانت تحمل أسماء اللغات المذكورة) هي لغاتها، فزالت تلك الأقوام تبعا لذلك لغويا واسميا من الوجود، مع بقائها جسميا في الوجود، وهذا هو الفرق بين الوراثة الجسدية اللاإرادية الحتمية، والوراثة

اللغوية الاجتماعية والثقافية التي هي كلها صفات مكتسبة عن طريق التعلم والوعي والإرادة، وبالتالي تظل غير ثابتة البقاء كثبات الصفات الجسدية أو الخلقية الموروثة لا إراديا.

فاعتبارًا لكل هذه العوامل المتداخلة فيما بينها والمحدثة لظاهرة التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي، ونظرا لما يكتنف هذا الموضوع المستجد من غموض لدى العديد من القراء، وبطلب وتشجيع كامل من ضميري، والأصدقاء... كان الإقبال على إنجاز هذا العمل المتواضع ،إجلاءً للغموض، وخدمة للعلم والحياة، وإثراء للمكتبة العربية بمثل هذا الموضوع النادر المعالجة، بالكيفية المتوخاة فيه (فيما نعتقد) وهكذا سيقف القارىء الكريم على مفهوم التعصب وأسبابه، وأنواعه الهامة، مفصلة كلا على حدة، ثم عرضها مجتمعة في شكلها المتداخل العناصر بتقاطعاتها وأمثلتها الحية، وشواهدها الملموسة والناطقة في شتى بقاع العالم بحسب الامتداد التاريخي، (الرأسي) والجغرافي (الأفقي)، مع عدم الاكتفاء في ذلك بالسرد التقريري والتحليل النظري (المدعم بالمقارنات والاستنتاجات) فحسب، بل أولى اهتماما كبيرا لوصف العلاج ـ بقدر المستطاع ـ للظاهرة المرَضية، مما يكسب العمل بعض الفائدة العملية الى جانب الفائدة النظرية ـ بطبيعة الحال ـ لتفادي الأخطار الناجمة عن التعصب المتجاوزة الحدود، والتخفيف من حدته المدمرة، بتنبيه المهتمين والساسة للنقاط الحساسة، وتشخيص الداء الذي يعتبر نصف الدواء، مع إعطاء الفرصة للوقاية التي تظل دائما خيرا من العلاج. هذا كله باختصار هو ما روعي في الكتاب، ولاشك أن القارىء المثقف سيلمسه بين السطور والصفحات والفصول، وذلك ما نأمله إرضاء للخالق في شؤون الخلق التي لا تعرف مستجداتها ومضاعفاتها حدودا ولا سدودا أمام جموح الإنسان، ما دامت الأرض مستمرة في دورانها تحت أقدامه المتحركة. والله نسأل التوفيق لما فيه خير الأمة، بوحدتها، وفلاحها، وخير الإنسانية برقيها وتآخيها وسلامها.

الجزائر في: 1990/08/01

الفصـــــل الأول

التعصب: تعريفه، مظاهره، أسبابه، تفسيراته العلمية

تعريف التعصب:

إن التعصب، شأنه شأن المفاهيم الحديثة اصطلاحا ـ في العلوم (الاجتماعية والنفسية) لم يستقر فيه الباحثون والدارسون على تعريف واحد جامع ومانع، وذلك بالنظر الى حداثة المصطلح من جهة، وتعقد موضوع عالم الإنسان المتداخل الجوانب، النفسية والاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والحضارية، أو العمرانية عموما (كما يطلق عليها ابن خلدون في مصطلحه المعروف)... من جهة أخرى...

ولذلك نكتفي هنا بذكر أربعة تعاريف لأشخاص مختلفين، لمحاولة تلمس أهم المعاني التي يتضمنها مصطلح «التعصب» من الناحية العلمية الموضوعية: لقد ورد في تعريف أحد علماء النفس الاجتماعي وهوالدكتور **حامد زهران** "أن التعصب هو اتجاه نفسي جامد مشحون انفعاليا، أو عقيدة أو حكم مسبق (مع) أو ـ في الأغلب والأعم ـ (ضد) جماعة أو شيء أو موضوع، ولا يقوم على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية (بل ربما يستند على أساطير أو خرافات) وإن كنا نحاول أن نبرره، ومن الصعب تعديله، وهو يجعل الانسان يرى ما يحب أن يراه فقط، ولا يرى ما لا يحب أن يراه، فهو يعمي ويصمّ ويشوّه إدراك الواقع، ويعد الفرد أو الجماعة للشعور والتفكير والادراك والسلوك بطرق تتفق مع اتجاه التعصب" [1].

---

(1) حامد زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة (بدون تاريخ)، ص:165

ويعرفه معجم العلوم الاجتماعية بأنه «ضرب من الحماس الشديد الذي يدعو الى الغلو والاستمساك برأي أو موقف معين وله مظاهر مختلفة، وأوضح ما يكون في المواقف الوطنية والآراء الدينية» [1].

وورد في تعريف آخر للتعصب على أنه «موقف معارضة الجماعات الخارجية، وخاصة عندما لا يكون هناك تفاعل مباشر بين هذه الجماعات وبين الجماعة التي ينتمي اليها الفرد» [2].

ويرى كريتشي، وكريتشفيلد أن «التعصب هو تلك المعتقدات والاتجاهات المتعلقة ببعض المساوىء التي يراها الفرد أو الجماعة ضد أقلية عنصرية أو قومية» [3].

ونحن اذا تمعنا في التعاريف الأربعة المذكورة للتعصب على سبيل المثال وليس الحصر... فإننا نلاحظ أنها وإن اختلفت في عباراتها، وفي شموليتها للموضوع، إلا أنها بالقطع غير متناقضة مما يدل على أن كل عالم من هؤلاء المعرّفين حاول أن يركز على ما يراه هاما (من وجهة نظره) في موضوع التعصب!

على أن أهم هذه التعاريف وأكثرها شمولية ودقة هو التعريف الأول للدكتور حامد زهران، وقد لفت انتباهنا الى شيء مهم في فرز جانبين مهمين في التعصب، وهما التعصب للشيء أو التعصب ضد الشيء، والملاحظ أن المفهوم المتداول للتعصب لدى الأغلبية من غير المتخصصين أن التعصب ممقوت لذاته، وهو يكون بمعنى «ضد» وليس بمعنى «مع» مع أن هناك فرقا كبيرا بين التعصب للشيء أو المبدأ أو بمعنى آخر التمسك بالمبدأ الى آخر لحظة من لحظات الحياة، (اذا اقتنع المرء بأن هذا المبدأ حق)، وبين التعصب والحقد ضد الآخرين أو مبادىء الآخرين. فالتعصب المقيت المدمر هو الذي ينصب (ضد) الآخرين، وليس ما هو متعلق بأفكار أو قناعات أو مبادىء الشخص المتعصب، مما يجعلنا نشبه التعصب هاهنا

---

(1) معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (بدون تاريخ)، ص:160.
(2) د. حامد زهران، علم النفس الاجتماعي، المرجع السابق، ص:165.
(3) د. عطوف محمود ياسين، مدخل في علم النفس الاجتماعي، دار النهار للنشر، بيروت 1981،ص :99.

بما يقال عن الحرية الفردية بأنها تنتهي عندما تبتدىء حرية الآخرين! وعليه فبقدر ما يجب أن ننظر الى موضوع التعصب بحذر شديد، بقدر ما يعتبر مشكلة حيوية في التفاعل الاجتماعي، ويعتبر حاجزا يصد كل فكر جديد، ويعزل أصحابه عن الجماعة الأخرى، ويبعدهم عنهم، ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذي تستهدفه جهود البشر في كل الحالات الحضارية السوية.

والملاحظة الثانية التي نخرج بها من استعراض هذه العينة من التعاريف هي أن التعصب يتفرع الى عدة أنواع ويشمل عدة مجالات حيوية في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات والأمم. وهذا يقودنا الى تحديد أنواع التعصب أو صوره حسب المجالات التي يظهر فيها أكثر من غيرها في عالمنا المعاصر، والتي لها أبعاد تتفاوت فيما بينها خطورة وحدّة، على علاقات الشعوب فيما بينها، وعلى وحدة الأمم وتلاحمها، وتلاقح حضاراتها وتقدمها كمجموعة بشرية يفترض أن تكون ذات حد أدنى من القيم الانسانية المشتركة.

مظاهر التعصب وأسبابه:

ان من المعاني التي نستخلصها من تحليل الواقع أن التعصب بعبارة واحدة هو التطرف، يأتي في الطرف المقابل له الاعتدال والاتزان، ذلك أن التجرد المطلق من أية قيمة أو معنى من معاني الحياة، يؤمن بها الكائن الإنساني، هو عبارة عن ضياع وعدمية، لكن التعصب الأعمى لهذه القيمة على حساب الآخرين هو التخلف بعينه، والتخلف قصور في العقل والقصور في العقل هو دليل الجهل أو نقص المعرفة...

وهذه السمات الظاهرة الدالة على نفس التخلف تنطبق على بعض الأمم والمجتمعات، كما قد تنطبق على أفراد في المجتمعات، والعبرة هنا تكون بالكيفية وبالعدد (كثرة أو قلة)، حيث أن كثرة العدد هو الذي يرجح الكفة لصالح هذه الصفة الحميدة (الاعتدال والاتزان) أو تلك الصفة المذمومة (التعصب والتطرف)، والتعصب هنا كلمة مطلقة تأتي مقابل

الاعتدال والاتزان، وتعني المبالغة في التشدد الزائد عن اللزوم، مع رفض التراجع والاعتراف بالخطأ (من باب مَعْزة ولو طارت) وهذه المبالغة في التشدد والتعصب للفكرة ضد غيرها، قد تكون في الدين، كما قد تكون في المذاهب السياسية والاجتماعية والفرق الرياضية والمدارس الفنية والأدبية، وفي التفوق العرقي أو العنصري، وفي الوطنية العرقية، وفي اللسان الوطني أو القومي، بل وفي أي شيء هام يخطر على بال الإنسان من علاقات يمكن أن تنشأ بين أبناء البشر في عالمهم الفريد والعجيب!

وإذا كانت هذه هي صفات التعصب ومظاهره فان أبرز صفات المتعصب هي ضيق الأفق، سواء كان هذا المتعصب فردا أو جماعة، ومن هنا كان التعصب عائقا يقف في وجه التقدم الحقيقي والتحضر والتحرر...

ويجدر التنبيه ها هنا إلى ضرورة التفريق بين الإيمان والتعصب، نظرا للتداخل الموجود بينهما، والذي يمكن أن يشكل لبسا في أذهان البعض في غياب التحليل والتوضيح.

نقول هذا خاصة في مجال التعصب الديني حتى لا يظن البعض أن كل مؤمن متعصب وأن درجة الإيمان والفضيلة لدى الأفراد تقاس بما يتصفونه به من سلوك تعصبي إزاء الأغيار...!...!.

فالتعصب غير الإيمان بمذهب اجتماعي أو فلسفي أو سياسي أو ديني، فالإيمان ينبع من الوجدان والعقل، وهذان القطبان يتعاونان فيما بينهما ليجعلا من الإيمان منهجا في الحياة يجمّلها في نظر المرء ويجعل لها طعما ومعنى وهدفا يسعى إليه ويضحي من أجله... والإيمان بهذا المعنى وفي هذا النطاق يعتبر دافعا أساسيا للحركة والحيوية والتوثب الدائم إلى التقدم والتحرر والرقي والتحضر... وبالتالي المزيد من طلب العلم والمعرفة، مع تقبل كل رأي مخالف وبحثه والنظر فيه، وقد يصبح بعد الاقتناع محطة انطلاق أخرى، وحافزا لإيمان جديد أقوى وأرسخ في مبادئه، قد يلغي حتى الإيمان السابق، ولعل أبرز مثال لهذه الحالة نلاحظه لدى العديد من المفكرين ورجال العلم (والإيمان) الذين اعتنقوا

الإسلام في السنوات الأخيرة مثل الفيلسوف الماركسي الفرنسي (روجي ڤارودي) والمفكر المسيحي (ڤانسان مونتاي) وحتى بعض القساوسة في كل من مصر وفرنسا وانجلترا وأمريكا وكوريا واليابان الخ...

وما اعتناق الإسلام من قبل هؤلاء الذين كانوا من قبل شديدي الإيمان بمذاهب وأديان أخرى إلا دلَيل على أن الإيمان الحقيقي (كما قلنا) لا يعني التعصب على الإطلاق، بل يعني التحرر الفكري والتدبر والتقدم والبحث عن الأفضل دائما في الدنيا والآخرة... ذلك أن أساس الإيمان حرية العقل، فإن الذي يكون عقله مستعبدا لا يمكن أن يؤمن أبدا، ونذكر حادثة الصحابي الجليل بلال بن رباح (مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم) وقولته المأثورة لمولاه (أمية بن خلف) وهو تحت التعذيب (بين الموت والحياة) عندما طلب منه أن يكفر بدين محمد لاعتباره عبدا مشترى من السوق، ولا حق لعبد أن يسلم دون إذن مولاه (!!!؟) فقال بلال، وبعفوية ذات دلالة بالغة، تظل حجة عبر العصور، لنا ولغيرنا من الذين يحاولون تسخير الروح لخدمة المادة، قال بلال لمولاه ما معناه «أنا صحيح عبدك، وقد اشتريتني من السوق كالسائمة، ولكنك يا مولاي انت اشتريت جسدي المادي، فهو لك إن شئت، أما روحي فهي حرة، ولا تعبد إلا الله الأوحد!» فأساس الإيمان اذا هو الحرية، أما أساس التعصب فهو إغلاق الفكر والعقل، الذي هو مدعاة للتحجر والجمود والتقهقر على اعتبار أن الذي لا يتقدم هو بالطبع يتأخر.

وإذا كنا قد بينا الآن الفرق الشاسع بين الإيمان وبين التعصب بهذه الدرجة من الوضوح المدعم بالشواهد الحية فيما نعتقد، فهناك قيمة أخرى تظل مرتبطة بالنقطتين، وتقف في الحدود الفاصلة بينهما، بحيث قد ينطلق الفرد منهما الى التعصب، وقد ينطلق منهما إلى الإيمان... وهذه القيمة المفروضة على الإنسان العاقل هي الانتماء والولاء.

فالانتماء مرحلة أولى في حياة الفرد قد تؤدي إلى الإيمان، إذا كانت قائمة على حرية العقل وحرية الوجدان (كما سبق الذكر) كما قد تؤدي إلى التعصب إذا كانت مرتدة إلى انغلاق العقل والوجدان،

والانتماء باعتباره موصلا إلى الإيمان أو الي التعصب، يكون مرتبطا بالوطن (أي يكون الانتماء والولاء للوطن) أو بالجماعة أو بالحرفة أو بالحي أو بالمدينة أو بالجهة داخل الوطن الواحد أو يكون لدين معين أو لمذهب سياسي بعينه أو لفريق كرة قدم وطني، أو جهوي أو محلي... أو للغة معينة، أو لعنصر، أو للون، أو قوم أو أمة أو شعب، وهكذا نجد ان الانتماء والإيمان والتعصب أفراد في أسرة واحدة. فالانتماء هو الأب أو الأم، والإيمان والتعصب هما الأولاد الناتجين عن هذه الأمومة، وهذه الأبوة، ولا يحق لأحد أن يطعن في هذه (الوالدية) لكون أحد الأولاد خيّرا والآخر شرّيرا، أو أحدهما وسيلة للتقدم والانطلاق والتحرر، والآخر وسيلة للجمود والتوقف والتحجر... ان الاختلاف بين الإخوة مهما بلغت درجته وتباينت وتناقضت لا ينفي أنهم اخوة من الناحية الشرعية والقانونية على الأقل، وان جريمة هابيل في حق قابيل لا تنفي إطلاقا، وبأية صفة من الصفات، أبوة آدم وأمومة حواء للأخوين العدوين!!

التفسيرات العلمية للتعصب:

يرى العلماء في تفسيرهم للتعصب أنه آلية نفسية تؤدي وظيفة خاصة تتلخص في التنفيس عما يختلج في النفس من توتر وكراهية وعدوان مكبوت، وذلك عن طريق عملية الإزاحة والإبدال، دفاعا عن الذات وعمن تحبه.

وكما مر بنا فإن التعصب قد يكون (مع) وقد يكون (ضد)، واذا حاولنا ان نبرر فيما سقناه من أمثلة عن التعصب (مع)، والذي قد يشتبه أمره لدى البعض بالإيمان... فإن التعصب (ضد) يمثل الوجه الآخر الأكثر قتامة للتعصب، واذا كان التعصب (مع) يحتوي على بعض الحب في قلوب المتعصبين نحو (من) و(ما) يتعصبون لهم، فإن التعصب (ضد) لا يحتوي إلا على الحقد والكراهية المدمرة للذات المتعصبة...

فالتعصب ضد العقيدة الدينية (أو الإلحاد) يكون رد فعل أو تكوينا عكسيا لرغبة عنيفة نحو التمرد على سلطان الدين، وبصفة عامة على السلطان أيا كان نوعه...

إن التعصب بهذا المعنى قد يجني لنفسه بعض الكسب (المؤقت) غير ان هذا الكسب لا يعدو ان يكون وهما أو مخدرا موضعيا، لا يلبث أن يتحول إلى سراب، أو أن هذا الكسب هو بمثابة ما يجنيه العصابي من سلوكه الشاذ، أي أنه كسب وهمي ناقص، يفوت على صاحبه [1] فرصة حل مشكلته حلا رشيدا وواقعيا مجديا، وقد يكون التعصب عبارة عن إسقاط لمشاعر الذنب لدى الفرد على الآخرين الذين يعتبرهم (كبش فداء) أو (ضحايا).

ومن هذه الزاوية يمكن ان يوضع التعصب ضمن ما يسميه علماء النفس بحيل الدفاع، ويرى بعض العلماء الآخرين في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي [2] ان التعصب يكون نتيجة لإحدى حيل الدفاع المسماة بحيلة (تحول المخاوف) لدى المتعصبين من تهديد المتعصب ضدهم لكيان وأمن ومكانة ذات المتعصبين، وهذا النوع من دوافع التعصب قد يكون في جانب منه هو الذي نلاحظ في ظاهرة التعصب الديني في أوروبا إزاء الإسلام، وخاصة في يوغسلافيا وفرنسا وألمانيا والسويد [3] والتعصب الصهيوني ضد العرب والمسلمين في الوقت الحاضر مثلما كان الأمر بالنسبة لألمانيا النازية ضد اليهود قبل ذلك!!

وهناك من العلماء من يذهب في تفسيره للتعصب (في جانب منه) الى اعتباره نوعا من الأنانية وحب الذات أو النرجسية، وهو مثلما يكون سلوكا يقوم به الفرد مع نفسه، فكذلك نلاحظه في شكل نرجسية لدى شعوب أو أمم أو جماعات بشرية إزاء نفسها إيجابا، وإزاء غيرها سلبا!

وكما أشرنا من قبل فان مشاعر التعصب الناتجة عن هذا الاعتقاد، بقدر ما تعتبر مقيتة ومدمرة وسلبية للذين تقع ضدهم، تعتبر في المقابل عامل تكتل واتحاد وقوة متصلبة ضد الغير، ومفتتة أو مشتتة لهم اذا لم

---

(1) مصطفى زيور، سيكولوجيا التعصب، مجلة علم النفس 1952م عدد: 23.

(2) د. حامد زهران، علم النفس الاجتماعي، مرجع سابق ذكره، ص: 168.

(3) مجلة الدعوة الإسلامية عدد: 275، 13-06-1990 والعدد: 277، 20-06-1990 .

يقاوموها بآلية مشابهة لها (وليست بالضرورة أن تكون تعصبا مثلها) كأن يقابل التعصب الصهيوني الأعمى ضد العرب والمسلمين بوعي قومي وارادة قومية للوحدة الحقيقية الشاملة التي من شأنها أن تجهض نتائج التعصب بالنسبة للأعداء، وتحقق التقدم والقوة الضامنة لاستمرار شل حركة التعصب الممارس ضد الذات العربية المسلمة، والمفروض عليها فرضا!! ومن ثمة تفادي مخاطره الوخيمة على وحدة الأمة كما هو حاصل حتى الآن!!

ونظرا لأن التعصب أنواع ودرجات في الحدة كما هو ملاحظ فاننا سنتناول في الفصول التالية أهم أنواع التعصب، وهي: فيما يبدو لنا ثلاثة:

- التعصب العرقي أو العنصري.
- التعصب الديني.
- التعصب اللغوي.

مع الاشارة الى ان هذه العناصر الثلاثة للتعصب وان قسمت بمقتضى منهج الدراسة على هذا المنوال، إلا أنها في الحقيقة متداخلة العناصر تداخلا شديدا كما سيتبين لنا ذلك أثناء التحليل.

الفصل الثاني

التعصب العنصري

أولا ـ التعصب العنصري أو الجنسي:

يعتبر التعصب العنصري أي تعصب عنصر بشري ضد عنصر بشري آخر من أبرز وأخطر أنواع التعصب، كما هو ملاحظ، مما حدا بواضعي ميثاق الأمم المتحدة الى التنصيص في مادته (55) على عدم الفوارق بين الناس، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين الرجال والنساء، مع التركيز على ضرورة مراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا... ومع ذلك ورغم ذلك كله نلاحظ تعصبا عنصريا أو جنسيا لم يشهد له التاريخ مثيلا، سواء فيما يتعلق بالتعصب ضد الهنود الحمر، ثم الزنوج بعد ذلك في أمريكا (العالم الجديد) وفي جنوب إفريقيا وفي الكيان الصهيوني بالنسبة للعرب بمختلف ألوان بشراتهم، كما وقع من قبل لليهود (على اختلاف ألوان بشراتهم) على يدي العنصرية النازية المندثرة في ألمانيا، لتظهر في أماكن أخرى من العالم بأشكال مختلفة المظهر والمكان، وموحدة المحتوى والمستوى في التعصب والكراهية من أبناء آدم نحو أخوة لهم آخرين في الإنسانية، لا لشيء إلا لاعتقاد المتعصبين منهم بأنهم أرقى عنصرا وأنقى دما من الآخرين، مما حدا بهم الى إغلاق أبواب المدارس والجامعات والأماكن العامة في وجوههم وحرمانهم من الوظائف الهامة وممارسة سياسة الإجحاف في الأجور... وهو ما يجعلنا نطلق على مثل هذا النوع من التعصب العنصري اسم «مرض الكراهية» لأسباب وهمية، لا أساس لها من الحقيقة العلمية، كما يتبين لنا من الحقائق والبراهين التالية:

1ـ التعصب العنصري واقع محسوس، أساسه أوهام في العقول، وأحقاد في النفوس:

إن من أهداف العلم عموما وعلم الاجتماع على وجه الخصوص هو أن يبرهن للناس على وجود الحقيقة والتمييز بينها وبين الخرافة والوهم والخيال، ومن هذه الموضوعات الوهمية المغلفة ببعض المغالطات الساذجة موضوع العنصرية أو التفوق العنصري الذي يولد بدوره التعصب العنصري في أذهان بعض المجتمعات تجاه مجتمعات أخرى أو بعض الأفراد في مجتمعات تجاه أفراد في مجتمعات أخرى، مما يجسد تمييزا مشينا بين أبناء البشر، لا يوجد مثيل له حتى بين قطعان الحيوانات المتوشحة!

إن الأدلة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن العنصر السلالي هي مسألة بيولوجية في أساسها، إلا أن طابعها التفاعلي الاجتماعي جعل منها في بعض المجتمعات عبئا ثقيلا على الطابع الثقافي الاجتماعي لهذه المجتمعات الممارسة للتمييز العنصري...

وبالرغم أن كافة علماء الانثروبولوجيا والاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، ينكرون تماما هذه الفكرة التي يقوم اعتقادها على وجود تفوق جنس بشري [1] أو عنصر سلالي على عنصر آخر (...) فلا يزال لهذا الوهم الكبير تأثير ملموس في العديد من المجتمعات البشرية التي ترفع شعار الدفاع عن حقوق الانسان!

أي إنسان هذا الذي تدافع عنه؟! هل هو إنسان له مواصفات خاصة أو لون بشرة خاصة، هي حكر على قارة بعينها، دون القارات الأخرى والجزر المتناثرة حولها!!؟

فاذا كان الأمر كذلك، وهو ما يخالف المنطق والعلم، فلماذا لا تضيف هذه العقائد أو الأنظمة العنصرية صفة الى هذا الانسان ليعرف بها بين أغياره على غرار صفة (السوبرمان) التي خلعها عليه الفيلسوف الألماني (نيتشه) الذي يعتبر الأب الروحي للعقيدة النازية، التي كانت

---

(1) د. كمال دسوقي، دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو ـ المصرية 1976، ص:220.

تطبيقاتها الفعلية فيما بعد على أيدي الأحفاد دمارا وعارا على موقديها الى يوم يبعثون!!

2ـ النقاوة السلالية خرافة (عنصرية):

ومهما يكن من أمر اعتماد العنصريين على التقسيمات التي أوردها بعض العلماء على أساس أفقي (وليس عموديا) بالنسبة لألوان البشرة وحجم الجمجمة، وشكل الشعر... فإن هذه التصنيفات العريضة لا تكتسي، بأي حال من الأحوال، تصنيفا عنصريا تفاضليا بين الأجناس، هذا إلى جانب أن هذه التقسيمات الثلاثية للسلالات البشرية [1] قد وقع فيها تداخل واختلاط منذ آلاف السنين الى درجة أن كل جماعة عنصرية لا تخلو من وجود أشكال لجماعات عنصرية أخرى نتيجة عوامل كثيرة لا حصر لها، مما يؤكد يقينا أنه لم يعد يوجد عنصر نقي على وجه الأرض في الوقت الحاضر، وحتى اليهود مهما تحولوا الى كيان اجتماعي محدد، وكونوا لهم دعوة صهيونية عنصرية ودولة حامية لها عسكريا بقصد معاملتهم كعنصر مستقل... ليسوا سلالة أو عنصرا متميزا، بل هم خليط لا مثيل له من الأعراق والسلالات البشرية، بحيث لا يكاد الملاحظ يجد سلالة أو شكلا بشريا غير ممثل في السكان الذين يغتصبون فلسطين في الوقت الحاضر (من الفلاشات بأثيوبيا الى الخزر بروسيا مرورا باليهود العرب ويهود أوروبا بشرقها وغربها) هذا من ناحية علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، أما من ناحية الجغرافيا فإن الحديث عن تفوق السلالة والجنس،لا يقل خرافية وسُخْفا بحيث إنه لا يجد أي سند مادي يسنده في الواقع الملموس!!

فالسلالة والجنس من جهة يعتبران أقل قدرة على خلق الروابط بين الناس (كروابط الاشتراك في اللغة أو الدين أو الأنماط الثقافية، أو أسلوب الحياة بما يكفل تحقيق وحدة في الفكر وفي والوعاء الذي يحتوي

---

(1) صلاح الدين الشامي،دراسات في الجغرافيا السياسية، مكتبة الأنجلو ـ المصرية 1970، ص:70 ـ73.

ذلك الفكر...). ومن جهة أخرى فإن الاختلاط بين البشر قد أزال كل احتمال للنقاوة في الجنس، وتظل الأمور كلها مجرد تخمين لا يستند الى أي أساس علمي صحيح، بحيث أن الدراسة للسكان كوحدات سياسية لا ينبغي لها أن تتقيد بقيود هذه النقاوة، وحتى لو أرادت أن تتقيد بها فانها لا تستطيع أن تجد ما يسند هذه النقاوة (الجنسية) في الواقع للأسباب المذكورة... ومن الأدلة الأخرى التي يمكن أن نسوقها كشاهد على ذلك أننا نجد أناسا ممن يدعون انهم ينتمون الى عنصر أو جنس واحد، فرقت بينهم عوامل أخطر من السمات العنصرية ذاتها، كالاختلاف في الدين أو اللغة، مما لا يبقي لعامل العنصر فيه أي تأثير، وأبرز الأمثلة المعاصرة على ذلك نأخذها من ارلندا بالنسبة لوحدة العنصر والاختلاف في الدين، وكندا بالنسبة لوحدة العنصر والاختلاف في اللغة (ونعني هنا مقاطعة الكبك بالذات) وهو ما يؤدي بنا الى القول المؤكد أن عدم التناسق بين أفراد العنصر الواحد (المدّعى) قد يكون منبثقا من واقع الاختلاف الثقافي، أي في الوعاء الذي يسع ويصور فكر كل جماعة منها، ويميزها عن الآخر تمييزا جوهريا يدفعها الى المطالبة بالاستقلال كما هو حاصل في المثالين المذكورين (ارلندا الشمالية ومقاطعة الكبك) وقد تقاس على هذين المثالين الحيين عشرات الحالات المماثلة في العالم المعاصر انطلاقا من وضع المسلمين في بلغاريا وروسيا ويوغسلافيا الى كشمير مرورا بليبريا واليونان وأثيوبيا مع الملاحظ أن هؤلاء المسلمين هم من جنس الأغلبية من الناحية العرقية كما يسود الاعتقاد!!

3- وهم الشعور بالنوع:

إن التعصب العنصري أو التعصب ضد العنصر الآخر ناتج عن التوهم بالشعور «بالتفوق النوعي» إزاء الآخر المتميز عنه في بعض الصفات البيولوجية كما سبقت الإشارة... وهو تمييز أقرب ما يكون الى تمييز الإناث عن الذكور في بعض الصفات التي لا توجد عند هذا الجنس وتوجد عند الجنس الآخر، دون أي شعور بالتفاضل بين هذا الجنس

وذاك... ويعود سبب تجسيم عنصرية الجنس أو السلالة من دون سائر الرباطات الاجتماعية الأخرى للجماعات البشرية الى نوع من الوهم أسماه عالم الاجتماع الأمريكي جدلجز (منذ سنة 1913) [1] بالشعور بالنوع، ومفاد ذلك أن تتكون الجماعات الانسانية في مجتمع معين من أولئك الذين يدركون المشابهات اللونية والجسمية التي تجمع بينهم، ثم ينطلق هؤلاء من هذا المؤشر (العنصري) الى اعتبار كل من لا يشابههم أو يشاركهم في تلك الصفات خارجا عن الجماعة العنصرية، مع الإشارة الى أن (جدلجز) لم يقصر المشابهات المؤدية الى التجمع والتكتل ضد الجماعات الأخرى في التمييز البيولوجي وحده، كما هو الشأن في المجتمعات الممارسة للتعصب العنصري في الوقت الحاضر... بل أكد أن أسس التشابه المؤدية الى «الشعور بالنوع» قد تشمل أي نوع من أي رابطة أخرى أو سمة مشتركة كالدين أو اللغة، أو المركز الاقتصادي أو المنطقة الجغرافية إلى جانب السمات الجسمية المشتركة المذكورة...

على أن الشعور بالنوع هذا حتى عند التسليم ـ جدلا ـ بوجوده، فهو لا يخول للمنضوين في دائرته حق التعصب والاعتلاء، أو الاحتقار لمن يخالفونهم في تلك السمات المشتركة (الجسمية والثقافية)، بل أقصى ما يمكن أن يصلوا اليه من سلوك (نتيجة هذا الشعور بالتميز النوعي) هو الشعور بالانتماء الى مجموعة قومية واحدة، وهذا أمر مشروع نحو الذات، عندما لا يتحول الى موقف عدواني متعصب ضد الغير، كما هو قائم اليوم في البلاد التي تمارس التمييز العنصري كعقيدة وسياسة مدمرة!!

4 - رأي العلم في وراثة السمات الجسمية الظاهرة:

إذا لم يكن ليجادل اثنان في اختلاف السلالات البشرية في بعض الصفات الجسمية الظاهرة (كلون العينين مثلا) فإن وراثة السمات الأخرى

(1) Giddings, Principles of sociology Mac Millan, New York 1953, p.17.

غير مؤكدة علميا، بل أن الوراثة قد تهب الاستعداد للون الجسد، أو نوع الشعر أو الطول... ويبقى بعد ذلك الدور للبيئة الطبيعية، والظروف المعيشية التي قد تغيره أو تثبته [1]، ويمكن الجزم ها هنا تأكيدا لهذه الحقيقة العلمية أن الزنوج في أمريكا أو فرنسا طرأت على ألوانهم وأشكالهم وأجسامهم العديد من التغيرات البيئية التي ما كان لها أن تطرأ عليهم لو بقوا في بيئتهم الطبيعية (الإفريقية) وحتى لون البشرة، فالملاحظ أنه يسير دوما نحو البياض ـ جيلا بعد جيل ـ ولم يلاحظ العكس أبدا بالنسبة للزنوج (الأوروبيين)، وحول هذا الموضوع يقول الدكتور كمال الدسوقي: «فالفروق السلالية أصلها البيولوجي أقل أهمية بكثير من أصلها الثقافي، ويتفق العلماء على أن الجماعات العنصرية كلها ربما قد ترث نفس القدرات والاستعدادات من حيث الكم والكيف، وإن كافة الفروق في شخصية الجماعة وسلوكها، يبدو أنها ترجع للفروق في المواقف التي تتعلم منها، وليس التميز أو التعصب العنصريان آخر الأمر، غير دعوة مصطنعة للتجمع حول واحدة من عدة مشابهات بين جماعات البشر»[2]، ونجد تأكيدا لما ذهب اليه هذا الباحث العربي لدى باحث أنثروبولوجي غربي هو (خوان كوماس) حيث يقول: «إن درجة الاختلاط العنصري في قارة مثل أوروبا ـ مثلا ـ تجعل من العبث نجاح أية محاولة لتصنيفها على أساس مكاني، فإن تصنيفها على أساس صفتين جسديتين فقط، مثل لون العينين والشعر، تنتهي بتقسيم ثلاثي للسكان في أي إقليم من أقاليم أوروبا يقع عليها الاختيار لإجراء الدراسة، بمعنى أننا سنجد اشتراك هاتين الصفتين في ثلث السكان فقط، وبإضافة صفة جسدية ثالثة مثل تكوّن الجمجمة الى الصفتين الاسبقتين، تبقى لنا مجموعة أصغر، واذا أضفنا الى هذه الصفات طول القامة فإننا نجد عدد السكان الذين تظهر فيهم هذه الصفات كلها يتضاءل الى حد كبير» [3].

---

(1) كمال دسوقي، اختيار الأفراد، الأنجلو ـ المصرية، 1962، ص:66.

(2) دراسة المجتمع، الأنجلو ـ المصرية، الطبعة الثانية، 1976، ص:223.

(3) خرافات عن الأجناس، ترجمة محمد رياض (ب ت)، ص:16 ـ 17.

5ـ التعصب العنصري بين الوراثة والاكتساب:

ومما سبق نتبين أن التعصب هو عبارة عن الشعور بالنوع، وهذا الأخير ناتج عن أوهام تغرس في أذهان الناشئة في أي مجتمع، من فئة أو جماعة، نحو فئة أو جماعة أخرى يعتقد أنها مغايرة له في بعض الصفات الجسمية المعروفة.

ورغم انتفاء أي سند علمي (كما أثبتنا) لنظرية تفوق أحد العناصر البشرية على غيرها، فإننا لا نفتأ نلاحظ ادعاء بعض الجماعات البشرية، وتجسد ذلك الإدعاء في سلوكها الذي ينم عن عقيدة راسخة في أذهان أفرادها، بأنها مجموعة بشرية ميزها الخالق عن غيرها في الوجود منذ بدء الخليقة بميزات وفضائل يجعلها تشعر بالتفوق والتعالي، وبالتالي التعصب لأفراد جماعتها ضد الجماعات الأخرى المتعايشة معها في نفس المكان والزمان، والتعصب بهذا المعنى هو فكرة راسخة في أذهان المتعصبين نحو (أغيارهم) أكثر مما هي تخلف حقيقي بيولوجي وحتمي في فطرة تلك الجماعات التي يمارس ضدها هذا التعصب العنصري الاستعلائي البغيض!!

ومهما تكن الوسائل التي يتبعها علماء السلوك لاستئصال هذا الاعتقاد العنصري المتعالي الراسخ في النفوس، وتطهير عقول الأفراد من هذا الاتجاه العنصري... لا يزال التعصب يعكس تركيبا اجتماعيا يتمثل في نظام الطبقات الاجتماعية، والأدوار المخصصة أو المعطاة اجتماعيا لمختلف الجماعات العرقية أو السلالية أو العنصرية، وأنماط المعايير الاجتماعية والقيم التي تبرز علاقات هذه التراتيب... وبعبارة أخرى فالناس لا يرثون العداوة وراثة بيولوجية وإنما ينشّؤون عليها اجتماعيا أو يتعلمون هذه الاتجاهات نحو اخوانهم في البشرية تعلما ويكتسبونها اكتسابا، ويمكن تحديد أهم العوامل الاجتماعية المساعدة على هذا التعلم للتعصب العنصري في النقاط التالية:

1 – التوهم بوجود اختلافات بيولوجية جوهرية بين بني البشر، وغرس هذا الوهم في أذهان الناشئة ليتخذ شكل الاعتقاد الراسخ بحقيقة

هذا التفوق الموهوم، ومن الأمثلة الحية على ذلك ما تقوم به العقيدة الصهيونية في فلسطين من غرس لعقدة الحقد والتعصب ضد العرب بدعوى أنهم جنس أدنى، في حين كان آباء وأجداد هؤلاء اليهود العنصريين أنفسهم يعيشون لعدة قرون بين أحضان العرب دون أن يظهر عليهم ما يبين هذا التفوق في أي شيء، ودون أن تمارس عليهم الأغلبية العربية أي تمييز أو تعصب عنصري يوحي بوجود نوع من عقدة الاستعلاء لدى العرب إزاء اليهود (سواء كانوا يهودا عربا أو كانوا من جنسيات أخرى)، مما يدل على أن ظاهرة التعصب الحالية ضد العرب في فلسطين هي وليدة التعلم والاكتساب، وليست حقيقة «علمية» تستمد حجتها وشرعيتها من الوراثة البيولوجية.

2 - قد ينتج هذا التعصب العنصري من المنافسة التي قد تكون سائدة في مجتمع معين بين طوائف غير متجانسة سلاليا (في المظهر) وبالتالي اجتماعيا، فينجر عن هذا الاختلاف الشكلي الذي يغذيه التنافس الاقتصادي والتكتل المصلحي، نوع من التعصب الناتج عن الحقد والكراهية لأفراد الجماعة المنافسة (سواء من الغالبة نحو المغلوبة أو العكس».

3 - والمنافسة الاقتصادية بين فئات المجتمع الواحد اذا غذتها العوامل السلالية قد تكتسي طابع الطبقة الاجتماعية ذات المصالح المتضاربة والمتعارضة، مما يزيد من حدة التعصب العنصري ويضاعف من شدة وطأته على أفراد المجتمع الواحد، مثلما هو ملاحظ في نظام الطوائف المطبق في الهند حتى الآن!

4 - وفي غياب أي عامل خارجي للتخفيف من هذا التعصب المعقد كظهور مصلحين مؤثرين، أو قوانين رادعة، أو دين جديد ذي طابع توحيدي وتقريبي بين الطبقات، فإن الفرجة أو الهوة بين الفئات المتعصبة ستتخذ شكل قيم تأخذ في الرسوخ ـ شيئا فشيئا ـ الى أن تصبح (دينا مقدسا) وتدرج في المناهج المدرسية لتكريسها ـ عبر

الأجيال ـ كما هو الشأن اليوم في ممارسة وتقاليد بعض الأنظمة العنصرية الشهيرة في العالم!

5 - ومما يدل على أن التعصب مكتسب وليس موروثا هو انعدام دليل فسيولوجي أو نفسي على وجود غريزة تسمى غريزة التعصب، وغاية ما هنالك أن في الأفراد استعدادات للتعصب (كما مر بنا) وهذه الميكانزمات أو الآليات ليست شرا كلها، لأنها بقدر ما هي ظاهرة الضرر عندما تنصب أو توجه لصالح التعصب، ضد الغير (كما هو الشأن في حالتنا هذه)، فهي أقل ضررا الى حد ما اذا اعتبرت كحصانة ذاتية ضد الذوبان القومي في الغير (...) وهو ما يمكن أن يطلق عليه عبارة التعصب (مع) وليس (ضد) كما سبقت الاشارة الى ذلك في تعريفالتعصب.

وطالما أن التعصب مكتسب وليس فطريا، فهو في أقصى الحالات لا يعدو أن يكون استعدادا يتطلب التوجيه والاستغلال لإيجاده وغرسه في جماعة ضد جماعة أخرى معينة، بوسائل إقناع تغرس في نفوس الناشئة منذ الصغر، وبالتالي فهو ناتج اجتماعي بأتم معنى الكلمة!

6 - إن التعصب كاتجاه نفسي منفعل تحدده المعايير والقيم الاجتماعية التي يتعلمها ويتشربها الأطفال من سلوكات وتصرفات والديهم ومعلميهم، ومن وسائل الإعلام وسائر عوامل التنشئة الاجتماعية التي تقوم بطريقة دوغماتية دون نقد أو تفكير أو تنبيه.

7 - إن التعصب ينمو بالتدريج مع نمو الفرد، بدليل أن الأطفال الصغار (بيضا وسودا) تجدهم يلعبون دون عقدة قبل أن يفرقهم الكبار في المؤسسات المختلفة المذكورة، ببذر روح الحقد والكراهية في نفوسهم، وفي إطار الفعل ورد الفعل الطبيعي من الضحايا تنتج الظاهرة المؤسفة التي تظل تتغذى من نفسها الى ما لا نهاية، بين الفئات والأجيال كما هو حاصل!. فالطفل وهو ينمو في مجتمعه يلاحظ تباعد جماعته (للأسباب المذكورة) عن الجماعة التي يتعصبون ضدها ويصفونهم بصفات النقص

والدونية، ومن ثمة يصبح معدا لكي يلاحظ الفروق التي تجعله يدركهم كمهددين لأمنه ومكانته، وحياته في بعض الأحيان!

8 - إن الفرد ابن جماعته في تعصبها، ولا يتطلب نمو التعصب ضد الجماعة المكروهة بالضرورة وجود احتكاك مباشر معها، أو المرور بخبرات أليمة مع أعضائها، مع الملاحظة أن وجود الاحتكاك المباشر قد يضاعف من كراهية الفرد للجماعة المكروهة نتيجة ما يلمسه من رد الفعل الحتمي الذي لابد أن يصدر من أفراد هذه الجماعة نحوه، مما يعزز وجود التعصب المكتسب من الجماعة التي ينتسب اليها الفرد نحو الجماعة العنصرية الواقعة في الطرف المقابل.

9 - الى جانب العوامل السابقة يلعب التعمير دورا هاما في تثبيت دعائم التعصب ضد الجماعة بأسرها، ومن الملاحظ هنا أن الجماعات (المتكارهة) عندما تكون متباينة في المستوى الاجتماعي يكون التعصب أكثر بروزا للعيان، ويتمثل في الحاق الصفات المضادة من كل طرف بالطرف الآخر!

10 - قد تكون لظاهرة التعصب جذور تاريخية، وعلى سبيل المثال نذكر أن الزنوج الذين نقلوا من إفريقيا كرقيق منذ قرابة الثلاثة قرون كانت النظرة اليهم تتسم بالتحقير والدونية والامتهان المطلق من قبل المستوطنين البيض، ومع مرور الزمن أصبح الزنوج يتمتعون بمكانة سمحت لهم (نتيجة نضالات طويلة وكفاح مرير، وتضحيات جسام)، بأن يطالبوا بحقوقهم كمواطنين بحكم القانون، ثم بالمساواة مع من كانوا «أسيادهم» وأسياد أسلافهم، وأدرك البعض من هؤلاء «الأسياد» البيض أن هذه المطالبة هي نوع من الانتقام والتهديد لمصالحهم الموروثة من عهد العبودية والاسترقاق، وأخشى ما يخشاه البيض اليوم هو انتقام السود منهم اذا أتيحت لهم الفرصة، وهذا ما يجعل التعصب ضد السود قائما، إلى أجل غير معلوم، وفي نفوس الطرفين معا، ولعل مسلسل «جذور» الذي عرض في أمريكا وشاهده ملايين الأمريكان، والذي يروي قصة الاستعباد

(اللاإنساني) الذي عانى منه أسلاف هؤلاء الزنوج الحاليين ليدل على أن التعصب ما يزال غائر الأثر في نفوس الأمريكان، ولا ينمحي من النفوس قبل أن يأخذ الزنوج بثأرهم من البيض، وهذا ما يخشاه البيض على الدوام، وهو ما يدل عليه رفض الشعب الأمريكي العنصري المتعصب للمرشح الزنجي لرئاسة الجمهورية «جيسي جاكصون» مرتين!!

فالتعصب في أمريكا هو بمثابة جبل الثلج الذي لا يظهر منه الا القليل فوق سطح الماء (مثل أحداث لوس انجلس 1992) بينما الجزء الأكبر يظل غائصا في الأعماق!!

وكخلاصة لحديثنا عن كون التعصب مكتسبا وليس موروثا بيولوجيا، نورد هذه الفقرة لأحد الباحثين المتخصصين هو الدكتور حامد زهران حيث يقول: «أضف الى هذا... وجود أسباب وجذور التعصب التي ترجع الى المراحل المبكرة من حياة الفرد.

إن الفرد يكون في بداية حياته متمركزا حول ذاته وينمو ليصبح متمركزا حول الجماعة، وينمو الشعور (بالنحن) ويزداد ارتباطه بجماعته وتتضح المسافة الاجتماعية بين جماعته والجماعات الأخرى. واذا حدث أثناء هذا النمو العادي أن لعبت عوامل التنشئة الاجتماعية دورا في اكتساب الطفل وتعليمه اتجاهات مناهضة أو معادية لإحدى هذه الجماعات زادت المسافة الاجتماعية، ونما الاتجاه السالب وشحن انفعاليا، وأصبح تعصبا مكتسبا ضد هذه الجماعة، خاصة اذا علمته جماعته أن الجماعة الأخرى تختلف عن جماعته في المعايير والقيم، وأن معايير جماعته هي الصحيحة ومعايير الجماعة الأخرى هي الخطأ...» [1].

أثر التعصب العنصري على المجتمع:

إن من النتائج الحتمية التي تنجم عن استفحال التعصب العنصري داخل مجتمع معين هو حدوث سمات نفسية تلحق بشخصية الأفراد

---

(1) علم النفس الاجتماعي، مرجع سبق ذكره، ص:167.

المضطهدين تميل بهم الى العدوانية وعدم التسامح، بل العنف ومرارة النفس، وهو أمر طبيعي كرد فعل للعدوان الواقع عليهم بغير أي وجه حق، غير الظلم والبهتان. وهذا ما يفسر الى حد بعيد ظواهر الجريمة المتفشية في المجتمع الأمريكي والتي كثيرا ما يكون أبطالها هم من الزنوج نتيجة ما يعانونه من أبناء وطنهم من بيض البشرة (...) ويمكن تحديد أهم السمات الناجمة عن التعصب العنصري لدى الفئات المضطهدة في النقاط التالية:

1 - عدم الاستقرار النفسي نتيجة التخوف الدائم من العدو المتربص به والمشحون بالكراهية نحوه، وهذه الصفة تنسحب على الفئة الممارسة للتعصب مثلما تنسحب على الفئة التي يقع عليها التعصب على حد سواء، وذلك لكون كل واحدة من الفئتين تخشى من الأخرى، فيحدث نتيجة ذلك نوع من انعدام الأمن النفسي ثم الاجتماعي تبعا لذلك.

2 - التحفز الدائم للعدوان على الآخرين لتأكيد الذات «العصبية» أو الاستعداد لصد العدوان الواقع من الآخرين والانتقام منهم (بالنسبة للفئة المضطهدة) يصيّر الجو مشحونا على الدوام بالفعل ورد الفعل العدواني بين الفئات المتمايزة عنصريا.

3 - التمرد على القيم الاجتماعية والنظام العام داخل المجتمع الواحد نتيجة الشعور بالكراهية لكل ما يأتي من هذا المجتمع الذي لم يستطع أن يحمي الفئة المضطهدة من الفئة الجائرة المتعالية، وتضطرب القيم الاجتماعية بسواد الظلم، وفي المقابل تستأصل روح الانتصار للحق من نفوس المظلومين الذين لم يجدوا قوانين تنصرهم وتشد أزرهم حيال الفئات الظالمة التي يواجهون شرها دون نصير أو مساعدة من خارج الذات المظلومة.

وهذا ما يفسر ظاهرة اعتناق الزنوج الأمريكان للإسلام بكيفية تلفت الانتباه بالنسبة للفئات الأخرى التي لا يمارس عليها التعصب العنصري من قبل البيض، وقد نلمس لهذه الظاهرة معنى لتصريح بطل العالم

للملاكمة (محمد علي كلاي) بعد إسلامه وذهابه إلى الحج بأنه ولأول مرة في حياته شعر وهو يطوف بالكعبة المشرفة بأنه متساو مع جميع البشر الآخرين بصرف النظر عن اختلافهم عنه ببعض الصفات البيولوجية (التي لا قيمة لها في نظر الإسلام) الذي لا ينظر الى بني البشر إلا على أساس درجات بعضهم على بعض في تقوى الخالق الأوحد!

4 - ومن أخطار التعصب (النفسية والاجتماعية) أنه يباعد بين مشاعر الناس ويحفر هوة سحيقة من العداوة بينهم، وقد تظل هذه العداوة (ظاهرة أو مكبوتة) بمثابة القنابل الموقوتة التي تهدد بالانفجار في أي وقت، بمجرد أن تذرو رياح الفتنة بعض مفجراتها بين الأطراف، وتأكيدا لهذا الخطر المستمر الذي يهدد وحدة واستقرار المجتمعات التي يسود فيها التعصب... يقول الدكتور عطوف محمود ياسين (مختص في علم النفس الاجتماعي) ما نصه: «وللتعصب أخطار وعيوب في إثارة الصراع السلبي والتشاحن والتنافر والعداء وانتشار السلوك اللاأخلاقي والعدواني في المجتمع، وقد صور العالمان (ديوي وهمبر) أخطار التعصب بحلقة مفرغة تكشف عن نفسها في خبرات الحياة لدى ضحايا التعصب وتتأثر شخصياتهم بها »[1].

5 - ومن أخطار التعصب ـ أيضا ـ أنه يكرس التفكير المتزمت الذي قوامه أفكار مسبقة، ومتواضع عليها في طبع وشخصية أفراد جماعة معينة يؤمن بها عامتهم (للاعتبارات التعليمية أو الاكتسابية المذكورة) ولعدم وجود أو توفير المعرفة الكافية (غير المتحيزة) بخصائص أفراد تلك الجماعة فتصبح تلك الأفكار المسبقة والانفعالات الهوجاء سيدة الموقف في الساحة الاجتماعية بين الفئات المتعصبة.

6 - وكنتيجة حتمية للتزمت الفكري المذكور في النقطة السابقة ينشأ عدم التسامح بين الأفراد، بحيث يصبحون لا يرون في الدنيا غير الأبيض والأسود، وأن من لم يكن معهم فهو ضدهم بالضرورة (وأن

---

(1) علم النفس الاجتماعي، دار النهار، بيروت، 1981، ص: 101.

الوقاية خير من العلاج) ولا يخفى ما لهذا الموقف المتصلب من آثار على حياة الأفراد في أي مجتمع، والتي تتطلب أقصى قدر من المرونة في الأخذ والعطاء والتسامح في كل ما يمس أو يضر بالأحوال الشخصية وكرامة الإنسان وشرفه، على اعتبار أن للتسامح حدودا دنيا يقع في طرفها الشرف والكرامة وحدودا قصوى يقع في طرفها التزمت والتعصب!

7 - ومن أخطار التعصب أنه يؤدي إلى إزالة الشعور الإنساني أو التقليل منه لدى الفئات المتعصبة المتعالية مما ينجر عنه تفكك خطير للعلاقات الإنسانية في المجتمع، والتي من المفروض أن توحد بين البشر كإخوة في الإنسانية، وعندما يصل الحقد والتطاحن بين الآدميين الى هذه الدرجة الخطيرة، فإنه يؤدي بأفراد المجتمع الواحد إلى انعدام الولاء لقيم بعضهم بعضا، وقد ينتج عن ذلك تحالف ضد الذات (مع الغير) قد يصل الى درجة الخيانة بدافع الانتقام، والتأثر من الممارسات العنصرية التي يعاني منها المستضعفون من أبناء الأمة الواحدة أو الوطن الواحد...

8 - قد يدفع التعصب الأعمى بأصحابه الى ارتكاب جرائم في حق المتعصبين ضدهم، وخير مثال على ذلك ما يدور في الشيشان والزايير ورواندا وفلسطين والبوسنة في الوقت الحاضر، وما يرتكب في هذه البلاد من جرائم بشعة في حق الإنسانية جمعاء، وقد ورد في معجم العلوم الاجتماعية عن أخطار التعصب ما نصه:«... وأيا كان مصدر التعصب فإنه يعتبر قوة هادمة ومخربة، وعاملا من العوامل الرئيسية في الحيلولة دون تحقيق وحدة الأمة، لأنه يؤدي الى اضطهاد جماعي لبعض فئات المجتمع، وإنكار لحقوقها الاجتماعية والسياسية. فتعصب الصهيونية قد سلب السكان الأصليين في فلسطين حقوقهم في وطنهم، وما يعانيه السكان الأصليون في دولتي جنوب إفريقيا وروديسيا من اضطهاد وحرمان، انما يرجع الى تعصب بعض الأوروبيين على أساس الحاجز اللوني...»[1].

(1) مرجع سبق ذكره، ص:161.

9 – من العواقب النفسية لمرتكبي الجرائم الانسانية بدافع التعصب الأعمى أن حالتهم النفسية في النهاية ستكون في غاية السوء، وقد يشوبها نوع من الشعور بالذنب والخزي والندم بعد فوات الأوان، ويمكن أن نجد أمثلة حية لهذه الحالات لدى بعض الجنود والضباط الفرنسيين الذين ارتكبوا المجازر العنصرية ضد العرب المسلمين أثناء حرب التحرير الجزائرية، وكذلك لدى بعض الجنود والضباط الأمريكان الذين قاموا بالمجازر العنصرية ضد الشعب الفيتنامي، وهي حالات مسجلة في العديد من الأفلام الوثائقية!

ومن إحدى الدراسات العلمية التي أجريت على شخصية المتعصب نورد الفقرات التالية: «يلاحظ أن الشخص المتعصب ضد جماعة أقلية يميل الى التعصب ضد جماعات أخرى، وقد وجد في عدد من الدراسات والبحوث أن التعصب ضد الكاثوليك واليهود وجماعات أقلية أخرى واضح مما يدل على أن التعصب يعتبر إحدى سمات الشخصية» [1].

ويضيف التقرير في مكان آخر قوله: «وقد وجد أن الشخص المتعصب يفضل العقاب الجسمي والانضمام الى الأحزاب المتطرفة الأقرب من الفاشية، ويميل الى صلابة الرأي والمحافظة والتسلطية، ويتصف بجمود الفكر وجمود الاتجاهات وعدم المرونة، ويهتم بالمكانة الاجتماعية والقوة، ويتأثر بسهولة بأصحاب مركز السلطة ويميل الى العدوان والقلق، إلا أنه يكبته ويظهر مؤدبا هادئا، ويسقط عدوانه وقلقه على الجماعة التي يتعصب ضدها» [2].

علاج التعصب العنصري:

اذا كان من البديهي القول بأن ظاهرة التعصب العنصري، هي ظاهرة مكتسبة أو مصطنعة بفعل عوامل متداخلة ومتراكمة غذاها الجهل

---

(1) د. حامد زهران، علم النفس الاجتماعي، مرجع سبق ذكره، ص:167.

(2) نفس المرجع، ص:168.

والحقد والكراهية العمياء... فإن هذه الظاهرة طالما أنها مكتسبة اجتماعيا وليست فطرية في العقل أو موروثة بيولوجيا، فإن ما صنعه المجتمع بأسباب معينة يمكن أن يزال بانتفاء نفس الأسباب، ومن أهم الوسائل والطرق الكفيلة ـ في اعتقادنا ـ بزوال، أو على الأقل، التخفيف من ظاهرة التعصب العنصري هي:

1 - العمل على إزالة ومحاربة كل فكرة تشتم منها رائحة إيحاء بوجود تمايز بين أبناء البشر في الخِلْقة ،ومن حيث القيمة الجوهرية للإنسان (المتمثلة في الضمير والتفكير) وليس في الشكل الخارجي المقتصر على لون البشرة التي لا تعدو أن تكون ظاهرة مناخية، لا أكثر ولا أقل!!

2 - التركيز على ترسيخ القيم الإنسانية في المناهج المدرسية لتنشئة الأجيال على حب الإنسانية والنظر الى البشر كجنس واحد متساو في الحقوق والواجبات نحو أبناء جنسه على أقل تقدير.

3 - محاولة تحويل الأحقاد الناشئة عن التعصب العنصري والتي انجرت عنها حروب مدمرة ما تزال رحاها تطحن الأجساد الآدمية الى اليوم في جنوب افريقيا وفلسطين وسريلانكا والهند وأرمينيا ويوغسلافيا... الى أخطاء ناجمة عن الجهل وسوء التقدير والهمجية والغرور والأنانية، وليس الى أسباب تعود الى رقي العنصر وصفاء الدم وخرافة الانتقاء الإلهي المعبر عنها عنصريا (بشعب الله المختار!).

4 - تكثيف الأبحاث العلمية التي تنفي وجود التمايز العرقي بين أبناء البشر ونشرها على نطاق واسع ونقلها الى جميع لغات العالم المقروءة، مع تبسيط محتواها وتقديم بعضه في شكل آثار أدبية وفنية تؤثر في النفوس وتنير العقول البسيطة التي ليس لأصحابها من الثقافة والعلم ما يمكنهم من فهم نتائج الأبحاث العلمية المتخصصة في هذا المجال.

5 - البرهنة بالمنطق والأدلة العلمية على أن الجنس البشري واحد وليس أجناسا متعددة ومتباينة وأن الفوارق الموجودة في المعيشة اليوم بين

الشعوب هي فوارق متداولة بين الناس، بدليل أن العديد من الشعوب التي قد توضع اليوم في الدرك الأسفل من الترتيب الحضاري والبشري، كانت إلى وقت قريب جدا تتربع على قمة الحضارة البشرية، كالعرب والإغريق، والعكس صحيح بالنسبة لشعوب وأمم أخرى، مما يدل على أن الرقي والتخلف أمران يرتبطان بالإرادة البشرية، وليس بالتفوق العرقي والتعصب (للدماء النقية) مع أن فصائل الدماء البشرية واحدة بصرف النظر عن ألوان بشرات أو عيون أصحابها!

6 - السيطرة على المفاهيم التي تساند التعصب (لسبب من الأسباب المذكورة) وتشجعها البيئة في بعض الأحيان، وذلك إما بالقضاء على الصفات المنسوبة لأعضاء جماعات الأقلية بالتزاوج منها، وبالتثقيف وتحسين التربية والخدمات، ومنع عادات الاعتزال، وإما ـ بدلا من تغيير الصفات الفعلية الظاهرة هذه ـ تغيير المضمون أو الفكرة المتضمنة في التعصب العنصري ذاته، وذلك بتصوير جماعات الأقلية في صور جذابة جديدة تظهر مزاياهم ودورهم الاجتماعي وصفاتهم (مع محاولة إخفاء خصائصهم السلبية التي تنقص من قدرهم لدى المتعصبين ضدهم) مع ضرورة الاستخدام الفعال للصحافة والإعلام ووسائل التبليغ والتثقيف المختلفة (قصص، أفلام، مسلسلات) ويعتبر مسلسل (جذور) الأمريكي المشخص لقصة الكاتب الأمريكي الزنجي (أليكس هالي) من أفضل النماذج لهذا النوع من العمل المرغوب والمطلوب لردم الهوة بين أبناء البشر، وتنظيف النفوس من أدران الأحقاد، أو على الأقل التنبيه إلى خطورة التفكير في إعادة التجربة من جديد أو مواصلة المأساة إلى ما لا نهاية...

7 - العمل المتواصل والمخطط من قبل الحكومات والهيئات الدولية والإقليمية على غرس معاني التآخي الاجتماعي والتعاطف منذ الطفولة في المدرسة، وخلال عملية التنشئة الاجتماعية بين كافة الجماعات العنصرية، داخل الأمة أو المجتمع الواحد، مثل التركيز على أن مقومات

الأمة هي أسس ثقافية محضة وليس لخرافة نقاوة العرق فيها دور على الاطلاق،وقد دلت دراسات العالم (هاردنج) (1954) في هذا الخصوص على وجود علاقة قوية بين تعليم الفرد وتخفيف التعصب لديه [1].

8 - العمل الدائب (من الأطراف المعنية) على توفير الروابط والعلاقات التي من شأنها أن تتيح قدرا من التلاقي وتقريب وجهات النظر في تقبل مبدأ الحوار مع الطرف الآخر والتي لا تعدو أن تكون في معظم الأحيان فكرتهم السيّئة من نسج الخيال الحاقد، وهذه العملية التقاربية أو التصالحية تكون أكثر فعالية ويكتب لها النجاح عندما تتولاها أطراف ثالثة محايدة.

على أن نجاح هذا التقريب يتوقف على نزاهة ومقدرة الأشخاص والهيئات المقربة التي تتخذ من سلوكها قدوة تحتذى من الجميع قولا وفعلا، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال في هذا الخصوص جمعية (أص، أو، أص) الناشئة في فرنسا والمناهضة للعنصرية ضد العرب!!

9 - العمل الجاد والمقنع على إظهار الوجه القبيح للتعصب العنصري ليس للضحايا فحسب (والذي هو من باب أولى) ولكن اظهار الأضرار الناجمة عن التعصب بالنسبة للمتعصبين أنفسهم، مع إعطاء الأمثلة المحسوسة عن تلك الأضرار.

10 - ولئن كان الدين هو نفسه عاملا من عوامل التعصب (كما سنبين في حينه) إلا أنه في الوقت ذاته يعتبر عنصرا حيويا جدا في مكافحة التعصب العنصري، وذلك بنشر الوعي الديني وتقوية الوازع الأخلاقي في النظر الى البشر (انطلاقا من النصوص المقدسة ذاتها) بأنهم إخوة وأن لا فرق بينهم ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بفعل الخير والتقرب الى الله بالعطف على المخلوقات من عباده بدون استثناء، والدليل على دور الوازع الديني في القضاء على التمييز العنصري

---

(1) د. عطوف محمود ياسين، علم النفس الاجتماعي، مصدر سابق ذكره، ص:100.

والتعصب العرقي هو أن المتدينين من البشر (باستثناء اليهود) هم أقل تعصبا من الناحية العنصرية، وإن كانوا أكثر تعصبا من الناحية الدينية (وهذا موضوع آخر سيأتي تفصيله في مكان لاحق).

كما أن العديد من الملونين السود في إفريقيا وأمريكا على وجه الخصوص ممن يعتنقون الإسلام في الوقت الحاضر يصرحون بأنهم أقبلوا على اعتناق هذا الدين لأنه يمقت العنصرية، ويدعو الى المساواة، قولا وفعلا، بين أبناء البشر على أساس واحد لا يقبل أي استثناء!

ويجدر التدقيق ها هنا بأن مداواة مرض التعصب العنصري بالدين اذا انطبق بالدرجة الأولى على الإسلام، وبالدرجة الثانية على المسيحية (الى حد ما) فإنه لا ينطبق على اليهودية وذلك أن اليهود لا يمارسون العنصرية ضد غير اليهود فحسب، بل يمارسونها حتى على بعضهم!، كما ورد في نص هذا التقرير القائل : «وفي هذا المجال يجب الإشارة الى أن الفلاشا هم أيضا ضحية العنصرية. فبعد أن قامت دولة الكيان الصهيوني بجلبهم إثر عملية (موسى) التي تم فيها نقل يهود اثيوبيا الى الكيان الصهيوني عام (1984). فقد توقفت الوكالة اليهودية عن دفع المساعدات الاجتماعية للقادمين الجدد من اثيوبيا وقال ناطق بلسان وزارة الاستيعاب، بأن هناك (1400) من الفلاشا سيتضررون من جراء فصل (300) عاملة اجتماعية كن يعملن على تقديم الخدمات الاجتماعية لهم.

وعلى صعيد التمييز العنصري بين (الاشكنازيم) اليهود الغربيين (السفارديم) اليهود الشرقيين، فمن المعروف أن (السفارديم الذين يشكلون ثلثي سكان الكيان الصهيوني لا يتمتعون بالحقوق التي تتمتع بها الأقلية الغربية التي تستأثر بالمناصب العليا والهامة، وتترك للشرقيين الأعمال اليدوية التافهة، بل وحتى أنها تحرم الطائفة الشرقية من التعليم العالي» [1].

---

(1) جريدة الدعوة الاسلامية عدد: 1990/05/06.

الفصل الثالث

التعصب الديني

وإذا اعتبر الدين بحق دواء ناجعا لعلاج التعصب العرقي (كما أسلفنا) فإن التعصب الديني مرض، وخطر لا يعالجه التعصب العرقي إن لم يضاعف من خطورته في بعض الحالات (كما سيتضح لنا فيما بعد).

وكما أشرنا في الحديث عن مظاهر التعصب، بأنه ضرب من الحماس الشديد الذي يدعو الى الغلو والاستمساك برأي أو موقف معين، فإن التعصب الديني هو الآخر لا يقف عند حد الإيمان العميق بفكرة أو عقيدة، وتطبيقها في حدود المعقول الذي لا يلحق ضررا بالآخرين... بل التعصب هو تجاوز للاعتدال في الإيمان والسلوك، والتعدي الى نوع من الدفاع الهجومي بالحق أو بالباطل، عن هذه العقيدة، والاستخفاف بكل ما عداها من عقائد الآخرين، ورفض التحاور معهم والتسامح في تقبل مبدأ النقاش والأخذ والعطاء في إطار المبدأ القرآني «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» {الكافرون: 6} أو «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» {النحل: 125}.

ومن هذه الوجهة يعتبر التعصب الديني حالة مَرَضية على المستوى الفردي والجماعي، وهو يضر بالدين ذاته وأصحاب هذا الدين المتعصب له على حد سواء!

فسلوك المتعصب دينيا يتميز بالنظرة الحادة الضيقة الأفق، ويتصف بالرعونة والبعد عن التعقل والتصلب في الرأي، والخضوع لسيطرة الانفعالات الجامحة والاستهانة بالقيم والعرف الاجتماعي السائد، متى كانت هذه القيم أو كان هذا العرف لا يتفق مع اعتقاده (الذي قد لا يكون بالضرورة صائبا، فيما يتعلق ببعض الأمور المذهبية الفقهية الاجتهادية على الأقل).

واذا كان موضوع التعصب لا يتفق مع ما تواضع عليه المجتمع، فإنه يكون نتيجة لازمة لعدم التكيف الاجتماعي.مما قد يشعر المتعصب بالفشل اذا لم يتحقق طموحه في إطار القيم الاجتماعية المحيطة ببيئته ويؤدي هذا بدوره الى شذوذ نفسي ينعكس في رغبة جامحة في الأحداث التي تثير المعاناة وعدم المبالاة...

وتفصيل الحديث عن التعصب الديني يحتم علينا منهجيا تقسيم الموضوع الى عدة أجزاء متداخلة فيما بينها وهي:

I

تعصب أتباع دين معين ضد أتباع دين آخر:

ودون إهمالنا الأخذ في الاعتبار لدور العوامل السياسية والعرقية في إذكاء نار التعصب الديني عبر العديد من الأزمنة والأمكنة في العالم... يمكن إبراز أهم صور هذا التعصب الماثلة في الأذهان عبر الزمان والمجسدة في الميدان عبر العديد من الحروب، والمآسي الإنسانية التي دارت وتدور رحاها تحت شعارات وأغطية وأشكال وذرائع مختلفة في شتى أنحاء العالم المعاصر حتى هذه اللحظة!

واذا ضربنا صفحا عن ذكر المجازر (التعصبية) التي أسفرت عنها الحروب الصليبية التقليدية التي عرفتها أشهر منطقة لنشوء الأديان ومهبط الرسالات السماوية في العالم، وهي فلسطين، والتي عبر عن بعض جوانبها شكيب أرسلان بقوله: «فالتعصب ليس من سجايا المسلمين... فالصليبيون ذبحوا (70) ألف مسلم في المسجد الأقصى عند فتح القدس، حتى سبحت الخيل الى صدرها في الدماء» [1].

فإننا سنتحدث عن الحروب الصليبية الحالية التي انتقلت في بعض جوانبها من عداء مزمن بين المسيحيين والمسلمين، أو بين المسيحيين واليهود الى عداء جديد وتحالف (غير مقدس) بين المسيحيين واليهود من

(1) شكيب أرسلان، مختارات نقدية طبعة 2 دار الكلمة للنشر، بيروت 1983، ص:21.

جهة، والمسلمين من جهة ثانية، وبتعبير آخر بين المسلمين (كمسلمين) من جهة وبين جميع الأديان (السماوية منها والوضعية) من جهة أخرى، وهذا ما سنلمسه بكل وضوح ودقة في الحالات والشواهد الحية التالية:

1ـ التعصب المتبادل بين المسلمين والمسيحيين في لبنان:

وبصرف النظر عن كون الحرب اللبنانية الدائرة رحاها منذ خمس قرن في هذا البلد هي حرب متعددة الجوانب ومتشابكة الأطراف إلا أن القاسم المشترك الأعظم الذي لا يختلف في وجوده ودوره اثنان فيما نعتقد هو عامل التعصب الديني الذي ظل كالبركان الخامد عبر القرون، حيث يثور تارة ويهدأ تارة أخرى، ليتجمع ما في أحشائه من حمم متراكمة فيقذفها نارا حارقة من جديد... فتأتي على الأخضر واليابس!.

والدليل على أن التعصب الديني والطائفي هو سيد الموقف في الوضع اللبناني هو انشطار عاصمة دولته (حتى وقت قريب) الى شطرين على أساس الأغلبية السكانية من الطائفتين (المسيحية والمسلمة) مثلما حدث بالضبط لتمزيق القدس الى شطرين، على أساس ديني (يهودي إسلامي) وما يدعم ذلك ـ أيضا ـ تصلّب الطرف المسيحي في بيروت الشرقية بمباركة وتشجيع وحماية من فرنسا (المسيحية) والفاتيكان (الصليبي) ضد الاتفاق الحاصل في الطائف (المسلم) تحت رعاية قادة بلدان عربية (مسلمة). وللتدليل على خطورة هذا التعصب الديني المستغل، والمغذى من أطراف خارجية كثيرة ومختلفة (كما سبقت الإشارة) نطرح السؤال التالي: لو لم يكن في لبنان سوى طائفة دينية واحدة ومذهب فقهي واحد، فهل سيكون هذا البلد الصغير على نفس الحالة، وفي نفس الوضعية المعقدة والمستعصية التي هو عليها الآن؟!

بعبارة أخرى هل يوجد ضمن ما يسمى بجيش لبنان الجنوبي (الذي صنعته إسرائيل) مسلمون لبنانيون من أية طائفة كانت؟!

2ـ التعصب المسيحي ضد الإسلام والمسلمين في اليونان:

إذا ألقينا نظرة على هذا البلد الأوروبي المسيحي حاليا فإننا نجده قبل أقل من قرنين كان جزءا من خريطة الأمبراطورية الإسلامية في عهد الخلافة العثمانية... وبالضبط في 2 نسيان 1821 ألقي بنداء الى الهيلينيين «لنستعد بأنفسنا ولأنفسنا للكفاح في سبيل الاستقلال تحت شعار الإيمان والحرية والوطن» [1]، وهذه الشعارات الثلاثة كلها تمثل شحنات عاطفية مدعاة لإثارة البغضاء والتعصب في نفوس المواطنين من غير المسلمين، حيث إن الايمان يعني المسيحية، والحرية تعني الاستقلال عن الخلافة الإسلامية، والوطن يعني القومية اليونانية ضد الولاء لأحفاد فاتحي القسطنطينية في الباب العالي... وهكذا ففي 18 آذار من نفس السنة وجهوا الى الدول بيانا يعلمونها فيه بأن اليونان قد شق عصا الطاعة على الخلافة الإسلامية، ونتجت عن ذلك ثورة أودت بحياة زهاء 15 ضحية من المسلمين والمسيحيين، وكان هذا العصيان بمباركة كل من الفرنسيين والأنجليز والروس، وكان من نتائج هذا التحالف الصليبي المتستر بالدوافع القومية أن استقلت اليونان عن تركيا في 1822وتم تشكيل حكومة (وطنية)، وإمعانا في التمايز الديني الذي تم على أساسه هذا الانفصال وضع العلم اليوناني الحالي الذي يرمز الى صليب أبيض على خلفية زرقاء سماوية، وتوطدت بعد ذلك العلائق الصليبية بين اليونان والدول الأوروبية المساندة لها ضد تركيا المسلمة حتى هذه اللحظة!!

وهكذا بدأت القضية اليونانية عبارة عن حرب صليبية متجددة ضد الإسلام؛ وهي التدخل الأوروبي في نافاران سنة 1827 الذي حطم الأساطيل التركية والمصرية والجزائرية، وأفسد العلاقات بين الدول الصليبية الحليفة (فرنسا، أنجلترا، وروسيا) والدولة العثمانية.

---

(1) د. نور الدين حاطوم، تاريخ القوميات في أوروبا، ج1، ص:332.

ونتج عن ذلك قبول محمد علي باشا وإبراهيم باشا بالانسحاب من القضية اليونانية، وتسليم الحصون التي كانت بحوزتهما للجيوش الفرنسية، وتم الاعتراف من قِبَلهما باستقلال اليونان. وتجدر الإشارة الى أن مفهوم اليونان للدولة كانَ مفهوما قوميا كما يدل على ذلك هذا التعريف للأمة الإغريقية الذي يقول: «تتألف الأمة الإغريقية من أناس ما زالوا منذ سقوط القسطنطينية يدينون بالمذهب الأرثوذوكسي ويتكلمون لغة آبائهم، ويخضعون لحكم كنائسهم الروحي والزمني مهما كان البلد الذي يسكنونه في تركيا» [1].

وإذا كنا قد استعرضنا هنا هذه الشواهد التاريخية الحية فذلك لنعرف خطورة الاختلاف الديني بين الشعوب والأمم، ومدى امتزاج هذا الشعور الديني بالشعور القومي، مما قد يجعل التعصب مضاعفا، حيث يجمع بين الدافع القومي والدافع الإيماني أو الديني، ولذلك يسهل علينا تفهم خلفيات التعصب الديني الذي يمارس اليوم ضد المسلمين اليونانيين (لكونهم مسلمين). مما صيرهم في الخريطة القومية اليونانية هم أقرب إلى تركيا منه إلى وطنهم الأم اليونان، وقد يجد الأتراك المسيحيون تعاطفا وتقبلا من اليونان، أكثر مما يجده المسلمون اليونان أنفسهم!

ولمعرفة هذا الواقع الذي يعيشه المسلمون اليونانيون الذين ورثوا الإسلام عن أسلافهم أبا عن جد، على امتداد خمسة قرون، نورد هذه المقتطفات من لائحة مطالب جماعية موقعة من 15 ألف مسلم يوناني مقدمة إلى الهيئات الدولية سنة 1986 جاء فيها على الخصوص ما يلي: «هاكم بعض الأمثلة على التدابير الجائرة الرامية الى زعزعتنا من الناحية الاقتصادية»:

1 - يشترط في حالة شراء العقارات الحصول على ترخيص وإذن السلطات. ففيما عدا بعض الحالات لا يمنح هذا الإذن للمسلم فيما يمنح للمسيحي دون سؤال أو جواب... ورغما عما جاء في الدستور اليوناني

---

(1) نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص:374.

(المادة 17) « تكفل الدولة حق ملكية الأفراد ولا يجوز حرمان أحد من هذا الحق». فإننا محرومون من حق شراء الأموال غير المنقولة.

2 - المصادرة القسرية لأراضي أفراد الأقلية وخاصة الثمين منها.

3 - مصادرة عقاراتنا الموروثة أبا عن جد، بحجة ملكية الدولة لها، وبصرف النظر عن صكوك التملك.

4 - فرض عقوبات مالية قهرية تتراوح بين 5 - 10 ملايين دراخما على أصحاب المهن الحرة وحتى على معلمي القرآن بذرائع واهية!

5 - فرض قيود على رخص استعمال كافة وسائل النقل، تمتنع السلطات اليونانية عن منح أتراك اليونان تراخيص البناء أو صيانة وترميم بيوتهم منذ عشرين عاما، بخلاف المسيحيين اليونانيين الذين يتمتعون بهذا الحق، لذا نجد مناطقهم زاخرة بفلل ومبان فاخرة في حين ترى التخلف واضحا في المناطق التي نسكنها. فالمباني فيها قديمة تعود الى أكثر من نصف قرن أو قرن. فهذا مثال بارز على وجود تفاوت وتمييز في اليونان بشكل سافر.

تنص الفقرة الثانية من المادة الخامسة للدستور اليوناني على أن «تتكفل القوانين كرامة وحياة وحرية كل فرد يعيش في اليونان، بغض النظر عن قوميته وعنصره ولغته ودينه أو معتقده السياسي». كما تنص الفقرة الرابعة من المادة ذاتها على أنه «لا يجوز تقييد حرية أي مواطن من السفر داخل القطر وخارجه وفي العودة الى الوطن». وعلى الرغم من ذلك نجد التجاوزات التالية للدستور:

1 - أسقطت السلطات جنسيات بعض الذين مكثوا في الخارج فترة طويلة حيث منعتهم لدى عودتهم من الدخول الى اليونان، وحرمت السلطات اليونانية العائدين الى وطنهم من الخارج، من التمتع بحق المواطنة، وإن كانوا يحملون جوازات سفر نظامية.

2 - تخفيض مدة صلاحية جوازات السفر من خمسة أعوام الى عام واحد فقط بالنسبة لإخواننا الذين مكثوا أكثر من ستة أشهر في الخارج بسبب السياحة.

3 - اتباع سياسة التذويب بتشتيت شمل الأتراك المسلمين وإبعادهم إلى مناطق مختلفة بوعود يقطعها المسؤولون عن العمال كأن يجدوا لهم عملا جنوب اليونان شريطة نقل سجلات نفوسهم العائلية من بلدية منطقتهم الى منطقتهم الجديدة. إن هذا النقل الإجباري الذي يتم بتواطؤ السلطات مع الشركات الخاصة يجعل هؤلاء مكرهين على ارسال أطفالهم الى مدارس مسيحية بعد أن تستبدل أسماؤهم بأسماء مسيحية، علما بأن بعض عمال المناجم قد طردوا من أعمالهم لعدم إرسال أطفالهم لهذه المدارس» [1].

وتأكيدا لذلك التعصب الأعمى الذي تمارسه السلطات اليونانية على الأقلية المسلمة في هذا البلد نستشهد بهذا التصريح الوارد على لسان النائب المسلم الوحيد «الحر» في البرلمان اليوناني المكون من 300 عضو، والذي أجاب فيه السيد (صادق أحمد صادق) عن سؤال لجريدة «الشرق الأوسط» في استجواب مطول أجرته معه يقول السؤال: «هل صحيح أنكم كأقلية مسلمة تشكون من غبن واقع بحقكم في اليونان البلد الذي عرف عنه نضاله من أجل ضمان حقوقه واستقلاله ودعمه وتضامنه مع الشعوب التي تطالب بحقوقها التي أقرتها المواثيق الدولية؟
الجوا: «نحن كأفراد أقلية مسلمة لا نطالب بأكثر مما ضمنته لنا اتفاقية لوزان بين الدولتين الجارتين.

إن شكاوينا تتجه ضد الإداريين اليونانيين الذين يعملون على حرماننا من حقوق الإنسان الأساسية، ولا أعلم ما اذا كان ذلك الحرمان واقعا علينا بمعرفة الدول أو عدمها فاتفاقية لوزان نصت على ضمان حقوقنا الخاصة كأقلية».

وفي جوابه عن سؤال آخر يقول: «هل تعتبر أن الظلم الذي تدعي وقوعه عليكم ناتج عن ظلم وقع على الأقلية الأرثوذكسية اليونانية في تركيا والتي ضمنت اتفاقية لوزان حقوقها أيضا؟.

---

(1) جريدة الشرق الأوسط عدد: 3910 بتاريخ 1989/08/12.

- أنا بصفتي ممثلا لهذه الأقلية في البرلمان لا يعنيني أي تفسير بقدر ما تعنيني حقوق إخواني المسلمين الذين اختاروني طوع إرادتهم ممثلا لهم وحيدا في برلمان فيه 299 نائبا آخر يمثلون الأكثرية، فما مورس بحقنا لم يقف عند حد ردود الفعل بقدر ما كان مدروسا ومخططا له، وإلا فكيف نفسر سياسة التذويب ضد المسلمين الأتراك في المناطق الجبلية وسياسة التهجير في المدن والسهول؟! لقد عرضنا تظلماتنا مرارا وتكرارا على المراجع السياسية العليا في البلاد خلال عشرين عاما ولم نلق آذانا صاغية »[1].

والسؤال الذي نطرحه نحن اليوم لفضح هذا التعصب الأحادي الاتجاه نحو المسلمين هو ما اذا كانت اليونان (أو غيرها) تثبت أن أيا من رعاياها في مصر أو في أي بلد مسلم آخر يمارس عليهم تعصب مماثل لذلك الذي تثبته هذه الشهادات الحية الناطقة، هذا إن لم نجد العكس هو السائد ليس في الوقت الحاضر فحسب، بل حتى في عز الدولة وقوتها، كما تدل على ذلك هذه الشهادة المأخوذة من بحث بعنوان «الإيديولوجيا الإصلاحية الدينية في بلاد الشام» للدكتور أحمد خواجة: «... والترك الذين يقال عنهم برابرة بقي تحت ولاياتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس، وكانوا قادرين على حملهم على الجلاء فلم يفعلوا. أما ما منعهم من ذلك في رأي أرسلان فهو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين... ويرضى عن المعاهدة بالجزية، بينما عمد المسيحيون الى استئصال شأفة المسلمين من الأندلس وصقلية، وجنوب فرنسا، مع أنهم كانوا يحصون بالملايين، ولم يكتف الأوروبيون بالجلاء، بل عفوا عن كل أثر للإسلام في أوروبا »[2].

3- التعصب المسيحي ضد المسلمين في الاندلس:

وإثباتا لهذا التعصب (الأحادي الجانب) الذي مورس على المسلمين (من أبناء وطنهم في أوروبا) والذي لم يوجد له نظير في تاريخ التعصب

(1) جريدة الشرق الأوسط، العدد: 1989/08/12.

(2) من كتاب المعرفة والسلطة، معهد الانماء العربي، بيروت 1989، ص: 270.

فيما بعد، إلا ما جسد في مخيمات صبرا وشتيلا على أيدي المسيحيين سنة (1982). أو ما يجسد اليوم على أيدي اليهود ضد العرب في فلسطين والصرب (الارثوذوكس) والكروات (الكاثوليك) والهندوس، والتاميل ضد المسلمين في البوسنة وكرواتيا، وكوسوفو... وكشمير، والهند، وسريلانكا (كما سيرد تفصيله فيما بعد) والذي هو عبارة عن امتداد لمسلسل دير ياسين، وكفر قاسم سنة (1948) وسقوط غرناطة سنة (1492). إن ما وقع في الأندلس من تعصب في حق المسلمين لم يعرف له التاريخ مثيلا قبل ذلك على الإطلاق، وهو ما يتمثل في إرغام جزء من السكان لجزء آخر من أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد تعايشوا منذ الأزل في رقعة جغرافية واحدة، ولم يفرق بينهم سوى نوعية العقيدة الدينية، فكان نتيجة ظهور أنصار عقيدة على أنصار عقيدة أخرى أن أرغم المُنتصرون خصومهم على الارتداد عن عقيدتهم بحد السيف، ولم ينج من آثروا المحافظة على عقيدتهم إلا الفرار بجلدتهم من أرضهم، وهجرة الديار الى الأبد!

وعما سجله التاريخ لما وقع من جراء هذا التحويل الشنيع لشعب بأكمله عن عقيدته، سواء بالإبادة الجسدية أو بفرض الارتداد قسرا على المستضعفين... نورد هذه الشهادة لأحد الباحثين العرب حيث يقول: «إن جميع من تبقى من المسلمين تحت ذمة الإسبان بأرض الأندلس قد ارتد عن دينه كرها ودخل في دين المسيح هناك» [1]. والدليل على أنه لم يبق مسلم واحد يجاهر بدينه في الأندلس بعد سقوط دولتها المسلمة، فهي فتوى الونشريسي (من أعلام الجزائر) بأن أرض الأندلس قد أصبحت (دار حرب) وكُفْر في عصره، لكون المسلمين هناك أصبحوا يمنعون من تأدية شعائرهم الدينية، مثلما كان عليه الأمر مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في أوائل الإسلام... [2] ومن المعروف أنه في عصر الونشريسي بدأ الإسبان المسيحيون في تنصير المسلمين، وتعذيب وتقتيل

---

(1) د. محمد بن عبد الكريم، حكم الهجرة من خلال ثلاثة رسائل جزائرية: الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع 1981، ص:8.

(2) .نفس المرجع ، ص:9.

كل من بقي منهم على دينه... كما بين ذلك باحث آخر متخصص في هذا الموضوع هو الأستاذ (محمد عبده حتاملة)، حيث يقول: «فالموريسكيون هم المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة، وقد سلطت عليهم شتى أنواع القهر والتنكيل من أجل ترك الإسلام والدخول في النصرانية، فقد لاحقتهم محاكم التفتيش وكثيرا ما كانت تزج بهم في السجون لتستعمل معهم أساليب التعذيب التي لا يحتملها إنسان... ولم يبق في عام 1609 من يعلن إسلامه في إسبانيا، فقد شوهدت في بداية القرن 19 في غرناطة امرأة تحمل إبريقا تتوضأ فألقي عليها القبض وبتعذيبها اكتشفت خلية مسلمة تتكون من 20 شخصا تقريبا فأحرقت في باب الرملة» [1]. ومن المعروف عن المسلمين في هذا البلد أنهم، ومن جراء هذا التعصب (الفريد) الممارس ضدهم (من أبناء وطنهم) أنهم تشتتوا في كافة أرجاء المعمورة، هروبا بعقيدتهم، فذهبت مجموعة منهم إلى البلاد العربية في المغرب العربي، ووصلت إلى سوريا وفلسطين وتركيا، وذهبت مجموعة أخرى بأسماء إسبانية (وبالديانة المسيحية التي أجبرت على اعتناقها...) إلى العالم الجديد في أمريكا اللاتينية ليمارسوا شعائرهم الدينية (الإسلامية) هناك، لكن السلطة السياسية في هذه الأقطار قبضت على من تمكنت منهم وبعثت بهم من جديد إلى إسبانيا ليلاقوا التعذيب حتى الموت، على أن حجم هذه المجموعة جعل محاكم التفتيش الإسبانية تتحول هي نفسها إليهم، إلى أمريكا اللاتينية، فنزلوا إلى الجنوب، أما الموريسكيون (أي المسلمون) الذين عاشوا في أمريكا الوسطى فقد صعدوا إلى الشمال.

وإذا كان هذا مصير المسلمين الإسبان الذين هاجروا بدينهم الى ما وراء البحار... فكيف سيكون شأن من بقوا في أرضهم بالأندلس؟.

فوصفا لمواصلة فصول هذه المأساة التعصبية يقول أحد الباحثين في دراسة حول الموضوع: «قد فرضت عليهم السلطة الإسبانية المسيحية تغيير

(1) من محاضرة له في المؤتمر الثالث للدراسات (الموريسكية الأندلسية) الذي انعقد في مدينة الحمامات بتونس ما بين 10 ـ 15 مارس 1987.

أسمائهم الإسلامية إلى أسماء مسيحية إسبانية وفرضت عليهم أن يتركوا دينهم الإسلامي ليتنصروا وحرمت عليهم التحدث بالعربية أو استعمال كتبها، بل أن كتبهم قد أحرقت ومساجدهم حولت الى كنائس ومتاحف وغيرها، وفنونهم طمست في مختلف المجالات، والتجأوا الى التقية في الدين، لأن المواجهة الجدلية لم تكن ممكنة على الإطلاق، لكون محاكم التفتيش ظلت ترفض رفضا قاطعا أي حوار معهم مهما كان نوعه» [1].

وفي ذلك يقول الباحث الإسباني (أنطونيو دمينقير هورتز):

«... لقد كانت تلك القرارات تهدف الى إزالة خصائص الموريسكيين وسماتهم كلها... فقد حرّم استخدام اللغة العربية مكتوبة أو شفاهية، وكذلك الملابس والتعاويذ أو أي رمز له صلة بالدين الإسلامي مثل الختان أو الطريقة الشرعية لذبح الحيوانات... (إلى أن يقول): ان المنتصرين النصارى الذين اهتموا في البداية بالطقوس الدينية فقط اكتشفوا أهمية المظاهر الثقافية الأخرى فحددوا المكائد لها من أجل استئصالها بالكامل...»[2] وهكذا فلم تترك تلك الوثيقة أي مظهر من مظاهر الثقافة الإسلامية إلا وغيرته مثل اللغة والثياب والحمّام والشعائر الدينية، وأمر الأساقفة محاكم التفتيش بمراقبة المسلمين في الأعياد والمناسبات الدينية ليلاحظوا تغير سلوكهم، وقد كتبوا وثيقة تخص الأطفال جاء فيها: «نرجو من صاحب الجلالة أن يأمر بإرسال أبناء أمراء المريسكيين الى قشتالة القديمة، وعلى حساب أولياء أمورهم، كي يربى هؤلاء عن العادات والتعاليم النصرانية فينسوا عاداتهم ودينهم القديم» [3].

---

(1) عن دراسة منشورة في مجلة (العالم) الصادرة بلندن عدد: 666 بتاريخ 18 أبريل سنة 1987.

(2) تاريخ مسلمي الأندلس (الموريسكيون حياة ومأساة أقلية) ترجمة عبد العال صالح طه، دار الاشراق 1988 ص:26

(3) نفس المرجع، ص: 39.

ويقول الأب (فارجاس) عام (1578): «أنكم لا ترغبون أن تزيلوا من قلوبكم القاسية تلك النحلة الملعونة والجهنمية، نحلة محمد. هل تعلمون أنه ولد اليوم الأمير الذي سيخرجكم من إسبانيا»[1].

ومن الوسائل التي فكر فيها رجال الكنيسة لاستئصال المسلمين من الأندلس هو اقتراح (1581) الذي يقضي بإرسال الشباب الذين هم بين الثامنة عشر والأربعين للعمل بالسفن ، وأن يحرموا من التغذية الجيدة وبهذا لا يهددون الدولة، وبذلك ينتهي أمرهم بالانقراض. ويقول حرفيا: «إن قدرة الذين هم فوق الأربعين على التناسل قليلة، وبهذا يمكن في وقت قصير طرد هذا الجنس الملعون من أعداء صاحب الجلالة»[2].

وفي نفس النهج وضع الكاردينال (طوريخوص) خطة باختطاف الأطفال الذين هم دون السادسة ثم يُرعون ويربون باعتبارهم نصارى حقيقيين، وأن يحرم الزواج بين الموريسكيين حتى ينتهي أمرهم في وقت قصير، وفي ذلك يقول حرفيا: «إنه ابتداء من اليوم ينبغي أن يأمر الملك بمنع زواج أي موريسكي مع موريسكية أو إذا رغب أحد في الزواج ينبغي أن يكون مع نصارى قدامى، وهذا ما يجعل رجالهم ونساءهم يبقون بلا زواج وبذلك يتناقص هذا الجنس وينقرض، والذين يتزوجون بنصارى قدماء سيكونون قلة... وعندما يتزوج موريسكي مع نصرانية فانه سيتركها تربي أبناءها على النصرانية خوفا منها، ونفس الشيء يحدث عند زواج مريسكية بالنصراني، وفي حالة عدم زواجهم ينقصون وينقرضون...»[3].

وعن تمسك المسلمين بشعائرهم رغم كل ذلك القهر يقول المؤلف: «إن المسلمين كانوا يحافظون على تأدية شعائرهم كلما كان ذلك ممكنا... وقد ظلت الصلاة تؤدى الى وقت متأخر من وجودهم باسبانيا حيث يمكن أداؤها

---

(1) نفس المرجع، ص: 81.

(2) نفس المرجع، ص: 88.

(3) نفس المرجع، ص: 89.

سرا بدون أن يراهم النصارى، وكذلك فقد كانت كتب الصلاة يتداولونها بطريقة سرية »[1] .

ومن الطرق التي استعملتها السلطة للتنصير الإجباري هي: اهتمامها بالأطفال، وفي هذا جاء على لسان ملك بلنسياسنة 1525 ما نصه: «في حالة إصرار الموريسكيين على تمسكهم بدينهم وقرارهم الخروج من بلدنا يجب عليهم أن يتركوا أبناءهم ليصبحوا نصارى، وهكذا نؤثر في الأبناء كما نؤثر في الآباء »[2].

ومن الأساليب المتبعة لاستئصال مظاهر الإسلام في حياة الأندلسيين قبل ترحيلهم جسديا هو منع الرجال من الذهاب الى الحمّامات وكذلك تدمير الكتب التي كانت بحوزة المسلمين، وفي ذلك ورد الأمر التالي: «يجب إحضار الكتب الموجودة في حوزة المسلمين دون السماح بإبقاء أي شيء من اليوم، ويجب حرق هذه الكتب كلها »[3] ويعترف المؤلف الإسباني مع ذلك بقوله: «لقد كانت مقاومة المسلمين حية دائما في هذه النقطة واكتشفت كتب عربية عديدة كانت مخفية في ذلك القرن، ففي فبراير سنة 1570 مثلا في حي (البايازين) وجد بعض الجنود في ثقب جدار أكثر من ستين نسخة من القرآن والكتب الدينية التي توضح حكمة محمد والصلوات. وكانت جيدة التجليد مكتوبة بخطوط ذهبية »[4].

ثم يضيف الباحث قوله: «ومن الإجراءات الممارسة ضد المسلمين منعهم من ذبح أضحياتهم وإجبارهم على استدعاء قصاب نصراني ليقوم بهذه العملية، كما حرّموا على المسلم أن يكون صاحب حمّام!! كما كانت تمنع استخدام الأسماء الإسلامية مما حتم على المسلمين أن يستخدموا اسمين لأطفالهم، أحدهما إسلامي ويكون سريا والآخر نصراني ويكون علنيا، وفي أرشيف غرناطة يلاحظ ذلك بشكل واضح حيث ابتداء من

(1) نفس المرجع، ص: 115.

(2) نفس المرجع، ص: 120.

(3) نفس المرجع، ص: 125.

(4) نفس المرجع، نفس الصفحة.

سنة 1510 كان يستعمل الشكل التالي: «أنا - اسم ولقب نصراني - كنت أدعى سابقا - اسم ولقب إسلامي... ثم بعد ذلك استعمل الاسم النصراني فقط» [1].

وعن ممارسات محاكم التفتيش الشهيرة التي أقيمت خصيصا لاستئصال الإسلام من أرض الأندلس يقول المؤلف: «.. لقد كان الموريسكيون في نظر القضاء تابعين للإسلام ولهذا فان أقل جريمة كانت توجه اليهم هي الهرطقة ويحكم عليهم بمقتضاها بالجلد بالسياط أو لبس ثياب مخزية، بالإضافة الى مصادرة الأموال، ولقد كانت معاملة المحاكمين بقسوة وصرامة شديدة خاصة إذا كان المتهمون زعماء دينيين للمسلمين، ومن بين هؤلاء يمكن أن نذكر الموريسكي الذي أحرق في سرقوسطة سنة 1546 ويدعى (خوان آلاكص) وكان فقيها لبلدة موتريل، وكذلك (ماريا) التي أحرقت سنة 1576 لثبوت التهمة عليها بأنها مسلمة، وكذلك (بياغريث أي باوية) التي نفذت فيها المحكمة حكم الإعدام في تونيك في عام 1596 لنفس السبب، أما في غرناطة فقد حكم بالإعدام حرقا أيضا على 14 مورسيكيا وفي مارسيا أيضا أعدم مورسكي لنفس التهمة...» [2].

ويضيف الكاتب في مكان آخر قوله: «وعندما رأوا (أي النصارى) أنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم ردا حقيقيا الى النصرانية، قال البعض: يجب قتلهم أجمعين، وقال آخرون يجب تعقيمهم... بحرق جزء من جسدهم بحيث يمكن عن طريقه منع نسلهم، وبذلك ينقرضون...» [3].

وعن الفشل في استئصال عقيدة التوحيد من قلوب المسلمين ومن حياتهم وتفضيلهم الهجرة بدينهم على بقائهم كفارا... ينقل المؤلف على

---

(1) نفس المرجع، ص: 127.

(2) نفس المرجع، ص: 131.

(3) نفس المرجع، ص: 164.

لسان أحد الكتاب ويدعى (برادول) قوله: «إن إسبانيا طردت الموريسكيين قبل كل شيء لأنهم ظلوا غير قابلين للاندماج، وليس بسبب العداوة لسلالة، بل لعداوتها لحضارة ودين، وانفجار هذه العداوة بصورة الطرد، والدليل على ذلك أن الموريسكي بعد قرن واثنين وثلاثة كان سيظل المسلم المعروف بثيابه ودينه ولغتة ومسكنه وحمّامه» [1].

ويضيف الولف قوله: «وقد كانوا في إسبانيا على علم بهذا، ولهذا كان لابد لهذا الموضوع من معالجة لاستئصال تلك البؤرة الغريبة التي لا تتلاءم مع التراث الإسباني، وقد اختيرت الأساليب الأكثر حسما، وهي اقتلاع تلك الشجرة من التراب الذي لم تتلاءم معه... ولذلك ففي عام 1599 نصح الجهاز العالي بالحكم على الموريسكيين الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و60 عاما بالعمل في السفن ومصادرة أموالهم، والرجال فوق 60 والنساء يرسلون الى شمال إفريقيا والأطفال يسلمون إلى الأديرة لتنشئتهم على العقيدة الكاثوليكية» [2].

وعن تطبيق قرار الطرد يقول المؤلف: «أعلن قرار الطرد في 22 سبتمبر 1609 وقد أعلنه الوالي (المارتيز دي كاراسينا) وهو يعطي مهلة ثلاثة أيام ينبغي أن يتوجه خلالها الموريسكيون الى النقاط التي ستحدد لهم ويحملون معهم ما يستطيعون من أموالهم. أما الأموال غير المنقولة فيجب أن تبقى سليمة، وأن الذي يخفي أو يحطم تلك الأموال سيحكم عليه بالإعدام... وهدّد النصارى بإنزال عقوبة ست سنوات في تجديف السفن على من يشتري منهم على الموريسكيين، واستثنى من الطرد أولئك الذين يعيشون منذ زمن طويل بين النصارى وتناولوا القربان في الكنائس بشهادة من القسيس، أما الموضوع الصعب فهو المتعلق بالأطفال، وقد استمات رجال الكنيسة في إبقاء الأطفال الذين هم أقل من 4 سنوات. أما الذين هم أقل من 6 سنوات ومن أب نصراني وأم موريسكية فيبقون

---

(1) نفس المرجع، ص: 202.

(2) نفس المرجع، ص: 205.

وتبقى معهم أمهم، ولكن إذا كان الأب موريسكيا والأم نصرانية فإن الأب يطرد ويبقى الصغار ممن هم أقل من ستة أعوام مع أمهم!! » [1].

ويصف شاعر إسباني هذه المأساة الإنسانية أثناء الطرد بقوله:

«فرقة من المسلمين والمسلمات	تسير وهي تسمع من ناحية شتائم
الرجال يحملون الثروات والأموال	النساء يحملن الأدوات والملابس
العجائز يمشين بحزن ويبكين	يحملن الأواني والقناديل
عجوز يأخذ طفلا بيده	وطفل آخر على صدر أمه
غلام ثالث قوي مثل الطروادين	لا يتأخر في حمل أبيه»[2]

وعن بعض المسلمين الذين فروا الى الجبال بأهلهم تجنبا للطرد يصف المؤلف المجازر التي ارتكبت في حقهم بقوله: « ... والتحقوا بالجبال القريبة من (كاجوسا) بعد أن جمعوا كمية كبيرة من مواد التموين لكنهم لم يفكروا في امكانية الحاجة الى الماء لمجموعة تزيد عن 20 ألف شخص، ونزلت بعض فرق الجيش من ميناء دينيا، ويساعدهم الميلشيات وعدد كبير من العامة طمعا في الغنائم، وبعد أن تمت محاصرتهم لعدة أيام هجموا عليهم وجرت بعض الأحداث التي تقشعر لها الأبدان... ولم يكن هناك توقف للعمليات وهرب الذين بقوا على قيد الحياة » [3] وينقل المؤلف على لسان كاتبين إسبانيين آخرين هما: (فونسكا وإسكولانا) قولهما في وصف تلك المجازر الفظيعة: «في مرتفعات بوب كان يوجد عدد كبير من القتلى، أما الآخرون فقد وصلوا الى حالة كبيرة من التعاسة، وكان الآباء يتركون أولادهم لمن يعرفونهم من النصارى بسبب الجوع، بل وصل الأمر أنهم كانوا يبيعونهم مقابل قطعة من الخبز أو قفة من التين، وكانوا يمشون في الطريق الى الرحيل وقد سادهم الضعف، وقد أخذ منهم أبناؤهم ونساؤهم وحتى الثياب التي كانوا يحملونها نزعوها عنهم لدرجة أن

---

(1) نفس المرجع، ص: 224.

(2) نفس المرجع، ص: 227.

(3) نفس المرجع، ص: 230.

أحدهم يصل الى السفينة نصف عار أو عار تماما »[1]، وتوج ذلك كله بالبيان الذي أعلنه (الماركيز دي كراسينا) في مايو 1611 وذلك للقضاء على بقايا الجماعات المتخلفة منهم وهذا نصه: «نفرض لكل الأشخاص الذين يخرجون في مطاردة أولئك المسلمين 60 ريالا مقابل كل شخص يحضرونه حيا وثلاثين ريالا في حالة إحضار رأسه فقط، وإذا كان الأشخاص الذين يحضرونهم يرغبون في استخدامهم عبيدا لهم فنحن على استعداد لإعطائهم إياهم... »[2].

وبالنسبة للأطفال فقد كان البطريرك يريد إبقاء الذين تقل أعمارهم عن 12 سنة، لكن مجلس الدولة كان متشددا في تلك النقطة، فأصدر قرارا بطرد كل من يزيد سنّه عن خمسة أو ستة أعوام وهو العمر الذي يمكنهم من الاحتفاظ ببعض الذكريات عن التربية المحمدية.

ويضيف المؤلف أنه عندما انتشر الطاعون سنة 1600 أصاب الكثير من المسلمين فاستغل القساوسة هذا الظرف لمحاولة تنصيرهم فعرضوا عليهم أن يضعوهم في أماكن صحية جيدة فاجابهم المسلمون: «أيها الأب لتبقوا أنتم في ديركم نحن لا نرغب في أن تدخلونا الدير لتقتلونا وعظا! يكفينا ما نحن فيه من غمّ، نحن لا نحتاج لقساوسة ولا لمصحة ولا لعلاج »[3].

ويتحدث المؤلف عن وصف آخر لعملية الطرد فيقول: «ترك لنا (أزناركاردونا) لوحة واقعية لخروجهم فقال: خرجوا كمشهد كنيسي غير منظم واختلط المشاة مع الراكبين وسادهم الألم وامتلأت عيونهم بالدموع وأحدث خروجهم ضجيجا كبيرا وهم يحملون نساءهم وأبناءهم ومرضاهم وعجائزهم وقد غطاهم التراب والعرق، بعضهم معه عربات تزاحم هو وأهله عليها... وآخرون وهم الأغلبية يمشون على أقدامهم متعبين...

---

(1) نفس المرجع، ص: 230.

(2) نفس الصفحة.

(3) نفس المرجع، ص: 239.

خائفين ويعانون من المرارة والتعاسة ويبحثون عن الظل والماء لأن الوقت كان صيفا »[1].

ويضيف المؤلف قوله:« وكلّف (الكوند دي بلازار) بتنفيذ الطرد الشامل في عام 1618م حيث ألغيت كل القرارات السابقة الخاصة باعفاء بعض الأشخاص من الطرد وقام جيش من كل إسبانيا للبحث عن بقايا تلك السلالة التي حكم عليها بالفناء »[2].

وهنا نلاحظ أن الدين إذا كان راسخا في شعب يخلق ثقافة متميزة في أنماطها، ومن جراء تمسك الناس بها يخيل الى الأجنبي عنهم أنه من سلالة أو عرق مغايرا! في حين أن كل المسلمين في هذا البلد هم في الحقيقة إسبان أسلموا وصح إسلامهم، مثل أي شعب مسلم في شمال إفريقيا أو في البوسنة اليوم، وهو ما تكرر بالضبط مع هذا الشعب الأخير (كما سنبين في حينه).

وبما أن الكفر ملة واحدة فإن لعنة الطرد ظلت تتابع المسلمين الأندلسيين من بلدهم الأصلي الى بلدان الصليب الأخرى التي نفدوا اليها بجلدهم، ولم ينج منهم سوى من التحقوا بالبلاد الإسلامية في المغرب العربي أو تركيا... وعن هذا التعصب الصليبي الشامل حتى ضد المسلمين الذين تظاهروا بالنصرانية يقول أنطونيو دمنقير: «ذهب الى روما عدد لا بأس به من الموريسكيين وأكدوا أنهم نصارى وطلبوا وساطة البابا أمام الملك من أجل أن يعودوا الى إسبانيا، ولكن البابا عندما علم أن امرأة موريسكية رفضت النطق بالشهادة النصرانية عند موتها أمر بطردهم جميعا »[3].

ويضيف أيضا قوله: «وكذلك لم تنفع رجاءات المتوسلين المصحوبة بأدلة على صحة نصرانيتهم في البقاء، بل أطلق سراح حتى مسجوني محاكم التفتيش ليرحلوا بدون إبطاء... لقد كانت هناك رغبة في أن لا

(1) نفس المرجع، ص: 243.
(2) نفس المرجع، ص: 245.
(3) نفس المرجع، ص: 275.

يبقى من تلك السلالة أحد في إسبانيا، سواء كان جيدا أم سيئا حتى الموريسكيين المتزوجين بنصرانيات الذين طردوا الى إيطاليا وأرسلوا طلبا من روما بواسطة السفير هناك يلتمسون التصريح لهم بالعودة فكانت الإجابة هي الإقرار بالنفي» [1].

والجدير بالذكر بعد عرض هذه الحقائق (الناطقة) كلها أن الممارسات المتعصبة ضد المسلمين ما تزال قائمة الى الآن بأشكال ربما أقل حدة عما كانت عليه من قبل، بحكم المناخ الديمقراطي الذي أصبحت تعيشه إسبانيا بعد دكتاتورية فرانكو (...). إلا أن بعض قوانين التعصب الديني في هذا البلد ما تزال سارية المفعول ضد الإسلام والمسلمين، ومن ذلك مثلا أن أي طفل مسلم يولد في إسبانيا يحظر على أبويه أن يطلقا عليه اسما إسلاميا معروفا (كمحمد، أو عمر، أو علي، وما الى ذلك)، الى جانب فرض اسم ثان ذي طابع إسباني مسيحي على الطفل المولود، ومن ذلك نذكر حادثة وقعت (خلال سنة 1989) تتمثل في ازدياد صبي لأحد الرعايا الجزائريين يقيم في إسبانيا بكيفية قانونية منذ سنوات، ومتزوج باسبانية (مسيحية) وعندما ذهب لتسجيل الطفل في الحالة المدنية اختار له اسم (طارق) ورفض الاسم، فاختار البديل (عمر) فرفض، وفي النهاية لجأ الى اختيار اسم عربي محايد هو (منير) فقبل، وفرض عليه اسم آخر (في الحالة المدنية) إلى جانب الاسم الأول، وهو (البيرتو) على اعتبار أن أم الوليد إسبانية!!.

والخلاصة التي نخرج بها من هذه الوقائع الحية للتعصب الديني ضد الإسلام أننا نطرح السؤال الاستفساري التالي: لو طبق المسلمون الفاتحون منذ القرن السابع الميلادي هذه الطرق التي طبقها المتعصبون ضدهم بعد ثمانية قرون... فهل كان سيبقى مسيحي (أو يهودي) واحد في الأندلس!؟.

فهل جزاء التسامح الإسلامي هو التعصب المسيحي واليهودي!؟

هذا هو الواقع لمن يريد أن يعتبر للتاريخ (!؟).

---

(1) نفس المرجع، ص: 300.

4ـ التعصب المسيحي ضد الإسلام والمسلمين في فرنسا:

إن الباحث عن الأدلة الملموسة لإبراز التعصب المسيحي (الفرنسي) ضد الإسلام والمسلمين لا يجد أية مشقة أو صعوبة لإثبات ذلك، سواء من التصريحات الرسمية أو من الصحافة اليومية (المعبرة عن الرأي العام المسيحي) في هذا البلد، ويمكن أن نذكر في هذا الصدد حادثتين تعصبيتين، كان لهما ظهور بارز في فرنسا خلال (سنة 1989).

الحالة الأولى: تتمثل في حادثة رفض المدرسة (الرسمية) الفرنسية لارتداء الحجاب (الشرعي) الإسلامي لفتاتين مسلمتين بدعوى (اللائكية) في الوقت الذي تتغاضى فيه هذه المدرسة ذاتها عن الآلاف من الفتيات والفتيان الذين يحملون صلبانا بشتى الأشكال والألوان بكيفية بارزة في أعنقاهم وأعناقهن... فهل اللائكية (الفرنسية) تنطبق على الدين الإسلامي فقط دون سائر الأديان الأخرى الموجودة والمعترف بها في فرنسا، بما فيها الديانة اليهودية التي يسمح لمعتنقيها من الصهاينة المتعصبين بارتداء (القلنسوة) في كل مكان حلّوا به دون رفض يذكر!!

الحالة الثانية: وتتمثل في إقامة الدنيا دون إقعادها بالمظاهرات والتهديدات والاحتجاجات الشديدة اللهجة من هيئات حزبية ورسمية وشعبية... ضد رئيس بلدية ليون، بسبب منحه رخصة للسكان المسلمين (ومن بينهم الكثير ممن يحملون الجنسية الفرنسية ذاتها) لبناء مسجد لهم في المدينة (وبأموالهم الخاصة)، وقد جاء حول هذا الموضوع في تحقيق لجريدة الشرق الأوسط [1] ما نصه: «تحتدم منذ أسبوع معركة سياسية حامية في مدينة ليون الفرنسية بسبب رخصة لبناء جامع في المدينة يتسع لألفين وثلاثمائة مسلم وتنقسم المدينة الى ثلاثة فرقاء: فريق يؤيد بناء المسجد، وفريق آخر يشترط لبناء المسجد أن يكون ذا حجم صغير (ودون مئذنة أو طابع معماري إسلامي مميز)، وقسم ثالث يرفض بناء المسجد

---

(1) العدد: 3946 بتاريخ 1989/09/07.

على الإطلاق، وهو فريق (الجبهة الوطنية) وهي حزب عنصري يرأسه ضابط سابق في الجيش الفرنسي إبان احتلال الجزائر يدعى (جأن ماري لوبان)... ويضيف التقرير الصحفي في سرده للأحداث قائلا: «... وتأتي مظاهرات ليون ضد بناء الجامع بعد عدة أسابيع من حادثة أخرى مشابهة وقعت في مدينة (افري) الصناعية على بعد 40 كيلومتر من جنوب باريس، حيث أنهت الجالية الإسلامية هناك بناء جامع يتسع لحوالي ألفي شخص، لكن سرعان ما قررت البلدية وقف البناء» [1].

وقد نشرت جريدة (لوموند) في تلك الأثناء أيضا تصريحا ضد المسلمين الفرنسيين لمسؤول حزب الجبهة الوطنية (المذكور آنفا) جاء فيه على الخصوص: «أنه سيأتي يوم ـ وهو قريب ـ يتعين فيه على المسلمين أن يختاروا أحد الاثنين: إما الجنسية الفرنسية أو الاسلام، وأضاف قائلا: أنه اذا اختار هؤلاء الإسلام فعليهم أن يعودوا إلى الجزائر ! » [2].

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح على الذين ما انفكوا يتهمون المسلمين بعدم التسامح، ويتهمون البلاد التي شوهدت فيها صحوة إسلامية جادة في السنوات الأخيرة... بأنها متعصبة وظلامية، ومعادية للتقدم والديمقراطية هو: هل حصل أن امتنع شعب مسلم في أي بلد إسلامي عن بناء كنيسة (بأموال المسيحيين من أبناء الوطن) لإقامة الشعائر الدينية؟ وماذا يتصور المرء من ثورة وهجوم صليبي (إعلامي وغيره...) على هذا البلد لو حدث ذلك بالفعل؟!.

5ـ التعصب المسيحي ضد الإسلام والمسلمين في انجلترا:

ولاشك أن ظاهرة التعصب التي يعاني منها المسلمون في فرنسا ليست حالة خاصة بهم وحدهم في أوروبا، بل يشاركهم فيها إخوانهم في

---

(1) نفس المرجع السابق.

(2) جريدة لوموند ليوم 03/09/1989. واللافت للإنتباه لدى هذا الفرنسي المتصلب أنه يعتبر كل مسلمي العالم جزائريين !! وهو ما يدل على مدى الأثر الذي تركه جهاد الشعب الجزائري المسلم في نفوس الصلبيين القداما والجدد !

العقيدة في كل مكان، مع اختلاف نسبي في درجة الحدة التي يظهر بها هذا التعصب، والشكل الذي يأخذه بحسب القوانين (والتقاليد) الديمقراطية السائدة في هذا البلد أو ذاك، ومن ذلك أن التعصب المسيحي ضد الإسلام في بريطانيا له وجود ضارب في الأعماق، ولكنه أقل سفورا من ذلك الموجود في فرنسا أو إسبانيا مثلا، وكنموذج على ذلك نذكر هذه المقتطفات من تحقيق صحفي مطول أجرته جريدة المسلمون [1] تحت عنوان «في بريطانيا الإسلام تهمة» جاء فيه على الخصوص « في مدينة (برمنجهام) يوجد حي يسمى (سبارك بروك) في هذا الحي توجد مدرسة انجليزية حكومية تدعى (جولدن هيللوك)، ولما كانت (برمنجهام) من أكبر المدن البريطانية وأكثرها ازدحاما بالمسلمين، كان من الطبيعي أن تضم تلك المدرسة بين جنباتها عددا من الطالبات المسلمات، من بين هؤلاء الطالبات فتاتان مسلمتان حريصتان على أداء الصلوات في أوقاتها، لذلك قامتا بافتراش فناء المدرسة، عندما أدركتهما الصلاة، وفي ركن هادىء من الفناء وقفتا تؤديان الفريضة، لكن ناظرة المدرسة (مسز ماري ستيوارت) ما إن سمعت بما تفعله الطالبتان حتى استشاطت غضبا، وخرجت مسرعة الى الفناء تعنفهما وتطلب منهما أن يكفا عن أداء مثل هذه الأفعال المثيرة للتساؤلات، وعندما حاولت الطالبتان شرح ضرورة وأهمية تأدية الصلاة حسب ما تلقتا من تعليم على يد الأسرة، أخبرتهما الناظرة على أنها لن تتقبل مثل هذه الأفعال وخاصة أن الإسلام دين مضلل!».

ويضيف التقرير في مكان آخر تحت عنوان فرعي (التطرف والتعصب) ما نصه: «هذه الروح الصلدة التي تدفع الطفل المسلم للاستمرار والبقاء بين جنبات المجتمع البريطاني ومغرياته، ربما كان سببا وراء الكثير من المضايقات التي يلقاها التلاميذ المسلمون الذي ينحدرون من أصول باكستانية فقيرة على الأخص، فكثيرا ما تستخدم كلمة (باركي) ـ وهي اختصار لباكستاني ـ كسبة للتلميذ الذي يكون ذنبه كله

---

(1) العدد: 216 ليوم 1989/03/30.

أنه ينحدر من لون غير أبيض، وفي شهر يوليو من العام الماضي فزع المسؤولون عن التعليم في بريطانيا بحادث مريع في مدينة (مانشستر) التي توجد بها أيضا جالية إسلامية كبيرة. فقد طعن تلميذ انجليزي يدعى (دارين كولبرن) وعمره 14 سنة تلميذا باكستانيا يدعى أحمد إقبال ـ عمره 13 عاما ـ واستخدم التلميذ القاتل سكينة حادة في طعن القتيل، والسبب أن أحمد تدخل لحماية جماعة من رفاقه من سباب (دارين) ومجموعة أخرى من زملائه الذين تجمعوا حول عدد من التلاميذ الأسيويين وأخذوا يشاكسونهم ويشاجرونهم» [1].

وقبل أن نترك هذا البلد (البارد الأعصاب) العريق في تقاليده الصليبية «الهادئة» نذكر بأن التهليل المنقطع النظير الذي أظهرته بريطانيا الرسمية والشعبية بكتاب (الآيات الشيطانية) للمرتد البريطاني «سلمان رشدي) والتعاطف مع صاحب الكتاب، ثم الترويج للكتاب... لم يكن ليدل على غير هذا التعصب الدفين (الهادىء والقاتل)، ولتوضيح الصورة التي تجعل من التعصب الانجليزي حكرا على الإسلام، وبشكل ملفت للنظر نطرح السؤال التالي: ماذا كانت بريطانيا الرسمية والشعبية ستفعل لو أن المؤلف (اللاديني) سلمان رشدي، كتب نفس الكتاب للتعريض بسيدنا موسى أو عيسى عليهما السلام!؟

فهل سيحصل الإجماع للدفاع عنه وعن كتابه باسم الديمقراطية وحرية التعبير، وحقوق الإنسان (غير المسلم)!؟

6ـ التعصب المسيحي ضد الإسلام والمسلمين في ألمانيا:

يمكن القول أنه وإن تعددت أشكال التعصب ودرجاته في أوروبا فالهدف واحد وهو الاسلام وما يمثله من قيم، وهذه القاعدة (التعصبية العنصرية) لا تستثني منها ألمانيا (قلب أوروبا المسيحية) بطبيعة الحال، وأم التعصب العنصري في أوروبا بدون منازع الى سنوات قريبة خلت،

---

(1) نفس المرجع السابق ذكره.

ولإعطاء صورة (رمزية) عما يدور في هذا البلد من تعصب ضد الإسلام نورد هذه المقتطفات من هذا التقرير الإخباري المنشور بعنوان: «جدال حول بناء المآذن في ألمانيا الغربية». جاء فيه على الخصوص: «يدور جدال حاد في العديد من مدن ألمانيا الغربية حول بناء مساجد بها مآذن وقد اشتد الانفعال بين السكان والطائفة الإسلامية في (فانديرول) و(بوفرتزهايم) و(تزابرغا) و(غوغنينغن) وتراوح بين التهديدات التي وجهت الى مهندسين في (بوفرتزهايم) وجمع التواقيع ضد مشروع بناء مسجد كبير في بلد المسيحيين والغرب المسيحي...

وهناك في ألمانيا الغربية حيث يبلغ عدد الجالية الإسلامية 1.7 مليون نسمة أغلبهم أتراك وحوالي ألف مكان للصلاة من بينها 300 مسجد عشرة منها بمآذن.

ومعظم أماكن الصلاة في ألمانيا الغربية عبارة عن شقق ومنازل لا يميزها شيء عن المنازل المجاورة في الظاهر...

وفي فاندبول (شمال غرب البلاد) التي يبلغ عدد سكانها 26 ألف نسمة هناك 250 تركيا صاروا لا يريدون الاستمرار في الصلاة في الأماكن القديمة التي كانوا يستخدمونها كمسجد منذ 1981...

وقد اشتروا مخزنا قديما يبلغ 250 ألف مارك ألماني وتقدموا بطلب للسماح لهم بتحويل المبنى الى مسجد يضيفون اليه مئذنة ارتفاعها 26 مترا...

وعندما عرف المشروع وجهت عريضة، ليس ضد بناء المسجد وانما ضد المئذنة، لأن عددا كبيرا من الناس لا يتحملون فكرة مؤذن سيدعو السكان للصلاة خمس مرات يوميا عبر مبكر الصوت...

وعلى الرغم من الحل الذي اقترحه مهندسو العمارة بخفض ارتفاع المئذنة من 26 الى 24 مترا والتأكيد بأنه ليس هناك مكبر للصوت ودعوة للصلاة قرر المجلس البلدي عدم تحويل المنزل الى مسجد واقترح تحويله الى مركز ثقافي إسلامي...

وفي بروزهايم (جنوب البلاد) سمح للمسلمين ببناء مسجد بقبة ومئذنة يبلغ ارتفاعها 25 مترا على الرغم من معارضة السكان الذين

جمعوا تواقيع في (فورتنبورغ والألزاس)، وقد بدأ بناء هذا المسجد الذي تبلغ تكلفته ثلاثة ملايين مارك وتمويله من الطائفة الإسلامية...

وفي (زبرغا وغوغنينغن) لقي مشروع بناء مكان للصلاة المعارضة نفسها، فبعد أن أبعدت الجمعية الثقافية التركية الإسلامية بناء على طلب الجيران الألمان من شقة كانت تستخدمه مكانا للصلاة رفض أي اقتراح بديل تقدمت به...

وفي(بود فيغسبورغ) و(مونهاكر) و(غموند) ـ جنوب غرب ألمانيا ـ اصطدمت مشاريع بناء المساجد وأماكن الصلاة بالاحتجاج ذاته...» [1].

ونعتقد أن هذا الوصف الدقيق والموضوعي لموقف المسيحيين الألمان من الإسلام لا يجعلهم يختلفون عن إخوانهم في الملة من الفرنسيين والأنجليز إلا في الشكل والمظهر. أما الجوهر فواحد فيما نعتقد، وهذا يؤكده تقرير آخر عن مؤتمر إسلامي عقد في مدينة (شتوتجارد) بألمانيا الغربية في (1990) جاء في التقرير الذي غطى أشغال هذا المؤتمر من نصه: «... كما ناقش المؤتمر المشاكل التي تعترض الجاليات الإسلامية المهاجرة في أوروبا من النواحي الثقافية والعلمية، وقضية الهوية الإسلامية التي يفتقدها أبناء المسلمين وعدم اعتراف الدولة الأوروبية بالدين الإسلامي ومناصرة التمييز ضد المسلمين وما يتعرضون له من انتقاص في حقوقهم الاجتماعية...» [2].

وتماشيا مع المستوى الرفيع في ممارسة التعصب الذي يتماشى مع الذكاء الألماني المعروف والشبيه بجلد الأفاعي في نعومته وبسمومها في قتله، نورد هذه الفقرة من تحقيق حول وضعية المسلمين في ألمانيا جاء فيه: «... يبقى الأطفال الذين هم الأمل الأخير لانتزاعنا (أي المسلمين) من تخلفنا... وقد أدركت الجاليات الإسلامية ذلك فراحت تنشر المدارس القرآنية للأطفال لينالوا قسطا من التعليم الإسلامي يحصنهم من أمراض

---

(1) جريدة الدعوة الاسلامية الصادرة بتاريخ 1990/06/13.

(2) جريدة الدعوة الاسلامية الصادرة بتاريخ 1990/06/27.

مجتمعات الغرب الذي راح في حماس شديد يصوغ مشاريع متعددة لوأد هذه الروح... ومنها صياغة ما يسمى (بالتعليم الديني للأطفال) وذلك بطرح منهج ديني مغالط تماما لأبجديات الإسلام ومناقض ـ على طول الخط ـ لعقيدة هذا الدين وروحه.

ومن المحزن أن مجلة (إسلام) الصادرة بالألمانية قد ذكرت أن آباء وأمهات الأطفال الأتراك يشكون مر الشكوى من أن أولادهم بعد تلقيهم دروسا يرفضون أن يصلّوا أو يصوموا أو أن يقوموا بأي فرض ديني ويحتجون ـ لتبرير ذلك الامتناع ـ بما قاله لهم معلموهم » [1].

7ـ التعصب المسيحي ضد الإسلام والمسلمين في الفيليبين:

وكشاهد على التعصب الذي يمارس على المسلمين في هذا البلد من أبناء جلدتهم، في كل شيء، إلا في العقيدة الدينية التي جعلت من الأخوة أو أبناء الوطن الواحد أعداء ألداء... يفترس بعضهم بعضا كالوحوش الكاسرة، نورد هذه المختطفات الصحفية الواصفة للوضع هناك، حيث جاء فيها ما نصه: «... ما يزال التوتر يسود المناطق الإسلامية في الفيليبين نتيجة لاستمرار أعمال العنف والمجارز بحق المسلمين من قبل قوات الحكومة الفيليبية التي تؤيد كل أعمال التنكيل والاضطهاد والتشريد الجماعي للمسلمين، وقد شهدت محافظة (كوناباتو الشمالية) معارك دامية بين المجاهدين في حركة تحرير مورو الإسلامية والميليشيات التي تدعمها الحكومة، استمرت لمدة ثلاثة أيام متواصلة تمكن خلالها ثوار مورو من قتل تسعة من أفراد تلك الميليشيات التي تسعى لإقامة مستوطنات نصرانية في تلك المناطق بمساعدة قوات الجيش الحكومي الفيليبيني. وقد مارست ميليشيات وقوات الجيش الفيليبيني أبشع أنواع القتل والتنكيل ضد المسلمين، واقدمت على قتل أكثر من سبعين مسلما، كما قامت بقتل النساء المسلمات نتيجة مقاومتهن للجنود المتوحشين

---

(1) عن جريدة الشرق الأوسط،عدد :1926 الصادرة بتاريخ 1989/08/28.

وقتلوا ـ أيضا ـ العديد من الأطفال بحجة أن آباءهم ينتمون لجبهة مورو. كما قامت القوات الفيليبينية باحراق المئات من منازل العائلات المسلمة يحركها الحقد الصليبي والعداء لكل ما هو مسلم» [1].

وللإجابة عن سؤال يمكن أن يطرحه البعض عن كون هذا القمع لا يخرج عن موقف متشدد من الحكومة المركزية ضد عمليات الانشقاق حفاظا على الوحدة الوطنية نقول: لماذا لا يوجد إجماع بين الحكومة المسيحية والمعارضة الشيوعية إلا فيما يتعلق بإبادة المسلمين، ثم أخيرا لو كانت المطالبة بالحكم الذاتي التي يكافح من أجلها المسلمون تحت راية جبهة مورو هي مطالبة من المسيحيين ضد الحكومة المركزية فهل سيكون فعل الحكومة مشابها في القمع والتعصب الوحشي الملاحظ في هذا الصراع الطويل، وهل كان الغرب الصليبي سيسكت على ذلك؟!

8ـ التعصب الهندوسي ضد الإسلام والمسلمين في كشمير:

من المفارقات العجيبة أن الهند التي أنجبت غاندي (رمز التسامح) تتصدر مقدمة البلدان الممارسة للتعصب الديني في آسيا، اذا كان الأمر يتعلق بالإسلام، ولعل أبرز مثال يتجسد فيه التعصب الهندوسي ضد الإسلام في الهند هو ما يشهده مسلمو كشمير في الوقت الحاضر.

ولمعرفة خلفية هذا التعصب الهندوسي ضد الإسلام يمكن الرجوع قليلا الى الوراء، أي الى أكتوبر من سنة 1947 عندما احتلت الهند كشمير، ونتيجة للمقاومة الشديدة للمجاهدين المسلمين الذين استطاعوا أن يحرروا ثلث الأراضي الإسلامية وأطلقوا عليها اسم (كشمير الحرة) وعندما شعرت الهند بوشوك هزيمتها أمام المسلمين اتجهت الى هيئة الأمم المتحدة ونجحت في فرض وقف إطلاق النار في شهر ديسمبر من نفس السنة، بعد تعهدها كتابيا باجراء استفتاء لتقرير المصير في البلاد فور عودة الهدوء اليها... وفي شهر أغسطس من سنة 1948 صدر قرار من الأمم المتحدة يقضي بأن تتولى كل من الهند وباكستان حسم قضية

---

(1) عن جريدة الدعوة الاسلامية بتاريخ 1990/06/27.

مقاطعة جامو وكشمير، حسب رغبة شعبها... وقد التزمت الهند بسحب قواتها من كشمير واستفتاء سكانها حول تقرير المصير تحت رعاية الأمم المتحدة... هذا هو الموضوع من الناحية التاريخية والنظرية. أما في الواقع فقد أتى التطبيق مناقضا تماما، كما عبر عنه الدكتور أيوب توركا (رئيس المعهد العالمي للدراسات حول كشمير) بقوله: «اعتمدت الهند مخططين لادماج كشمير نهائيا، واحد قصير المدى، وآخر طويل المدى، بمقتضى هذا المخطط أرسلت الحكومة الهندية بعثة من خبرائها الى إسبانيا للتعلم من تجاربها في انهاء الوجود الاسلامي ببلادها، وقد استخلصت الحكومة من هذا التقصي ضرورة التركيز ابتداء على التعليم، وعلى هذا الأساس ألغت تعليم العربية والتربية الإسلامية من البرامج» [1].

هذا إذن عن خلفية الصراع والتعصب الهندوسي ضد الإسلام والمسلمين وعن مظاهر هذا التعصب في الوقت الحاضر ونتائجه الثقيلة جاء على لسان القاضي حسين أحمد ما نصه: «أن سجون الهند تضم أكثر من 15 ألف كشميري مسلم، وأن كل ما يمت بصلة الى الاسلام والمسلمين مضطهد ومصادر لصالح الهندوسي، وأن الجيش الهندوسي يقتحم منازل المسلمين ويقوم بهتك أعراض المسلمات» [2].

هذا عن كشمير أما عن التعصب ضد المسلمين في الهند ذاتها فقد ورد في تقرير آخر حول ذلك نقتطف منه ما يلي:

«... باديء ذي بدء لابد من الإشارة الى أن الهندوس يعتبرون الإسلام دينًا غازيًا ومحتلا، وترعرع في أحضان الأمبراطوريات الإسلامية التي حكمت أجزاء من الهند، وأما الهنود الذين اعتنقوا الدين الإسلامي فهم في نظر الهندوس عملاء تعاملوا مع الأجنبي في سلطة أو مال وهروبا من قساوة النظام الطبقي الهندوسي المقدس في الديانة الهندوسية، وعلى هذه الحال، يكون المسلمون الهنود مرتدين عن ديانتهم الأصيلة، وهم مخيرون بين العودة الى جذرهم الديني أو الرحيل عن هندوستان أو الموت.

---

(1) عن جريدة الشرق الأوسط عدد: 4083 الصادرة بتاريخ 1990/02/01.

(2) عن جريدة الدعوة الاسلامية الصادرة بتاريخ 1990/06/27.

هذا الاعتبار الهندوسي، مرده الى أن الهندوس يدّعون بأن الهند بلادهـم وبـلاد أجدادهـم، ودليلهم على ذلك، ملاءمة اسم الهند لاسم ديانتـهم، ولهذا زعموا بأن كل من نما في الهند هو هندوسي وما غير ذلك فهو دخيل.

ولعل أفظع ما فعله الآريون كان في احتقار السكان الأصليين وترفعهم عنهم، وما النظام الطبقي الديني عند الهنادسة الذي يقسم الهندوس الى 4 طبقات أدناها طبقة الشودرا (أي المنبوذين) التي يحرّم على أفرادها العمل في غير أعمال الكناسة والبلديات، إلا نتيجة للاستكبار الآري (آري تعني الممتاز أو المختار) القائم على نظرة دونية للآخرين وبالتحديد للسكان الذين تم استعبادهم بعدما أفلح الآريون في توطيد دعائم غزوهم، وما زال النظام الطبقي هذا ساري المفعول الى يومنا هذا، حيث يعيش أكثر من 80 مليون تحت حافة الفقر، فهم يولدون ويعيشون ويموتون في الشوارع ولا يجدون سبيلا لإطعام بطونهم الخاوية إلا التسول... أو السرقة.

أساس الصراع:

إن أساس الصدامات بين المسلمين والهندوس، هو اعتقاد الأخيرين بأنهم ـ كاليهود ـ شعب الله المختار، وأما بقية الناس فقد خلقوا لخدمة البراهمة أعلى طبقات الهندوسية، ذلك أن البراهمة وحسب ما يعتقد الهندوس قد خُلقوا من وجه الإله براهما.

وفي الحقيقة أن تضاد الديانتين الإسلامية والهندوسية، يعتبر مدخلا أساسيا لكافة الصراعات، وطالما هاجم ألوف الهندوس قرية مسلمة لأن أحداً منها قام بذبح بقرة، وفي هذا الحال يلجأ الهندوس الى حرق القرية المسلمة وذبح سكانها من دون أن تستطيع الحكومة المركزية فعل شيء خوفا من أن يتهمها الهندوس بالكفر أو تشويه العقيدة».[1]

(1) جريدة :العهد" الصادرة في لندن بتاريخ 28 ربيع الثاني 1411 هـ (1991م)

9ـ التعصب الشيوعي ضد الأديان في الصين:

وبصرف النظر عن موقف العقيدة الشيوعية من الدين بصفة عامة، والذي تعتبره أفيونا للشعوب و (بنية فوقية) لا تفتأ أن تزول وتضمحل باضمحلال أو تغيير الأوضاع الاقتصادية لأفراد الجماعة، إلا أن الإسلام في الصين لم يستأصل من أعماق المسلمين الذين لم يرضوا عنه بديلا رغم «الثورة الثقافية» التي استهدفت استئصاله من الجذور، فها هو اليوم ما يزال حيا يرزق رغم صنوف القهر الممارس ضد عقيدة التوحيد بهذا البلد، كما يدل على ذلك هذا التحقيق الصحفي حول الموضوع والذي جاء فيه ما نصه: «بدأ المسلمون في عدة أقاليم في الصين، يطالبون بحقوقهم وعلى رأسها حرية ممارسة الشعائر، وإقامة المساجد، ورفع كل مظاهر التعسف والقهر التي يتعرضون لها. ففي إقليم (كيستينيانغ) منع المسؤولون هناك تشييد أحد المساجد للمسلمين، وردا على هذا التصرف نظم المسلمون مظاهرة احتجاجية، غير أن السلطات هناك قامت بدفع وحدات من الجيش والشرطة، حيث تم إطلاق النار على المسلمين الذين قتل منهم حوالي 60 شخصا، وقد قامت السلطات الصينية بالتعتيم على هذا الحادث، وقطعت وسائل الاتصال مع العالم الخارجي عن تلك المناطق خشية تسرب أية معلومات» [1].

وتضيف نفس التقارير الواردة من هناك: أن كل الممارسات القمعية ضد المسلمين لم تتمكن من كبح جماح المطالبة بحقوقهم، والتمسك بهويتهم وثقافتهم الإسلامية، وبالرغم من المحاولات التي تقوم بها السلطات من خلال توطين غير المسلمين في الأقاليم الإسلامية، بهدف تبديل المعطيات الديمغرافية للمسلمين، حيث أرسلت الى الأقاليم المسلمة مجموعات سكانية رفعت من نسبة الصينيين غير المسلمين «من 4٪ الى 40٪ ». وقد احتكر هؤلاء ـ بتدبير ومؤازرة السلطات ـ جميع المناصب العالية والمهمة في جميع الميادين [2].

---

(1) جريدة الدعوة الاسلامية الصادرة بتاريخ 1990/06/27.

(2) نفس المرجع السابق.

ومعلوم أنه خلال سنوات مضت قد تم هدم آلاف المساجد، وموريث الضغوط على المسلمين لاذلالهم، ولمواجهة اتساع ظاهرة المطالبة من جانب المسلمين بحقوقهم، طالب زعيم الحزب الشيوعي في (سين ينغ) بانتهاج سياسة جديدة تجاه المسلمين، واتخاذ اجراءات من شأنها التضييق عليهم، وعدم السماح بإنشاء أي مسجد جديد [1]. هذا بالنسبة للتعصب الشيوعي ضد الإسلام والمسلمين، أما التعصب الشيوعي ضد الديانة البوذية في هذا البلد فهو لا يقل عن الإسلام! ويتجسد بكل وضوح فيما يعانيه شعب "التِّبت". إن هذا الشعب الذي يسكن هضبة التبت وهي مقاطعة مستقلة حتى عام 1950، حيث ضمتها الصين الى أراضيها وأعلنت أنها حررت مقاطعة تابعة لها تاريخيا. ومنذ ذلك الوقت بدت على الساحة العالمية أزمة تدعى بأزمة التبت.

يقدر شعب التبت حاليا بحوالي مليوني نسمة غالبيتهم من البدو الرحالة ـ وحسب المنجد الفرنسي (روبير) استنادا إلى إحصائيات عام 1984م، فإن شعب التبت يقدر بـ 1.300.000 نسمة ـ يجمع بين أفراده الولاء المطلق «للدلاي لاما» الزعيم الروحي [2].

وبما أن الصين بلد يؤمن بالشيوعية ويعتنقها، ويحارب الأديان ـ أيا كانت ـ والتبت بلد يؤمن بالدين البوذي ويعتنقه، أدى هذا الى التنافر أكثر فأكثر بينهما، مما أفضى الى تحول هذا التنافر الى أزمة ثم الى ثورة دموية عام 1959 انتهت بهروب (الدلاي لاما) الى الهند ومعه مجموعة من أتباعه، وعينت الصين خليفة مكانه يدعى (البانش لهما) ولكن هذا الأخير رفض من طرف شعب التبت، ولم يعترف به كزعيم روحي، بل أكثر من هذا فالشعب التبتي قاطعه على أنه عميل صيني!

ويقول (الدلاي لاما) بأن الصين منذ دخولها الى المنطقة استعملت القمع، حيث أن أكثر من مليون تبتي قتلوا على أيدي القوات الصينية،

---

(1) المرجع السابق ذكره.

(2) مجلة الحوادث ليوم 1987/10/16.

وهدم أكثر من 6 معابد، لكن محاولات القضاء على الإيمان الروحي، قد باءت بالفشل، رغم سنوات الاحتلال الطويلة. بحيث لا يوجد حتى الآن إلا بعض الإداريين في التبت الذين يحسنون اللغة الصينية، أما الباقي فلا يحسنون إلا اللغة التبتية [1].

ولما أيقنت الصين بأن الشعب التبتي لا يمكن أن يتخلى عن دينه بدأت تستعمل سياسة الملاينة والتي تتلخص في إعادة ترميم بعض المعابد، خصوصا معبد «جون كان» الكبير في قلب العاصمة «لاهاسا»، واضطرت كذلك الى توجيه الدعوة رسميا الى (الدلاي لاما) لكي يعود من منفاه بالهند الى التبت، فبعث (الدلاي لاما) مبعوثين لمفاوضة الصينيين في (لاهاسا) واستقبلهم أهل العاصمة استقبال الأطفال، فانزعجت الصين بهذا الاستقبال وتراجعت عن عرضها السابق وأعلنت أنها ستسمح (للدلاي لاما) بالعودة شريطة أن يقيم في بكين، فلم يرضخ (الدلاي لاما) لمطلبهم وأثر حياة المنفى عما يدعونه اليه!

وعلى إثر هذه الحادثة توقفت الاتصالات بين بكين ولاهاسا وعادت الصين الى أسلوب القمع، فعززت المنطقة بالجيش وبثت فيها حياة الرعب والخوف والعزلة عن العالم. فلم يعد يطالب (الدلاي لاما) بالاستقلال عن الصين ولكن بانسحاب القوات المسلحة الصينية من المقاطعة، ووقف الهجرة الصينية المكثفة التي تهدف إلى إغراق القومية المحلية بالكثافة السكانية الصينية، وبالدخول في المفاوضات مع بكين حول وضع التبت داخل جمهورية الصين الشعبية.

ولم تستجب الصين الى الآن على الرغم من دعم الدول الكبرى الغربية لمطالب (الدلاي لاما) وتحذيرات البوذيين بأن سقف العالم قد ينهار على رأس الصين [2].

---

(1) مجلة الحوادث ليوم 1987/10/16.

(2) نفس المرجع السابق ذكره.

10 - التعصب الصليبي ضد الإسلام والمسلمين في ليبيريا:

وكما أثبتنا في حالات كثيرة، فإن التعصب مثل النار المحرقة الكامنة في أعماق الإنسان المتعصب، ثم لا تلبث أن تظهر الى الوجود، لتأتي على الأخضر واليابس بمجرد أن تتاح لأصحابها أدنى فرصة لتفريغها في الطرف المقابل، وهذا ما تأكد في صائفة 1990 في ليبيريا، هذه الدولة التي أنشأها الغرب منذ ما يقارب من قرن ونصف (1846) في غرب إفريقيا ويسكنها زهاء المليوني نسمة ثلثهم من المسلمين (حوالي 600 ألف مسلم) [1]. ومما يدل على ما ذكرناه أنه بمجرد ما انعدم الأمن في هذا البلد نتيجة التمرد العسكري الذي قام به أحد الضباط للإطاحة بنظام الحكم، أطل الحقد الصليبي من الأعماق وشرع المتمردون بقيادة ضابطهم المتعصب في القيام بمذبحة بشرية، وإبادة جماعية بحق كل مسلم يصادفونه في الطريق، والحملة ما تزال متواصلة حتى الآن، وعن ذلك ورد مقال صحفي بعنوان «في ليبيريا المتمردون يقتلون المسلمين ويهدمون المساجد»، جاء فيه على الخصوص: «تفيد التقارير الواردة من العاصمة الليبيرية (منروفيا) أن الحال فيها تسير من سيء الى أسوأ، وأن المتمردين في تقدمهم قاموا بمذابح بين صفوف المسلمين في المناطق التي استولوا عليها... ويقوم المتمردون في كل قرية يدخلونها بالقضاء على الوجود الإسلامي مثل المساجد والمدارس القرآنية والمراكز الإسلامية والفتك برجال الدين الإسلامي... ويقود التمرد رجل مسيحي متعصب يتلقى الدعم من بعض الدول الغربية وكان لاجئا في أمريكا» [2].

وجاء في مقال صحفي آخر [3] بعنوان (في ليبيريا: تدمير 30 قرية مسلمة)، ما نصه: «تعرض المسلمون في محافظة (نينيا) الليبيرية الى هجوم صليبي حاقد بالتحالف مع الوثنيين الحاقدين على الإسلام والمسلمين في مذابح فظيعة في كل من (باهن) والقرى المجاورة لها، وكذلك بمدينة

---

(1) صحيفة المنقذ الصادرة في الجزائر بتاريخ 19 ذو الحجة 1410.

(2) نفس المرجع.

(3) صحيفة الدعوة الاسلامية الصادرة بتاريخ 1990/06/20.

(صانيكولي) عاصمة المحافظة ومدينة (عانتا) التي تعتبر المركز التجاري الأول. وكانت المذابح الوحشية قد بدأت مع نهاية شهر الربيع (مارس) الماضي والتي لا زالت متواصلة الأمر الذي أدى الى حرق وتدمير أكثر من 100 مسجد، وقتل إمام مسجد (صانيكولي) وجميع أفراد أسرته بالإضافة الى خمسة أئمة آخرين.

كما قطعت ألسن الكثير من المؤذنين وقتل حوالي 2000 مسلم والتمثيل بجثثهم وقتل الحوامل وقتل وفقدان أكثر من 70 داعية وحرق 30 قرية بأكملها وقتل وتشريد أهلها »[1].

II

التعصب المركب (الشيوعي ـ اليهودي ـ المسيحي) ضد الإسلام والمسلمين:

وبعد النماذج المتعددة لحالات التعصب التي يمكن أن نطلق عليها «التعصب البسيط» أي تعصب جماعة من أتباع دين معين ضد جماعة من أتباع دين آخر يمكن أن نستعرض نماذج جديدة فيما يصح أن نسميه بـ «التعصب المركب» وهو تحالف جماعات من أديان وعقائد مختلفة ضد جماعة من أتباع دين معين... وهذا التحالف المركب (الثنائي، أو الثلاثي) نجده متمثلا في تحالف متعصب لبعض الأنظمة الشيوعية في العالم، مع كل من المسيحية واليهودية لضرب الإسلام والمسلمين.

واذا كان من المعروف أن الشيوعية تعادي جميع الأديان والتي تعتبرها «أفيون الشعوب»، كما جاء على لسان فيلسوفها الأول (كارل ماركس) فإنه من الغرابة بمكان أن نجد الشيوعية تتحالف مع أتباع أي دين آخر اذا كان الأمر يتعلق بضرب الإسلام وتحطيم صرح المسلمين ومحو وجودهم من خريطة الأرض!

---

(1) عن صحيفة الدعوة الإسلامية، نفس المرجع السابق.

وهذا ما نلاحظه منذ عدة سنوات سواء في تصريح الرئيس الأمريكي السابق (ريتشارد نيكسون) في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية الداعي الى ضرورة تعاون الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة الأمريكية في التصدي للصحوة الإسلامية [1] أو يتجسد لنا في دعم الولايات المتحدة الأمريكية المسيحية للضابط السوداني المنشق (جون غارنج) ضد الإسلام والمسلمين في الوقت الذي ظل هذا الضابط يتلقى نفس الدعم من نظام اثيوبيا (الشيوعية) التي كانت تتلقى بدورها الدعم المطلق والشامل من الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية الأخرى التي كانت تدور في فلكه سابقا، كما يدل على ذلك ـ أيضا ـ موقف الاتحاد السوفياتي (الشيوعي سابقا) في دعم النظام الصهيوني المتعصب في فلسطين المحتلة باليهود السوفيات، وكذلك تبادل الدعم «السافر» بين النظام الشيوعي واثيوبيا واسرائيل... فالأول بإرسال المهاجرين (الفلاشا) الى فلسطين العربية المسلمة. والثاني بالإمداد العسكري للأول في معركته الدائرة منذ سنوات لاستئصال جذور العقيدة الاسلامية من نفوس الشعب الأريتيري المسلم، الذي يجابه نيران التعصب الصليبي الشيوعي المتحالف ضده (كما سيرد تفصيله في مكان لاحق)، ومن المعلوم أن الإسلام قد وصل الى هذه الدول الشيوعية منذ أمد بعيد. فقد دخل الإسلام آسيا الوسطى والقوقاز والأوران وسيبيريا بقرون سابقة على مجيء الشيوعية إليها، كما كان قد دخل الصين بشمالها وجنوبها منذ القرن الأول الهجري، مثلما هو الشأن بالنسبة لاثيوبيا، أما الدول الشيوعية الأخرى مثل بلغاريا ويوغسلافيا ورومانيا وألبانيا فقد دخلها الإسلام مع فتوحات الخلافة الإسلامية.

وإذا ما أردنا اليوم أن نبحث عن إحصائيات للمسلمين في هذه الدول الشيوعية، فإننا نجد أن الإحصائيات الرسمية غير مطابقة تماما لواقع المسلمين وذلك لتمويه وتعتيم مقصود من السلطات الرسمية في هذه البلدان خوفا من أن يثير عددهم المرتفع الدعوة الى المطالبة بالاستقلال أو

---

(1) عن جريدة المسلمون الصادرة بتاريخ 1989/03/30.

الحكم الذاتي على الأقل، للتحرر من القيود المادية الممارسة عليهم اليوم، لمنعهم حتى من ممارسة شعائرهم الدينية (كما سيتبين بالتفصيل فيما بعد) وهكذا فإن عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي يقدر رسميا بحوالي 60 مليون نسمة (موزعة بين عدة جمهوريات سوفياتية) من مجموع سكان الاتحاد السوفياتي سابقا البالغ عددهم ما يقارب 290 مليون نسمة، في حين تشير التقديرات (غير الرسمية) الى أن عددهم يتراوح ما بين 70 ـ 100 مليون نسمة [1].

أما في الصين فالاحصائيات الرسمية تشير الى حوالي 15 مليون نسمة، في حين تشير التقديرات غير الرسمية الى عدد يتراوح ما بين 60 ـ 70 مليون، والأغرب من هذا كله أن دولة ألبانيا التي لا يتجاوز عدد سكانها الإجمالي 3.000.000 نسمة كلهم كانوا يدينون بالإسلام قبل الحرب العالمية الثانية، نجد الإحصائيات اليوم تشير الى أن عدد المسلمين فيها لا يتجاوز 50٪ على أكثر تقديرا! [2]، وبنفس الأسلوب يقدر عدد المسلمين في بلغاريا اليوم بحوالي مليون ونصف مليون نسمة، بما يعادل نسبة تتراوح ما بين 10 ـ 15٪ من مجموع السكان [3] وهو ما يبتعد عن الواقع الفعلي بكثير [4]، كما يقدر عدد المسلمين اليوم في اثيوبيا بما لا يقل عن 40٪.

واذا كنا قد ركزنا على ذكر هذه البلاد الشيوعية التي توجد بها أقليات مسلمة منذ قرون، وقد كانت تتعايش مع المسيحية في ظل الخلافة العثمانية قبل ظهور الشيوعية، فذلك لأننا نريد أن نقتصر على ذكر بعض الحالات التي يظهر فيها التعصب (الشيوعي ـ الصليبي) أو (التعصب الشيوعي ـ الصليبي ـ اليهودي) على سبيل المثال، وليس الحصر علي اعتبار أننا هنا لسنا بصدد القيام بإحصاء لجميع حالات التعصب وأنواعه في كل أقطار العالم في الماضي والحاضر...

(1) ـ عن جريدة المسلمون الصادرة بتاريخ 1989/03/30.
(2) نفس اللمرجع .
(3) جريدة الشعب الجزائرية 1990/01/03.
(4) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ 1989/08/14.

وكنموذج ـ فقط ـ لهذه الحالات المنتقاة على سبيل المثال نذكر:

أولا ـ الاتحاد السوفياتي:

ومن الأدلة على ظاهرة التعصب (المركب) في هذا البلد أنها لم تنشأ مع تطبيق مبادىء الثورة البولشوفية فحسب، بل تتجاوزه الى قرون خلت... مما يجعل التعصب الشيوعي الحالي امتدادا مضاعفا لتعصب الأجداد القياصرة وليس «عزفا منفردا» كما يبدو في ظاهره...

ومن الأدلة التاريخية على هذا التعصب (الموروث) يمكن ذكر المجازر التي أوقعتها الجيوش الروسية في عهد ايفان الرابع الملقب «بايفان الرهيب» والذي أطلق هو على نفسه لقب «قيصر روسيا الكبرى» والمتمثلة في عمليات الإبادة الجماعية ضد المسلمين تحت شعار «جهاد الكفار» كما يقول في ذلك أمير طاهري [1] «بدأ الهجوم الروسي على قازان في الرابع عشر من فبراير من سنة 1550، واستخدم الغزاة مدافع ثقيلة، لم تكن معروفة حتى ذلك الحين... ولما انتاب (ايفان) الذعر، فقد ترك محاولات الاستيلاء على القلعة، وبدلا من ذلك أوعز لقواته أن يذبحوا ما كانوا يزعمون أنهم «الكفار» وهكذا بدأت مجزرة قطعت فيها أوصال النساء والأطفال والشيوخ، وكل سكان قازان الفقراء الذين كانوا يعيشون في الأحياء الخارجية، ثم أكثر من ألفي صبي وفتاة أخذوا لكي يقدموا أرقاء للأسر الروسية المختلفة... وعندما أعلنت قازان مدينة مفتوحة فقد سلمت للجنود الروس الذين كانوا تحت تأثير اعتقاد مفاده أن ذبح «الكفرة» يقربهم من المسيح» [2]، (وهو نفس المشهد الذي نعيشه اليوم في «سبيرينيتشة» البوسنة المسلمة أمام أنظار جميع سكان العالم المتفرج) وفي تحقيق منشور سنة 1981، بعنوان «الإسلام يقاوم الشيوعية في الاتحاد السوفياتي»[3] جاء فيه ما يفيد أن روسيا كانت تضم قبل

---

(1) الهلال في سماء حمراء، كتاب منشور في حلقات، الحلقة (6)،جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ 1989/08/20.

(2) المرجع السابق ذكره.

(3) عن تحقيق منشور في جريدة الشرق الأوسط ليوم 1989/06/18.

الثورة البولشوفية حوالي 30 ألف جامع ومسجد وأن معظم هذه المساجد قد أغلق أو هدم أو حول الى ناد ضد الدين حتى أصبح عددها سنة 1942 لا يتجاوز 1200 فقط، وبعد الحرب العالمية الثانية شن خروتشوف حملته الشهيرة ضد الدين، فأغلق معظم ما تبقى منها حتى لم يعد يتجاوز عددها سنة 1966 (400 مسجد) وبعد 10 سنوات من ذلك ذكر أحد قادة مجلس الشؤون الدينية في الاتحاد السوفياتي أن العدد الرسمي للمساجد والجوامع في الاتحاد هو (300 مسجد)!.

ففي داغستان ذات المليون ونصف المليون مسلم (حسب احصاء 1979) لا يوجد بها اليوم سوى 27 مسجدا. وفي جمهورية الشيشان ذات 670 ألف مسلم (احصاء 1979) لم يبق بها من المساجد سوى 7 وقد كان عددها (900 مسجد) قبل الثورة!

وفي أذربيجان لم يبق سوى 16 مسجدا مقابل 2000 مسجد قبل سنة 1917، وفي طشقند لم يبق سوى (12 جامعا) وفي (بخارى 4) وفي (سمرقند 3) مساجد فقط! [1].

هذا وما أشبه اليوم بالبارحة مع الفارق أن التعصب في الماضي كان صليبيا فقط (كما ذكرنا) أما اليوم فهو (شيوعي - صليبي - يهودي) سواء في الاتحاد السوفياتي سابقا أو خارجه! وأوضح مثال على ذلك هو الوضع في البوسنة حاليا بدعم من روسيا ذاتها في مجلس الأمن!!

الحالة الأولى: تتعلق بالوضع داخل الاتحاد السوفياتي (سابقا)؛ ويمكن الاستدلال عليها بالشواهد التالية:

أولا: في الوقت الذي كانت تشق فيه عصا الطاعة على موسكو جمهورية ليتوانيا (المسيحية) يذهب اليها رئيس الكرملن (ميخائيل غورباتشوف) بالصدر المفتوح، واليد الممدودة الى الحوار بالتي هي أحسن، حول كل ما هو مطروح للنقاش... وعندما ينشأ خلاف بين الأرمن (المسيحيين) والأزاريين (المسلمين) يبعث بألوية الجيش الأحمر بدباباته

---

(1) نفس المرجع السابق ذكره.

المصفحة الى باكو لإسكات صوت الحق (الإسلامي) استجابة لنداءات الأرمن في اقليم (ناقورنو قاراباخ) الذي يتبع (دستوريا) لجمهورية أذربيجان، معلنا حالة الطوارىء في البلاد! مما أسفر عن تلك المجزرة الرهيبة في حق المسلمين، والتي أصبحت تعرف اليوم في باكو بيوم الجمعة الأسود الحزين!!

ثانيا: في ليتوانيا يظهر غورباتشوف في ثوب صانع السلام مع المتشددين الانفصاليين (المسيحيين) الذين كانوا يؤكدون أنهم يستقبلونه بوصفه رئيس «دولة صديقة» يبتسم في وجوه خصومه، ويناقش الجماهير التي اختلط بها في الأسواق، متسامحا وغاضا الطرف عن كل الشتائم واللعنات المقذية التي كانت تنهال عليه من أفراد الشعب اللتواني، مؤكدا ـ في كل مرة ـ أن الديمقراطية هي الحل الوحيد لمشاكل الاتحاد السوفياتي من خلال الخطب التي ألقاها في ليتوانيا، مما جعله يحظى برضاء الغرب المسيحي كل الرضا... وعندما تعلق الأمر بالحوار مع الشعب الأزاري المسلم فقد كانت المدافع هي اللغة الوحيدة الصالحة للاستعمال!

ثالثا: في الوقت الذي يحظى رئيس الكرملن بالتأييد والاعجاب بموقفه (الديمقراطي) المتسامح مع جمهوريات البلطيق (المسيحية) من قبل كل الدول الغربية ينال نفس الإعجاب والتأييد و«التفهّم» للموقف «المبدئي» من نفس تلك الدول الغربية على قمعه السافر للانفاس (الاسلامية) في جمهورية أذربيجان المسلمة وبقية الجمهوريات المسلمة الأخرى كطاجاكستان وغيرها...

رابعا: منذ أن انفجرت الأزمة في جمهورية أذربيجان بين الأرمن والأزاريين، والصحافة الغربية بكل اتجاهاتها تواصل تأييدها المتحيز للأرمن وتتغاضى عن الفظائع التي ارتكبت ضد الأزاريين الذين يعملون في أريفان عاصمة أرمينيا، وكان آخرها المجازر الرهيبة للأرمن ضد المسلمين في شهر افريل سنة (1993) بمباركة الغرب المسيحي الصهيوني!

خامسا: في الوقت الذي يفتقد فيه المسلمون لأي نصير في قمة الكرملن يحصل فيه (ابيل زجانيجيان)، (وهو مسيحي أرميني متطرف

ضد المسلمين...) على منصب مستشار لغورباتشوف... ومما يدل على الدور المؤثر الذي يضطلع به هذا المستشار (المسيحي الشيوعي) على سياسة الكرملن تجاه المسلمين هو رفض غورباتشوف لمقابلة وفد من أذربيجان (بحجة ضيق الوقت!) في الوقت الذي استقبل (يوم 15 ـ 12 ـ 1989) مجموعة «حقوق الانسان» الأرمينية مؤكدا لهم حرصه على تفهم مطالب هذا الشعب [1].

سادسا: ترخيص غورباتشوف لليهودي المنشق (أندري زاخاروف) بالذهاب الى إيرفان، وإلقاء خطب حماسية في المسيحيين الأرمن مستعديا إياهم بكل شدة على الإسلام والمسلمين. ومما جاء في خطاب هذا اليهودي المتعصب الذي يجعل منه الغرب حمامة السلام، وينصبونه نبيا لحقوق الإنسان (غير المسلم!) ما نصه: «في الوقت الذي يتجه فيه العالم الى السلام ومجتمع الحرية يصر البعض في أذربيجان على العودة الى الإسلام» وقال أيضا «أن الأذربيجانيين ارتكبوا الفظائع بحقكم أيها الأرمن المتحضرون المتسامحون!» [2]. مع أن العالم كله يشهد على مدى تعاطف ومواساة المسلمين في أذربيجان لجيرانهم الأرمن عقب الزلازل العنيفة التي ضربت أرمينيا في سنة 1989. ولكن ما أقدر التعصب على إعماء صاحبه عن رؤية الحقيقة فضلا عن الدفاع عنها!.

وقس على موقف غورباتشوف الماضي موقف خليفته الحالي (اليتسين) في البوسنة والعراق وأذربيجان وطاجاكستان والشيشان!

هذا اذن ما يتعلق بعينات من مظاهر وحالات التعصب (المركب) الذي يمارس رسميا وشعبيا في الاتحاد السوفياتي سابقا، ضد الإسلام والمسلمين تحت المظلة الكاملة للإعلام الغربي (المسيحي واليهودي) وكذا الموقف الرسمي (المزدوج) للدول الغربية والمؤيد لسياسة غورباتشوف وأليتسين ظالمة في (باكو) والبوسنة وطاجاكستان والشيشان، ومظلومة في (فيلينيوس).

---

(1) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ 29/01/1990.

(2) نفس المرجع السابق.

الحالة الثانية: وتتعلق بالوضع خارج الاتحاد السوفياتي الشيوعي سابقا: ويمكن الاستدلال عليها بشاهدين اثنين:

أولا: التآمر على أفغانستان وممارسة التعصب ضد أهلها:

يقدر عدد سكان أفغانستان بحوالي 20 مليون نسمة 99٪ من السكان مسلمون، وقد أنجب هذا البلد الإسلامي العريق إمامين جليلين من أئمة الفقه هما «أبو حنيفة النعمان» (80 ـ 150 هـ) الذي ينتسب الى كابل، و «أحمد بن حنبل» (164 ـ 241 هـ) الذي ولد بمدينة (مرو) كما برز فيها من المحدثين «أبو داود السجستاني» صاحب السنن الذي توفي سنة 275 هـ. الى جانب كثير غيرهم من المفسرين والمحدثين أمثال الترمذي وأبو حامد الغزالي والسرخسي، والبيهقي، والنيسابوري والزاهدي الذين خلفوا تراثا تتعاقب الأجيال الإسلامية على دراسته، كما أنجبت المفكر الاسلامي الثائر العملاق جمال الدين الأفغاني (1254 ـ 1314 هـ).

إن الشعب الأفغاني إذن شعب مسلم معتز بإسلامه، ولا يرضى أن يحكم إلا من مسلم، وقد وصف أحد المراسلين هذا الشعب فقال: «عندما يحضرون مباراة كرة القدم، يتحول الملعب وقت الصلاة الى مسجد لأن الكل يصلي». ولهذا بدأ الهجوم الرسمي على الإسلام في عهد الملك (محمد ظاهر شاه) الذي أصدر مرسوما ملكيا عام 1959 يسمح به للنساء بالسفور المختلط في الجامعة ووضعت مناهج التعليم في كثير من جوانبها على غرار المناهج الغربية. ولما جاء محمد داود أظهر عداءه العلني للإسلام والمسلمين، فبدأ حملة ضد الحركة الإسلامية في أفغانستان وأعتقل مئات من الشباب والشيوخ، وقتل العشرات منهم، وأغلق مركز البحوث الإسلامية في الجامعة، ومنع الصحف والمجلات الإسلامية من الصدور. وقلل عدد الحجاج الأفغان الى الربع، وأصدر منشورا يمنع فيه النهي عن المنكر، ويعتبر المساس بالشيوعية أو مهاجمتها جريمة يعاقب عليهما القانون، وفي نفس الوقت سمح للشيوعيين أن يمارسوا نشاطهم بكل حرية وقوة!

هذه الأعمال كانت استفزازا للشعب الأفغاني في أعز شيء يملكه، ألا وهو عقيدته ودينه، ولهذا أخذ المسلمون يتداركون أمرهم قبل فوات الأوان، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير أن وقف أحد الشيوعيين في الجامعة يعترض عن الآذان، فقام أحد الشبان المسلمين فأذن للصلاة، وأدى جميع الحاضرين صلاة الظهر، مما أدى بعد ذلك الى اصطدام بين المسلمين والشيوعيين، ومنذ تلك اللحظة أخذ المسلمون بالتكتل واكتسح المد الإسلامي الجامعات والمدارس الثانوية [1].

مما دفع بأمريكا والاتحاد السوفياتي الى الاهتمام بهذه الصحوة، وأخذ كل واحد منهما يستغلها لخدمة أهدافه الإستراتيجية في المنطقة !.

وقد يكون المحرك الأول للتدخل السوفياتي في أفغانستان الخوف من انتقال الصحوة الإسلامية الى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي (تاريخئذ)، وهي شعوب متصلة دينيا وعرقيا ولغويا بشعوب أفغانستان وإيران وتركيا [2].

وحاول عملاء الشيوعية السوفياتية إجهاض هذه الحركة أو إيقافها، لكنهم لم يفلحوا فلجأوا الى أسلوب التصفية الجسدية، فاتهموا الحركة الإسلامية واعتقل المئات من أعضائها، وقدم قادتها الى محاكمات صورية عام 1977م، فحكم على ثلاثة من خيرة العاملين بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم في 12 جوان 1977م. وهم الشهيد «حبيب الرحمن» أستاذ الشريعة بجامعة كابل، والشهيد الدكتور «محمد عمر»، والشهيد القائد العسكري «خواجة محفوظ» وعلى إثر الضربات المتلاحقة التي سددها المجاهدون لحكومة حفيظ أمين، كاد النظام الشيوعي أن يسقط في أفغانستان، ولما كان البديل الوحيد هو الإسلام، وحتى لا يتم ذلك، قام الجيش السوفياتي بالإطاحة بحكم حفيظ الله أمين، وتنصيب عميله المخلص (بابراك كرمل) واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية بالاحتجاج

(1) مجلة الأمة، العدد الرابع، السنة الأولى، فيفري 1981.

(2) مجلة الجهاد العدد: 1987/12/27.

الظاهري، لأن الضحية هو الإسلام! فانكشف الزيف الشيوعي على حقيقته، فروسيا تجاهر دائما بأنها نصيرة الشعوب المستضعفة وتطالب بتخليصها من الاستعمار ومنحها حق تقرير المصير (...) فلما استولت على أفغانستان، سقطت أقنعة الزيف والتضليل التي كانت تتستر خلفها الشيوعية السوفياتية، ونظرا لبشاعة الأساليب الإبادية التي كان يمارسها الجيش الأحمر ضد المجاهدين في تعصب (صليبي) دفين يعود الى الروح القيصرية... لوحظ العديد من الجنود السوفيات من الجمهوريات الإسلامية السوفياتية يفرون من صفوف الجيش الأحمر الى خنادق المجاهدين، ولم يسجل التاريخ أن فرّ جندي واحد غير مسلم الى صفوف المجاهدين، طوال هذه المجزرة الرهيبة، في حق المسلمين التي دامت أكثر من عشر سنوات!

ثانيا: التآمر مع الأمريكان لصالح اليهود:

وتتمثل أبرز حلقات هذا التآمر وأخطرها، في صفقة التهجير الجماعي اليهودي الى فلسطين، والتي عرفت بدايتها في سنة (1990) ولم تعرف نهايتها بعد، ولاشك أنها ستكون من نتائجها المباشرة مضاعفة التعصب الصهيوني في فلسطين بمده بجرعات هائلة من الاتحاد السوفياتي تحت مظلة حقوق الإنسان والإنسانية، التي لا تعني في القاموس (السرّي) للأوروبيين سوى الإنسان المتعصب ضد الإسلام والمسلمين (سواء كان هذا الإنسان شيوعيا أو مسيحيا أو يهوديا، وسواء كان ساكنا في أوروبا، أو كنا في آسيا أو أمريكا أو فلسطين!.)

ولعل مذبحة «الخليل» التي تمت على يدي أمريكي صهيوني تحت حماية الجيش الإسرائيلي الذي يضم الروس في صفوفه... ليست سوى صورة لهذا التعصب الأعمى ضد المسلمين.

ثالثاً- مذابح الروس ضد المسلمين:

«مازال المسلمون هم أهون الناس على الأمم لهوانهم على أنفسهم، ومازالت مآسيهم تتصدر مآسي البشرية وإن لم يشر اليها، وما زالت مذابحهم تتكرر، وجروحهم تزداد. وفي الوقت الذي يدعو العالم المتحضر (ماديا) الى التعايش السلمي بين الشعوب وإعطائهم حرياتهم وحفظ حقوقهم الإنسانية، ورفض القوة سبيلا للتعامل، يتغاضى عما يحدث للمسلمين، وكأن قضاياهم ليست إنسانية في المقام الأول، أو أنها ليست في دائرة اختصاصهم. وفي الوقت الذي تساعد فيه الدول الغربية والإسلامية الدول المتحررة من ظلام الشيوعية، تقوم تلك الدول بسحق المسلمين وإبادتهم وانتهاك حرماتهم تحت سمع وبصر جميع المنظمات الدولية والإنسانية بما فيها منظمات ولجان حقوق الإنسان. فما يحدث في البوسنة، وأبخازيا، وطاجكستان والشيشان وغيرها من أحداث إنما يعبر عن ازدواجية المقاييس في التعامل مع الشعوب من قبل المنظمات الدولية حسب هويتهم ومعتقداتهم.

فبالأمس القريب تكرر سيناريو المجازر الوحشية، وكانت الضحية كالعادة هم المسلمين، وأسند دور البطولة هذه المرة للحقد الصليبي المتمثل في الأستينيين والروس، وكان مسرح الأحداث مدينة (فلاديقفقاس) في بلاد الأنجوش المسلمة، والتاريخ هو 92/12/03. وأنجوشيا هي الجزء الأصغر من جمهورية الشيشان، والأنجوش بلاد مسلمة نالت استقلالها الذاتي قريبا، ولكنها تتبع روسيا الاتحادية سياسيا. ويحد أنجوشيا من الشرق الشيشان، وغربا بلاد الشراكسة، وشمالا إوسيتيا الشمالية (المعتدية) وجنوبا جورجيا. وكان الأنجوش من جملة الأمم التي هجرها الغزو الشيوعي الغاشم من أوطانها، ولكن بعد عودتهم وجدوا أن الأستيين قد احتلوا جزءا من أراضيهم، وبدأت مطالبة الأنجوش بإعادة أراضيهم، فوعدهم بوريس يلتسين باسترداد أراضيهم إن هم تركوا تحالفهم مع الشيشان فوافقوا وأعلنوا تخليهم عن ذلك الحلف، ومن ثم فقدوا قوة

إخوانهم الشاشان. ومضى كيد الروس وبدأوا بالمماطلة، وبعد عدة مطالبات من الأنجوش رفضت القيادة الروسية الاستجابة،بل تحركت جحافل الروس والأستيين تحت جنح الظلام في يوم الخميس 92/12/03 ليداهموا الأنجوش النائمين في مدينة (فلاديقفقاس) وليسجلوا في التاريخ بدماء المسلمين مجزرة جديدة هي من أبشع ما عرفت البشرية. وكان الغرض منها إفزاع شعوب المنطقة التي بدأت تطالب بحرياتها وبحقها في ادارة شؤونها والاستفادة من خيرات أرضها التي سلبها الروس طيلة فترة الحكم الشيوعي، دخل الأوسيتيون والروس المدينة البائسة وقاموا بتدمير جميع المساجد، وفجروا وهدموا وأحرقوا أكثر من 20 ألف مبنى مأهول بالسكان، وقتلوا وذبحوا وأحرقوا آلاف المسلمين وقاموا باغتصاب ما يقرب من 300 عذراء أعمارهن ما بين الست الى العشرين سنة، وأسروا 8 آلاف مسلم، وقاموا بتقطيع الأطفال أمام ذويهم الى قطع صغيرة ألقيت الى الخنازير طعاما لهم، وقيل للمسلمين: أنتم لا تأكلون الخنزير، والخنزير يأكلكم اليوم ودفنوا ستين رضيعا من المسلمين أحياء، ولما سئل المجرمون عن هذا العمل أجابوا: بأنه لا يوجد حليب لأطفالكم، وهتكوا أعراض الأطفال أمام الأمهات وأعراض الأمهات أمام الأطفال، قاموا بقطع الآذان والألسنة. وعورات الرجال وأثداء النساء، وجردوهن من ثيابهن وأطفئت أعقاب السجائر في صدورهن ومثلوا بالأحياء أيما تمثيل الى حد قطع الأجزاء من الجسم كالأمعاء والقلب والكلى من أصحابها وهم أحياء، ردموا جثث القتلى ومن بهم رمق في حفر جماعية بالكاسحات.وسلم القليل منها الى الانجوش، وكان نتيجة هذه الهجمة الوحشية الشرسة 15 ألف قتيل ومفقود، وفرار 55 ألف مسلم أنجوشي الى شعاب الجبال وبطون الأودية في درجة من الحرارة وصلت الى 20 تحت الصفر بما عليهم من ثياب. ولقد تم استخدام الدبابات والصواريخ أرض - أرض والطائرات المروحية والمدافع الثقيلة والرشاشات الأوتوماتيكية ضد الشعب الأعزل، وهناك أدلة مادية على استعمال الأسلحة الكيماوية من قبل الأوستيين بعد أن أمدهم الروس بها وشاركوهم في هذه المجزرة التي تمت تحت تعتيم شديد، اذ تم قفل المنطقة

في وجه الصحفيين، ولقد تم إقصاء رئيس التلفزيون الروسي لأنه عرض جزءا يسيرا من وقائع تلك المجزرة، ويقابل هذا التعتيم تصعيد إعلامي ضد الأنجوش بوصفهم أنهم هم الذين بدأوا القتال وأنهم مستمرون في الاعتداء على المساكين الأوستيين، ووصل بهم الحد إلى وضع الصلبان على القبور الجماعية للمسلمين في تضليل واضح للرأي العام، ولم يقتصر الأمر على أهل تلك المدينة البائسة. فقد قام الروس بقتل عقيد عسكري أنجوشي كان يخدم في الجيش الروسي، اضافة الى بعض الضباط الذين ينتمون الى قوميات إسلامية، وذلك بقطع أمعائهم وهم أحياء، وكان لهذه المجزرة أثر في قلب الجنرال الروسي سافين الذي استقال من منصبه احتجاجا على هذه الأعمال الوحشية» [1].

هذا عن أنجوشيا. أما طاجاستان فلم تكن أحسن حظا منها أيضا «...لقد كان انتصار حكومة الإسلاميين في طاجاكستان مروعا للشيوعيين ولكثير من القوى في العالم التي لا يروق لها ذلك، إذ عد الأمر أكبر انتصار إسلامي في السنوات الأخيرة بعد انتصار المجاهدين الأفغان على القوات الشيوعية، حيث خرجت الحكومة الطاجيكية المسلمة منتصرة على العصابات الشيوعية والصليبية.

ولم يتكلم العالم حينها، وحتى العالم الإسلامي وإعلامه عن تضحيات المسلمين الذين قدموا خلال تلك الفترة (20) ألف شهيد، بينما تهدمت الآلاف من المنازل وتهاوت على رؤوس الآمنين وانتهكت أعراض المئات من المسلمات، وكل ذلك كان يجري بصمت رهيب كعادة العالم في الصمت عن مثل هذه الأحداث.

وتنفس المسلمون في طاجكستان الصعداء بعد الاعتقال الذي امتد سبعين عاما، اعتقال الأرض والشعب والدين والثقافة والفكر وكل شيء، ولكن هذا الانفراج وهذا التنفس كان ملبدا بغيوم ملوثة تخيم فوق طاجكستان لتعيد نفس المأساة السابقة، ولكن بثوب جديد.

فوجود القوات الروسية هناك رغم الاستقلال كان غيمة من هذه الغيوم، فالطاجيكي البسيط هناك يتساءل لماذا لا ترحل هذه القوات عن

---

(1) صحيفة الراية، عدد: 52 ، 13. 7. 1993.

بلادنا كما رحلت عن دول البلطيق؟ ألم يقولوا لنا إننا بعد سبعين سنة من الشيوعية في طاجكستان أصبحنا دولة مستقلة؟ إذن لماذا كل هذا؟ ثم يتساءل المراقبون... إذن فما معنى الاستقلال الذي منحه الكرملين للدول التي انتظمت سابقا في دولته؟

إن 90٪ من اقتصاد طاجكستان مازال في أيد الروس، وأذناب الشيوعية مازالوا موجودين يثيرون النعرات القبلية ويحيكون المؤامرات لصالح الروس ضد الدولة الوطنية، وهكذا تجدد القتال بين القوات الوطنية (المسلمة) والقوات الشيوعية الموالية للرئيس المخلوع (رحمن نابيف) المدعومة من قبل القوات الروسية والأوزبكية التي استخدمت الأسلحة الحديثة لمهاجمة المسلمين في مواقعهم، بعد أن اندلع القتال في العديد من المدن والقرى من جنوب طاجيكستان، وبدأت سلسلة المذابح وسط إغفال رهيب وصمت مطبق يتلقى المسلمون في طاجيكستان الضربات القاسية بعد أن سقطت طاجيكستان مجددا بين المطرقة والسندان. إنها شيوعية بثوب جديد يقودها نفس الشيوعيين السابقين ويجللها تآمر دولي رهيب. المنظر اليومي المعتاد أن يراه الناس في هذه الأيام هو جثث ملقاة على قارعة الطريق وتبقى هذه الجثث أياما دون أن يجرؤ أحد على دفنها لأنه سوف يتعرض الى نفس المصير اذا أقدم على ذلك.

الاغتصاب الذي أصبح أحد وسائل التطهير العرقي الجديد، الحرق، التدمير، قتل الأطفال والشيوخ والنساء، التمثيل بجثث الأبرياء، ثم انتهاك أعراض الأطفال وغير ذلك من الأحداث المؤلمة التي ينفطر لها القلب وينزف لها دما، كل ذلك جرى لأن 70٪ من الشعب الطاجيكي طالب بالعودة الى حكم إسلامي رشيد.

فقد كان هؤلاء 70٪ يقولون لابد لنا من الاعتراف بأن التأثير الروسي قد فعل فعله في قطاعات من شعوبنا المسلمة في آسيا الوسطى سواء في قيرغيزستان أو أوزبكستان أو كازاخستان أو غيرها من الناحية الدينية، لكن هذا حدث في طاجيكستان بشكل أقل. وكما يقول سليمان طوغان: إن كبار السن الطاجيك الذين تبلغ أعمارهم بين 80 و 85 سنة

يقولون: نعم إن الروس قد مارسوا علينا ضغوطا رهيبة لكي ننسى ديننا، لكن حقدنا ضد الكافر الروسي لم يهدأ يوما ما. كنا برغم كل شيء نقوم في منتصف الليل والروس نيام لنصلي ونقرأ القرآن.

«...إن أوزباكستان اليوم تتزعم مواجهة عودة الإسلام الجديد في وسط آسيا، ولكن هذه المرة بثوب شيوعي علماني مدعوم من العالم الغربي.

لقد انحاز المسلمون المقاتلون من «دوشنبة» العاصمة بعد سقوطها الى كفرنهان وسقطت كذلك منهم هذه المدينة بعد أن سقطت قبلها كورغان تيبيه، وحولت طاجكستان الى بوسنة وهرسك جديدة.

نفس المجازر ونفس التهجير والتشريد والاغتصاب والتخريب وهلك الحرث والنسل، فما هي نتائج هذه الهجمة الشرسة على المسلمين؟» [1]

«...أما الاستهزاء بالمقدسات فحدث ولا حرج، فقد بلغ بهم أنهم لم يترددوا في تدنيس القرآن الكريم وذلك برسم صور النساء العاريات والخنازير على صفحات المصحف الشريف. بعد أن يقتلوا من يجدون عنده نسخة من المصحف أو كتابا بالعربية أو حتى سجادة معلقة أو مفروشة منقوشا عليها شيء بالعربية أو آية قرآنية. وقد دخل الطغاة بقوة السلاح وصاح مجرمهم السفاح «سنجاق فاروق» ملوحا بسكينه الذي ذبح بها الخراف فرحا بالنصر قائلا: «هذا هو الحد بيننا وبينهم وسنذبحهم ذبح الخراف». إن طاجيكستان اليوم ممزقة لا يحفل بأمرها أحد ولا يهتم بمصير مسلميها أي جهة، فقد اعتدنا ذلك من النظام العالمي في كذبه وألاعيبه، والمؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين، أما ما نعنيه هنا هو دور العالم الإسلامي في الاهتمام بهذه القضية التي لا تقل خطورة عن قضية البوسنة والهرسك أو الصومال أو كشمير أو أي جرح آخر. فنحن الآن لا نستطيع معرفة الصيغة النهائية لما يجري في منطقة آسيا الوسطى، ولكن الذي نريد قوله أن المسلمين الطاجيك دفعوا الثمن والمؤامرة تتوالى فصولا.

---

(1) نفس المرجع.

فعلينا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه... صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة»[1].

هذا عن طاجاكستان، أما عن شعب الشيشان المسلم المجاهد فنورد منه عن مراسلة صحيفة "الشروق العربي" في مقابلة لها مع رئيسة لجنة التضامن مع شعب الشيشان في اسطنبول ما يلي:

س: ما هي الوضعية حاليا في الشيشان؟
وماذا رأيت خلال زيارتك؟

ج: بقيت شهرين في تشيتشينيا وبالذات في العاصمة ڤروزني، أين رأيت الناس يموتون تحت القصف بالآلات في صمت والعالم لا يحرك ساكنا.

النساء والأطفال أكثر الناس عرضة للموت، لأن الطائرات والقذائف الروسية موجهة بالدرجة الأولى الى المدنيين، بما أن الرجال كلهم غادروا البيوت والتحقوا بالجبهة، فان الموت يحصدهم.

الجرحى يتجاوز عددهم عدد السالمين، وهم يخشون قصف المستشفيات فلذلك لا يلجأون اليها للعلاج ويفضلون البقاء في البيوت أو المخابىء، الكثير منهم يموتون متأثرين بجراحهم.

القصف يستهدف كل بناء وكل إنسان، لم تنج المستشفيات ولا المساجد من القصف العشوائي والأعمى.

في بلدة ايدن يوم الجمعة قصف المسجد الجامع، ومات على الفور سبعون مصليا فتناثرت أعضاؤهم في كل مكان. لقد جمعنا أشلاء للضحايا لا يتعدى حجمها حجم الأصبع.

الأطفال الأحياء، في حالة نفسية سيئة للغاية، منهم من لا يستطيع النوم، انهم مرعبون، ومنهم من يبكي ليل نهار.

لقد ألقى الجنود الروس ببعض الجثث للخنازير، كما أننا وجدنا جثثا أخرى في الآبار التي منها كنا نشرب.

الهدف أن يموت جميعنا، هذا ما يريده الروس، من ينجو

---

(1) نفس المرجع.

مـن القـصف، لاينـجو من الأمـراض والجـراثيم حيث أن معظم الآبار صارت ملوثة.

س: وكيف حللتم مشكلة الماء هذه؟

ج: قضيت شهرين من فصل الشتاء هناك، وصار الناس يشربون من ماء المطر وبما أن الشتاء قارس للغاية هناك، والثلوج تتساقط بكثرة فان من الناس من يأكل الثلج وهذا ما رأيته بأم عيني.

ڤروزني المدينة الشبح، لا صوت فيها يعلو سوى صوت القنابل والبنادق، وأنين الجرحى وعويل النساء وبكاء الأطفال.

ومن أقسى ما رأيت وأثّر في كثيرا طفلة - مزالت - ذات السبع سنوات، لما رأت أمها وقد تشوه جسمها، أجهشت بالبكاء، ثم صرخت صرخة كانت فيها روحها وسقطت ميتة، وكان آخر ما نطقت به.

... آلاف المنازل هدمت عن آخرها، والكثير من الناس غدوا دون مأوى، والجدير بالذكر أن بعض البلدان المجاورة خاصة أذربيجان أرسلت بعض المساعدات، لكن الجنود الروس منعوا مرورها الى الشيشان، وكذلك يفعلون مع كل المساعدات.

ما ذنب هؤلاء المدنيين العزل، انها حرب إبادة، الهدف منه انقراض هؤلاء الشيشان الذين يعشقون الحرية، وإذا كان القتل هو الهدف، فلم التمثيل بالجثث؟ والالقاء بها في الآبار أو رميها للحيوانات؟!.

لقد رأيت رجالا مصلبين في الشوارع ورأيت رجالا يلقى بهم من الطائرات الروسية!.

إن أكثر الجنود يأتون سكارى ومخدرين الى المدنيين ليقوموا بأبشع الأفعال بعد ذلك، انهم لا يقاتلون الجنود الشيشان الموجودين في الجبال بقدر ما يقتلون الأبرياء.

س: كيف تمكنت من العودة الى تركيا؟

ج: لقد اعتقلني العساكر الروس وبعد الاطلاع على جواز سفري التركي مزقوه وتركوني وشأني فاتصلت بسفارة تركيا في ڤروزني ثم عدت الى تركيا عن طريق أذربيجان ومررت بالحدود مع تجار الفواكه.

س: وما هي حالة المنشآت التعليمية؟

ج: ثلاثة أشهر قبل الحرب، فتحت مدارس كثيرة وعدة مساجد رممت، لكن الحقد الأعمى يهدم كل شيء، البيوت، المدارس، المساجد وغيرها.

إن الروس يعلمون أن الكثير من أبناء شعبنا درس في الخارج وهم عائدون لبناء الوطن، لذا أسرع الروس للقضاء على قدراتنا، انهم منذ القديم يخافوننا ويخافون أصحاب اللحي الطويلة.

واليوم أطفالنا في شيشينا لا يتكلمون اللغة الروسية وهم يحفظون القرآن، ربما هذا هو سبب قتلهم.

أما اليوم، فكل حدود الجمهورية مغلقة، لا يخرج أحد ولا يدخل أحد.

ولم يسمح للصحفيين بالدخول اليها، حتى لا يكشفوا للعالم مدى قذارة الحرب هناك »[1].

هذا عن المسلمين داخل الاتحاد السوفياتي الشيوعي (سابقا) وروسيا الارثوذوكسية المغتصبة (حاليا) أما عن دور هذا البلد في دعم مجازر التعصب ضد المسلمين (سابقا وحاضرا) فنذكر ثلاث حالات لثلاثة بلدان هي:

ثانيا- بلغاريا:

إن ما جرى ويجري للمسلمين اليوم على مرأى ومسمع من العالم أجمع في ثلاثة بلدان (شيوعية مسيحية) هو أفظع في بشاعته، في حق الإنسانية، مما وقع للمسلمين في الأندلس قبله بخمسة قرون (كما مرّ بنا) وأولى هذه البلاد التي تكررت فيها مأساة الأندلس مرة ثانية هي بلغاريا (الشعبية).

وكشأن جميع البلاد الشيوعية (الديمقراطية) التي يكون فيها الدستور الوطني في واد والممارسة الحزبية والإدارية في واد آخر... نجد

---

(1) الشروق العربي 7 نوفمبر 1995.

أن هناك مواد في الدستور البلغاري تعترف بحقوق الأقليات ومنها المادة (35) التي جاء فيها على سبيل المثال: «يمنع ويعاقب كل من يظهر حقدا ضد أي إنسان أو يحقّره لانتمائه العرقي أو الديني...» [1] ولكن كل ذلك يظل حبرا على ورق فوق الدستور البلغاري إذا تعلق الأمر بقرارات وممارسات أعضاء الحزب الشيوعي... فالحق قد يكون فوق الجميع، ولكن قرارت الحزب الشيوعي تظل دائما فوق الحق!!.

وعن هذه الممارسات الفظيعة للتعصب الشيوعي الصليبي ضد الاسلام في هذا البلد نذكر العديد من الشواهد (الحية والحديثة) على ذلك ،منها ما جاء في تحقيق طويل بعنوان «المسلمون في جحيم بلغاريا فمن ينقذهم» [2]، جاء فيه على الخصوص: «في سبيل إبادة المسلمين الأتراك أعدت بلغاريا حوالي (26) معسكراً للتعذيب والاعتقال والبطش، وأن معظم الذين هم من أصل تركي يعيشون في غرب بلغاريا، ولذا قام البلغار بترحيل أعداد ضخمة من المسلمين الأتراك الأصل الى مناطق أخرى تسكنها الأغلبية المسيحية، كما نرى عشرات القطارات محملة بالمسلمين الأتراك الأصل المنفيين الى مناطق الأغلبية المسيحية ليصبحوا وسط مجتمع جديد عليهم، ليس فيه مسلمون ولامساجد، وليكونوا محتقرين من قبل الآخرين، وفي نفس الوقت قاموا بترحيل عدد هائل من غير المسلمين للمدن ذات الأغلبية المسلمة وبنوا فيها الأحياء الجديدة المزودة بكل مستلزمات الحضارة والعصر، ووطنوا فيها غير المسلمين، وجعلوا ذلك إغراء لغير المسلمين ليتوطنوا في المدن ذات الأغلبية المسلمة وبذلك حدوا من التفوق العددي للمسلمين، وأصبح المسلمون أيضا مضطهدين في قراهم ومدنهم، ثم قاموا باسم الاتحاد والمساواة بأخذ أطفال المسلمين ووضعهم في داخليات وربوهم بعيدا عن أهلهم ومسخوا أفكارهم ضد أهلهم وضد الإسلام والمسلمين، فكان رجال الأمن يدخلون البيوت ويأخذون البنات المسلمات ويرسلونهن للثكنات العسكرية لتسلية الجنود البلغار. وقد تم أخذ مئات النساء المسلمات من الأسر التركية وخاصة

---

(1) جريدة الشرق الأوسط العدد: 3934 الصادرة بتاريخ 1989/09/05.

(2) جريدة المجتمع الكويتية الصادرة بتاريخ 1989/07/08.

أولئك الذين رفضوا «البلغرة» فأرسلوا نساءهم للعمل في الفنادق ومراكز السياحة لخدمة السياح والترفيه عنهم... وكذلك أجبروا الشباب التركي بالزواج من بلغاريات شيوعيات، وكذلك البنات المسلمات أجبرن على الزواج ببلغار غير مسلمين، ويتم كل ذلك بالإرهاب والبطش!

وفي سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين في بلغاريا لم يتورع الحزب الشيوعي عن اتخاذ أي وسيلة تساعد وتعجل في بلوغ هدفهم.

وفيما يلي بعض الجرائم التي قام بها الحزب الشيوعي البلغاري وذلك على سبيل المثال لا الحصر:

ـ تضاعف عدد دوريات الشرطة في المناطق الإسلامية، وزاد عدد أفراد الشرطة في القرى والأحياء السكنية للمسلمين.

ـ منع الصوم! ومن يضبط متلبسا بجريمة الصوم في رمضان يسجن وينفي الي معسكرات التعذيب أو يقتل، وتفننوا في معرفة الصائمين، فقد أخبر أحد المسلمين أن مديره في العمل دائما يحتقره ويناديه يا تركي أو يا مسلم، ولكن في رمضان يستدعيه الى مكتبه ويقدم له الشاي والقهوة ويقول له: أعلم أنك مسلم لا تشرب الخمر، ولذا أقدم لك هذه المشروبات الحلال!

ـ منع المسلمون من ختان أبنائهم وتقوم الشرطة بعملية التفتيش المستمرة لمعرفة ما اذا تم ختان أي طفل مسلم ومن يوجد مختونا يسجن الوالد لمدة أقلها 5 سنوات ويقتل الختّان!

ـ كما منع الاحتفال بالأعياد الإسلامية وبالفرح في زواج المسلمين من بعضهم، وأيضا منع أي زيّ أو أي لباس تركي، وتعاقب أية امرأة ترتدي زيا إسلاميا، ولا يباع لها في أي دكان وبقالة، وهي ترتدي لباسا اسلاميا... وطبعا كل المحلات مملوكة للدولة، كانت للمسلمين مقابر خاصة في الماضي، والآن لابد لهم من دفن موتاهم مع المسيحيين والشيوعيين...

ـ يقوم رجال الشرطة بحملات تفتيش لبيوت المسلمين فجأة وبدون سابق انذار، وتستولي على أي شيء له صلة بالإسلام.

أتبع الحزب الشيوعي البلغاري خطواته النازية السابقة بأسوء جريمة يمكن أن ترتكب في حق البشرية (على غرار ما وقع للمسلمين في الأندلس) وهي تغيير أسماء المسلمين الى أسماء سلافية مسيحية. يدخل الجيش البلغاري قرية المسلمين ويفرض حضر التجول ويداهم المسلمين ويقدم لرب الأسرة قائمة من أسماء سلافية مسيحية مذكرة وأخرى مؤنثة، ويطلب منه أن يختار أولا اسما له ولزوجته ولأفراد أسرته، وبعد كل ذلك يجبر المسلم على التوقيع على قرار معد مسبقا ينص على ما يلي: «أنا لست تركيا ولا يوجد لي أقرباء في تركيا، ولن أهاجر الى تركيا أبدا، لست مسلما ومكان عبادتي ليس الجامع وانما الكنيسة والدير».

وتحت عنوان «عداء فطري للإسلام» جاء في مقال صحفي بجريدة «الشرق الأوسط» ما نصه: «إن عداء الشيوعية للإسلام عداء فطري لا يستطيعون هم أنفسهم تبريره وخاصة الحزب الشيوعي البلغاري الذي هو أسوء حزب شيوعي في العالم... فقد حكم العثمانيون ما يعرف اليوم ببلغاريا حوالي 8 قرون متواصلة، ولو حاول المسلمون إدخال البلغار في الإسلام قهرا لما وجد غير المسلمين في بلغاريا اليوم!

ولو أدخل المسلمون ثلاث أشخاص فقط في اليوم في الإسلام لأصبحت بلغاريا كلها مسلمة. وهذا الأمر سهل حيث يمكن أن يقوم به أفراد المسلمين أنفسهم وليس الحكومة... فالى عهد قريب وصلت نسبة المسلمين في بلغاريا 50٪ وذلك يعني أن المسلمين لو أرادوا أسلمة بلغاريا (بالقوة والإكراه) لفعلوا [1].

وفي دراسة طويلة بعنوان: «مأساة أندلس جديدة تتكرر وسط لا مبالاة مليار مسلم»، جاء فيها على الخصوص: «... كان الجنرال (اتناس سمرجيف) القائد العام للقوات المسلحة (البلغاري) يشرف شخصيا على كل خطوات التعبئة في الجيش ويراقبها بدقة وفي (1981/6/6) أرسل اتناس تعميما سريا لقادة الوحدات الأولى والثانية والثالثة... وكانت

---

(1) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ 1989/09/06.

أوامر الرفيق اتناس واضحة وصريحة وهي اتباع كل الوسائل لاكمال البلغرة من الاعتداء على أعراض البنات المسلمات الى قتل الشخص بالرصاص أمام أسرته وأهله عندما يرفض البلغرة...

وقد قام المسؤولون في الشعبة السياسية بعملية غسل مخ للجنود الذين يقومون بالبلغرة، وأفهموهم أن الذي يرفض البلغرة انما يخطط بالتأكيد مع جهات أجنبية لغزو البلاد ولذلك وجب قتله والتخلص منه...» [1].

وتأكيدا لهذه المذابح المتواصلة في هذا البلد لاستئصال جذور الإسلام على الطريقة الأندلسية نقتطف من خبر صحفي هذه الفقرة: «وحسب المهاجرين البلغاريين المقيمين في فيينا فإن ثلاثة بلغاريين قتلوا بمدينة (تولاراكون موفو) عندما كانت قوات الأمن تحاول اعتقال أحد رفقائهم في الدين مخلفة من جهة أخرى 4 قتلى و 7 جرحى على الأقل بمدينة (كالينوفو)، وقد نظمت مظاهرات سلمية في كل أنحاء بلغاريا احتجاجا على الإدماج بالقوة الذي تتعرض له مجموعاتهم... ولقد أكدت الوكالة البلغارية للأنباء التي لم تتحدث عن عرقية المظاهرات أن الفوضى تسبب فيها عدم تفاهم حول قانون جديد يسهل الحصول على جوازات السفر» [2].

وعن هذه العمليات الحربية الإبادية للمسلمين في بلغاريا ورد في دراسة للدكتور الفاتح على حسنين، بعنوان «أضواء على محنة المسلمين في بلغاريا» نقتطف منها على الخصوص الفقرات التالية: «... كان أول المتحمسين لمواجهة الجنرال «بوريس ديمتروف كراتيلسوف» قائد الفرقة الأولى المتمركزة في «بولوفديف» والذي قام ببلغرة المسلمين قهرا وتحت أسوأ عمليات الإرهاب والتعذيب والإبادة، فقد قام برفع درجة الاستعداد القصوى المسماة «درجة الإنذار الأحمر» في ليلة 1984/2/19 وبالإضافة الى منطقة «بولوفديف» تم الهجوم على منطقة كرجالي «قرجة علي».

---

(1) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ 1989/07/08.

(2) جريدة الشعب الجزائرية: 1989/05/16.

وقد سقط الآلاف من المسلمين شهداء وجرحى مشوهين، وكان الجيش لا يفرق بين الشيوخ والصغار والأطفال والمرضى... والنساء الحوامل وهتكت الأعراض واستمرت تلك العربدة في قرى المسلمين ليالي طويلة وبعد أن ارتوى الجنود الوحوش من دماء وأعراض المسلمين تركوا ما تبقى للكلاب المتوحشة المدربة لنهش الأجساد المسلمة... » [1].

هذا ولما لم تجد النظام الشيوعي كل هذه المجازر التي بدأ يمارسها من أوائل السبعينيات، انتهج وسيلة جديدة في عملية الإبادة (الدينية) وهي الطرد النهائي من الوطن لكل من لم يقبل التخلي عن عقيدته الدينية من المسلمين... وعن عملية الطرد الكبرى التي تمت في غضون عام 1989 تجيب (أيسية يجبر ميني) شاهدة عيان (استجويت في لندن) بقولها: «... إن هناك العديد من الأسباب والأوضاع المعقدة التي تمتد الى ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث فرض مزيد من القمع وضغوط التسلط على الأقلية المسلمة داخل المجتمع البلغاري، وطبقا لما استمعت اليه من عشرات اللاجئين المسلمين البلغار، فإن سلطات الحكم في صوفيا كانت قد بدأت في حملتها المكثفة ضدهم منذ أكثر من 25 عاما... والى أن أضيفت الى هذه الإجراءات مؤخرا حملة أخرى للتذويب النهائي للمسلمين في المجتمع البلغاري، وإجبارهم على تغيير أسمائهم التركية (الإسلامية) الى أسماء بلغارية... ولقد كان لهذه العوامل وغيرها آثارها المباشرة في أوساط المسلمين البلغار الذين فرض الحظر عليهم ممارسة شعائر دينهم، واقامة صلاة الجماعة حتى داخل مساكن بعضهم... » [2].

وعن سؤال آخر يتعلق بمدى صحة ادعاء السلطات البلغارية بأن الهجرة الجماعية هذه كانت برضاء وبطلب من المسلمين البلغار أنفسهم... نقتطف من جوابها الفقرة التالية: «إن مراسلين صحافيين محايدين أو مندوبي وكالات الأنباء العالمية يمكنهم أن يتجولوا في تلك المناطق

---

(1) عن جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ: 1989/07/08.

(2) نفس المرجع السابق.

ليشاهدوا عمليات الطرد الجماعي والأوضاع المأساوية لهؤلاء المطرودين والاستماع منهم الى الأساليب الوحشية التي تتم بها عمليات الطرد، حيث يتم انتزاعهم من منازلهم وحقولهم والاستيلاء على ممتلكاتهم العقارية والشخصية والحلي الذهبية من النساء، وحقن الأطفال بأمصال مجهولة أدت الى وفاة أعداد كبيرة منهم بعد وصولهم مع ذويهم الى معسكرات الاقامة المؤقتة داخل الأراضي التركية... إن المأساة التي يعيشها هؤلاء الآلاف من المسلمين البلغار أكثر من مشكلة سياسية، فهي وبكل المقاييس مأساة انسانية تتطلب المزيد من كشفها أمام الرأي العام العالمي» [1].

والخلاصة التي نخرج بها من محاولتنا اعطاء صورة (بما أوردناه من شهادات مختلفة) عن هذه «الأندلس الثانية» قبل الثالثة والرابعة (؟!) في تاريخ المسلمين المعاصر، هو أن الحزب الشيوعي الذي يدعي في أدبياته أن الناس يمثلون فئة واحدة، ولا فرق بين انسان وانسان إلا بالاستغلال، واذا انتفى احتكار وسائل الانتاج، انتفى الاستغلال... ويصبح العمال (أخوة) في طبقة واحدة ضد أصحاب رؤوس الأموال، وأن الدين من البنيات (الفوقية) التي لا قيمة لها، وتزول مع زوال أو تغيير البنية التحتية... كل هذا الكلام المثبت في كتاب (رأس المال) لا نجد له أثرا في الواقع البلغاري عندما يتعلق الأمر بالاسلام والمسلمين!

فهذه الأمور النظرية كلها صالحة للتطبيق مع المسيحيين واليهود البلغار، لكن ليس مع المسلمين، وكذلك عقيدة التحالف مع القوى العمالية العالمية في كل أقطار العالم صالحة وقائمة، إلا عندما يتعلق الأمر بالمسلمين البلغار! فيصبح كل شيوعي «بلغاريا قوميا وطنيا» حتى النخاع! فلا هم شيوعيون ولا هم يحزنون!! ونعتقد أن فيما أوردناه من مأساوية ما يكفي لإثبات ما توصلنا اليه من استنتاج وما أطلقناه من أحكام على هذه الحالة، والحالات الأخرى المماثلة التي ستؤكدها.

---

(1) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ: 1989/07/08.

ثالثا - إثيوبيا:

اذا كان التعصب في الأندلس سابقا وفي بلغاريا لاحقا قد اتخذ طابع العنف والقهر والإرهاب المادي والمعنوي لاستئصال العقيدة من نفوس معتنقيها... فإن ممارسة التعصب في اثيوبيا تتخذ منحى آخر غير مألوف تماما ويتمثل في الإغراء المادي والمعنوي، لترغيب المسلمين عن عقيدتهم وهذا بعد الفشل الذريع الذي يكون قد مني به النظام في محاولة القضاء على الإسلام بالطرق التقليدية التي طبقت في بلغاريا في بلدان أخرى من العالم.

ولإعطاء صورة عن هذه الأساليب المبتكرة للقضاء على الإسلام في اثيوبيا عموما، وفي أريتيريا على وجه الخصوص، نورد هذه الشهادات الحية الواردة ضمن مجموعة من التحقيقات الصحفية التي أجريت في غضون (سنة 1989).فتحت عنوان «افتراس الأطفال» جاء ما نصه: «ماذا بعد خطف البنات والأمهات! خطف الشباب! وماذا بعد خطف الشباب؟! خطف الأطفال! وماذا بعد خطف البنات والأمهات والشباب والأطفال؟! إنه خلط هؤلاء جميعا وتزاوجهم مع آخرين وإنتاج جيل جديد يقطع الطريق على كل من يفكر في عودة الوجه العربي الإسلامي...

خطفوا مجموعة كبيرة من الأطفال المسلمين في عز السنتين والثلاث سنوات... إنهم لا يدركون شيئا وبالتالي فإن التحكم في عقولهم وأفكارهم ودينهم ممكن... فهؤلاء الأطفال الصغار يتم خطفهم وضمهم الى معسكر (أولاد الزنى) ومن يصل منهم الى درجة معينة يمكن نقله، أو على الأقل وضعه في الصف الثاني من صفوف الدعوة الى الإسلام» [1].

وتحت عنوان «محلات الخمور والدعارة تحاصر المساجد» ورد ما نصه: «المعاناة في أريتيريا أشكال وألوان، إنها لا تقتصر على مجرد الخطف والاغتصاب للأجسام... إنهم يخطفون العقول أيضا... ازدادت

(1) صحيفة المسلمون عدد: 215 الصادرة بتاريخ 1989/03/17.

نسبة محلات الخمور والدعارة... بنسبة 70٪ ويكفي أن نعلم أن معظم المباني المحيطة بأي مسجد هي مباني الخمر والدعارة...

ونذكر كتابا للمستشرق المسمى (مورونرينجر) عنوانه «العالم العربي اليوم» يقول فيه: «المرأة أقدر أفراد المجتمع على جره بعيدا عن الدين وبالتالي جذبها بكل الطرق خارج البيت والى حيث الحرية المطلقة!!» [1].

وتأكيدا للنتائج المرة لهذه السياسة الترغيبية الخطيرة وردت شهادة على لسان أم خطفوا ابنتها وغرروا بابنها تقول: «زوجي منذ أخذوا سعاد أصبح كمن قسموا ظهره... يمشي منحنيا ورأسه في الأرض... وسعيد ابني لم يتحمل هذا المنظر...

شهر كامل وسعيد في فراشه حتى كان صباح ذلك اليوم الذي انتفض فيه واقفا وخرج متمتما ببعض الكلمات... لم يعد سعيد في ذلك اليوم... انتظرناه ثلاثة أيام فلم يعد وحين ذهب أبوه ليسأل عنه أحد أصدقائه وجده هناك يشرب الخمر!

لعبت الخمر برأس سعيد ولعب الأوغاد بالبقية، حملوه الى المعسكر خارج حدود أريتيريا. قالوا لنا أنه ذهب الى اثيوبيا للتدريب... بكى والده وصرخ وندب كما نندب نحن النساء وقال لي: لابد أن نرحل مع القوافل! قلت: لن نرحل من هنا! كانت رائحة سعاد وسعيد مازالت في المنزل. وكنت لا أملك في حياتي من أشياء ثمينة وغالية سوى هذه الرائحة... قال لي زوجي: اذا أتت سعاد ستموتين من الحسرة، واذا أتى سعيد ستموتين بالسلاح!

قلت: لعلها الحمى أصابته أو لعله الجنون! كيف أموت بالحسرة اذا عادت لي ابنتي وكيف أموت بالسلاح اذا عاد لي ولدي؟!

قال زوجي: اذا عادت سعاد فستعود امرأة بلا زوج، واذا كان معها زوجها فسيكون زواجهما باطلا لأن زوجها في هذه الحالة من غير

---

(1) صحيفة المسلمون عدد: 215 الصادرة بتاريخ 1989/03/17.

ملتنا! صرخت وأنا أسمعه يقول: انسيها وأمرك لله... وصرخت ولطمت وجهي وهو يقول لي أن سعيدا اذا رجع وهو بالتأكيد سيرجع بعد 8 أشهر سيرفع السلاح في وجهي، وسيخيرني بين أمرين، إما أن أذهب معه اليهم وإما أن يقتلني.

صرخت وقلت: سعيد لا يمكن أن يفعل ذلك!

قال لي: اذا لم يفعل ذلك سيطلقون عليه الرصاص مثلما أطلقوه على جمال ابن عبد الكريم عمر! »[1].

وفي تحقيق آخر جاء على لسان أحد الشبان الفارين من معسكرات التدريب تحت عنوان «شاهد عيان»: «في أحد الفنادق المتواضعة في مدينة كسلا السودانية التقيت به... قالوا لي أنه عائد لتوه من جحيم العنصرية:

ـ سألته فأجاب: اسمي خليفة وعمري 20 سنة...

ـ هل تعرف سعيد ابن آدم بخيت؟

ـ نعم، أعرفه وأعرف أخته سعاد!

ـ ماذا تعرف عنهما ؟

ـ سعيد اندمج معهم بعد أن تخرج من مركز التدريب... لقد كنت معه أخذوني في نفس اليوم الذي أخذوا فيه سعيد منذ أول يوم وأنا أفكر في الهروب من المعسكر لأنني كنت أعلم أنهم سيقومون بتدريبنا على حمل السلاح!

ـ متى هربت؟

ـ هربت منذ 3 أشهر وكنت مكلفا بإتمام عملية نزع لإحدى قريباتي لكنني بدلا من العودة اليهم بها هربت بجلدي!

ـ وهل يمكن الهروب بهذه السهولة؟

ـ إنهم يقدمون لنا هناك كل شيء بدءا من الرغيف ونهاية بالسجائر والمشروبات وكل شيء، وبصراحة عندهم كل شيء متوفر ويوزعونه علينا بالتساوي ويعالجوننا اذا مرضنا واذا رغبنا في الزواج يزوجوننا!

---

(1) صحيفة المسلمون عدد: 216 بتاريخ: 24 /1989/03.

ـ لماذا لم تستمر معهم؟
ـ كيف أستمر وأنا أرى خطتهم واضحة!
ـ أي خطة؟
ـ خطة محو كل ما له علاقة بالإسلام من قول أو فعل!
ـ ومن أين أتوا بهذه الإمكانيات... الأغذية والسجائر والأدوية؟
ـ في كل شهر تأتي إليهم البواخر المحملة من الغرب!
ـ من قال لك ذلك؟
ـ تستطيع أن تذهب بنفسك وترى البواخر التي تنتظر دورها في التفريغ... وبصراحة لقد تمكنوا من ضم الآلاف من المسلمين بسبب توافر الأغذية والأدوية وتوزيعها وعدم سرقتها!
ـ هل صحيح أنهم يزوجون الفتيات المسلمات من شباب مسيحيين؟!
ـ نعم، واذا كنت غير مصدق فاسأل الأخوة كلهم محمد سعيد وآدم وفارس وصالح وعموما معنا شريط فيديو تستطيع أن ترى فيه بنفسك!
ـ أرى ماذا؟ ترى فضائح وجرائم ترتكب في حق المسلمين!
يبدأ شريط الفيديو بحفل صاخب تبدو فيه الفتيات المسلمات شبه عاريات... عرفت أنهن مسلمات من وجوههن التي تبدو آثار (الوشم) واضحة عليها وغير المسلمات لا يفعلن في وجوههن ذلك، بعد ذلك يتولى أحد كبارهم التعريف بالزوجات المسلمات وأزواجهن المسيحيين فيقول: هذه فاطمة زوجة دانييل وهذه حياة زوجة ملاك، وهذه زينب زوجة رياض وهذه حليمة زوجة الياس...»[1].

وعن التمييز الفاضح الممارس ضد المسلمين في هذا البلد لحساب المسيحيين رغم أن الدولة في ظاهرها تدّعي الشيوعية، التي تساوي بين الأديان (نظريا) كما أسلفنا، نورد هذه الشهادة: يقول عمر الحاج ادريسي: «كانت نسبة رجال الشرطة المسلمين في ادارة الأمن 3٪ من تعداد 13 ألف شرطي. أما الموظفون المسلمون في المكاتب الحكومية فنسبتهم لا تزيد عن 6٪ من تعداد 24 ألف موظف.

---

(1) صحيفة المسلمون بتاريخ 1989/03/24.

أما المعلمون المسلمون في المدارس الإسلامية، فكان عددهم 312 من جملة 13 ألف مدرس مسيحي وإضافة إلى ذلك التصريح لحوالي 12 مؤسسة تبشيرية للعمل في صفوف المسلمين وضمنها كلية اللاهوت، والكليات المهنية وكليات المعلمين والتأهيل للتمريض للنساء والرجال والمستشفيات للعجزة ومستشفيات الولادة... »[1].

ولإعطاء صورة عن تحالف الشيوعية الصليبية في هذه العملية (الاستئصالية) المتعصبة ضد الإسلام والمسلمين في أريتيريا والتي تتراوح ما بين طرق الترغيب الدينية التي تثبتها الشواهد الحية السابقة... الى الطرق التقليدية المعروفة، ولإثبات هذا التحالف الثنائي الشيوعي الصليبي الذي يستبيح كل شيء، وكل وسيلة، نورد هذه المقتطفات من مقال بعنوان «سقوط الشيوعية» جاء فيه على الخصوص: «حاولت المنظمات الأريتيرية الشيوعية والصليبية، بحكم إسلام شعب اريتيريا وتمسكه بدينه، اذابة هذا الشعب والقضاء على دينه وهويته من خلال افساد وإفشاء الفساد في العادات والتقاليد الإسلامية.

انتزعوا كثيرا من الفتيات والنساء المسلمات انتزاعا الى معسكرات الاستمتاع العسكرية، ليعتدى عليهن جنسيا بواسطة الجنود ثم استثمار أبناء الزنى لتغيير معالم وهوية الشعب المسلم!

هذه المعسكرات ما زالت مفتوحة وتخطف المئات من البنات المسلمات، لم يرحموا حتى الأطفال المسلمين... فاختطفوهم من ذويهم، غيروا أسماءهم الى أسماء مسيحية، ومنع الشيوعيون المسلمين من أداء الصلاة في المساجد... انتزعوا المكروفونات حتى لا يعلو صوت الآذان!

وبعد خروج النظام الشيوعي من الساحة الأريتيرية بعد أن انكشف وجهه القبيح ظل النظام الصليبي سيد الساحة الأريتيرية، يعبث فيها كما يشاء باسم الجبهة الشعبية، هذا النظام العاتي تمركز في منطقة الساحل الشمالي، وهي منطقة إسلامية خالصة، وذلك لاستراتيجيتها العسكرية

---

(1) صحيفة المسلمون بتاريخ 1989/03/24.

والاقتصادية والسكانية... وباعتبارها تطل على البحر الأحمر مباشرة، أدى تمركزهم في هذه المنطقة إلى الاستيطان الصليبي في المنطقة، فغيروا معالمهامن منطقة إسلامية إلى منطقة صليبية... هدموا المساجد وأغلقوا المدارس والمعاهد وأعدموا الكتب الإسلامية وفرضوا على الناس دراسة اللغة الحبشية بدلا من العربية، واستولوا على الأطفال والنساء والفتيات... أسكنوهم في معسكرات خاصة في أرمويا وعولى، وطحرة وهبرة ونارو ونورا حبب.

طردوا الرجال بقوة السلاح من المنطقة الإسلامية... أفرغوها من الرجال... غيروا أسماء وجهات الوديان والجبال والأنهار الموسمية والقرى بأسماء مسيحية، وبنوا مستوطنات جديدة جلبوا اليها المسيحيين من المرتفعات[1].

وهكذا سيظل الصراع محتدما في هذا البلد بين الإسلام من جهة، والصليبية الصهيونية من جهة أخرى، رغم استقلاله أخيرا عن اثيوبيا، بمقتضى الاستفتاء على تقرير المصير الذي جرى في شهر مارس من سنة (1993)! ولن يزول الصراع الا عندما يتغلب جانب الحق على الباطل كلية فيمحقه محقا وهذا لا يتحقق بدون وعي واتحاد.

ثالثا : مأساة البوسنة والهرسك
أفظع جريمة ضد البشرية عرفها تاريخ التعصب

اولا : عقيدة البوسنيين وأصولهم العرقية:

أخذت قبائل سلافية تغزو مناطق إليريا في غضون القرن الأول الهجري، حتى قضت على الإليريين إلا في المناطق الجنوبية، حيث ينحدر منهم الألبانيون اليوم. وكانت القبائل السلافية تنقسم الى مجموعات،

(1) انظر دراسة مطولة منشورة في مجلة «رسالة الجهاد» الصادرة في شهر يونيو 1990. تحت عنوان «اثيوبيا والمطامع الصليبية ـ الصهيونية».

منهم: البوسنيون، والصرب، والكروات، والمقدونيون، بينما انتشر السلافيون الآخرون في مناطق أخرى من أوروبا، وهم: الروس، والأوكرانيون، والبولونيون، والتشيكيون، والسلوفاكيون، والبلغاريون. فاعتنق السلافيون الذين غزوا المناطق التي هي تحت حكم روما المذهب النصراني الكاثوليكي وهم السلافيون، والكروات، بينما اعتنق الذين كانوا تحت حكم القسطنطينية المذهب النصراني الأرثوذكسي، ورفض البوسنيون الذين كانوا يعيشون على حدود الامبراطوريتين الرومانيتين (الشرقية والغربية) اعتناق أي من المذهبين وبقوا على الديانة المسيحية الموحدة الأصيلة التي كانت تسمى "بالبوغوميلة" وكونوا مملكة البوسنة المستقلة.

فتعرضت هذه المملكة الى غارات الصرب الأرثوذكس من جهة وغارات الكروات والمجر الكاثوليك من جهة أخرى، وكل منهما يريد ارغامهم على اعتناق مذهبه.

ثانيا: كيف وصل الإسلام الى البوسنة؟

وصل الإسلام لهذه الديار أول ما وصل عبر التجار المسلمين قبل أن تفتح الدولة العثمانية منطقة شبه جزيرة البلقان، فلم يكن اعتناقهم للمذهب البوغوميلي (الذي لا يؤمن بالتثليث ولا يعتقد بألوهية المسيح عليه السلام) حائلا دون اعتناقهم للإسلام.

وبدخول الدولة العثمانية المسلمة شرق أوروبا بفتحها فانيبلوسة (1353م) وانتصارها على الجيوش النصرانية المتحدة (بيزنطا، صربيا، بلغاريا) ثم في معركة قصوة (1388م)، ثم ضمهم لجميع الأراضي الصربية للدولة الإسلامية، ثم فتحهم بلغراد (1452م) (أي سنة واحدة قبل فتح القسطنطينية). وقف العثمانيون على أبواب مملكة البوسنة واحترموا حدودها لموقفها الطيب من الدولة العثمانية ومن المسلمين بصفة عامة.

لكن الكاثوليك سيطروا على الحكم في مملكة البوسنة ونصبوا ملكا كاثوليكيا، عمل على إرغام الأهالي البوغوميليين على اعتناق مذهبه بالقوة، فشرد الأهالي، وقتل العديد منهم، فتوافد المهاجرون البوسنيون على الأراضي العثمانية مستغيثين، فقرر السلطان محمد الفاتح نجدتهم بتحرير بلادهم سنة 1463م وأعلن حرية العقيدة للجميع [1].

ثالثا: دور مسلمي البوسنة والهرسك في حماية الوجود الإسلامي:

وعندما تعرف البوسنيون على مبادىء الإسلام رأوا فيه الدين الحق، فاعتنقوه زرافات ووحدانا في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر الميلادي الى أن أصبح معظمهم مسلمين فأصبحوا الدرع المثالي الحصين للدولة العثمانية وبرز منهم كثير من الوزراء والقواد والعلماء.

وجدير بالذكر أن بلاد البوسنة استقبلت قوافل من المهجرين الأندلسيين بعد طردهم سنة 1610م خاصة من منطقة أراغوان بشمال شرق إسبانيا، كما حاربوا في جيوش المنصور بن أبي عامر بالأندلس، وكانوا يسمون بالسقالبة. ومنهم الأمير مجاهد ملك دانية أيام دول الطوائف. وأسس البوسنيون المدن الجميلة ذات الطابع الاسلامي بعد اسلامهم منها سراييفو (عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك) وطوزلة، ومستار [2].

ونعرض فيما يلي صورا لهذه المأساة الفظيعة كما وردت على ألسنة وأقلام الصحافيين والمحققين والضحايا أنفسهم، ونعتذر للقارىء على هذا السرد الطويل الذي يتضمن عدة نصوص وتفاصيل نذكرها كما وردت لتبقى شاهدة للتاريخ.

---

(1) صحيفة الراية (المغربية) الصادرة بتاريخ 7 أغسطس 1992.

(2) نفس المرجع.

تحت عنوان:

«جثث المسلمين تملأ الشوارع في البوسنة»

ورد في صحيفة (الراية المغربية) ما نصه: «... عندما وصلت الى قرية «جورنية توليبه» على نهر سافا بجمهورية البوسنة والهرسك، كان الوقت عصرا، وكانت روائح الجثث المتعفنة تفوح من كل مكان فيها. من بين الأشجار التي حولتها قذائف الصرب الى أكوام من الورق المحترق، ومن داخل حطام البيوت التي تحولت إلى أطلال، ومن داخل المسجد الذي تهدم على من فيه، ولم يبق إلا المنبرولوحة تحمل اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وساعة حائط توقفت عقاربها عند الزمن الذي بدأ فيه الصرب مذبحتهم.

لم يكن قد مضى على هذا الوقت أكثر من 24 ساعة، عندما دخلت عصابة الشتنك، وهي قوات الميلشيات الصربية، لتوجه نيران مدفعيتها الثقيلة أولا إلى المسجد، حيث كان وقت الصلاة، وكانت المئذنة منذ قليل ترفع نداء «الله أكبر»، وفي ثوان حصدوا كل المصلين، ثم انهمكوا في التمثيل بجثثهم، يسكبون عليها زجاجات الخمر التي يحملونها، ويرسمون بالسكاكين على الأجساد الطاهرة صلبانهم!

ومن المسجد توجهوا الى المدرسة التي تضم أطفالا لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، وصوبوا عليهم الرصاص أيضا دون أن يعبأوا بصرخاتهم البريئة، وفي خلال ساعة واحدة، أصبحت القرية المسلمة كتلا مشتعلة من النار، لم يبق بيت إلا وقد ذبحوا كل من فيه بالسكاكين، لم يرحموا طفلا حديث الولادة، أو امرأة تستغيث، وليس لها مغيث إلا الله، أو رجلا مسنا يعد أيامه الباقية.

ها أنا وسط القرية بعد ساعات فقط من المذبحة، سكانها إما لبسوا أكفان الموتى، وإما أن جثثهم لا تزال ملقاة في أماكنها لأنه ليس هناك أكفان كافية لهم!

سقطت آلة التصوير من يدي، وانفجرت في بكاء حاد، وارتعش جسدي (بشدة) الأمر الذي لفت نظر الصحفي الكندي «ستيف» ويعمل مراسلا لإحدى وكالات الصور، فلامني بشدة لأن عاطفتي تغلبت على واجبي المهني في هذه اللحظة نظرت الى زميلي في الرحلة المخرج التلفزيوني شكر الله خلف الله مندوب مكتب النمسا وشرق أوروبا بالهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية فوجدته مثلي تماما، نحى كاميراته التلفزيونية جانبا، وانهمك في البكاء!

اختفت معالم الحياة من القرية، ولفها صمت موحش لم تبدده طلقات المدافع التي تنطلق من الدبابات الصربية الرابضة في مواقع قريبة، خطفت كاميرتي ناحية ما تبقى من المسجد، فاذا بي بقائد من الكروات المتحالفين مع المسلمين يصرخ في وجهي: توقف أيها الأخ، إنك تعرض نفسك وتعرضنا جميعا للضرب، بالقناصة، على مرمى منك!

توقفت أمامه مذهولا للحظات، خاصة أنه هددني بالضرب إن لم أمتثل لأوامره... وركبت رأسي، وقال لي توقف عن التصوير تماما، وستحملك السيارة التي جئت بها الآن، الى المكان الذي أتيت منه.

وأخذت أستعطفه، لقد قطعت آلاف الكيلومترات، وركبت المخاطر لأنقل هذه المأساة إلى العالم الاسلامي، اطمئن أيها القائد، سأسرع في مهمتي، وسأنهيها في وقت قصير، ولن أسبب لكم المشاكل، وهنا تدخل ضابط مسلم مسؤول وهو سليمان بها روفيتش، وقال للقائد الكرواتي: دعهما يدخلان المسجد كما يريدان، سأذهب لتوجيههما، ولن يطول الأمر أكثر من خمس دقائق.

ودخلنا ـ أنا والمخرج شكر الله ـ فوجدنا جثث القتلى متراصة فوق السجاد المحترق، ووجدنا صعوبة كبيرة في تفاديها ونحن ننتقل بين أركان المسجد المدمر، ويبدو أن قناصا صربيا رصدنا في هذه اللحظة، فأطلق علينا قذيفة استقرت على بعد أمتار قليلة منا، هنا أمرنا سليمان بأن نخرج بسرعة، ونختفي وراء أحد الجدران الباقية، وخاصة أن أصوات طلقات متتالية سمعت بعد ذلك.

قائد قوات الدفاع المحلي لمنطقة «بوسنسكي برود» والتي تتبعها تلك القرية التي شهدت المذبحة المرعبة، الجنرال «إيفين بريست»، وهو كرواتي كاثوليكي، صحبنا الى جزء آخر من القرية ودخل بنا الى بعض البيوت، جثث أسر كاملة ذبحت وشوهت معالمها، رجل شاء الله ألا يكون في القرية عندما حدثت المذبحة، وقف أمام بيته مذهولا لا يصدق، ذبحوا أمه العجوز وزوجته وطفله الصغير الذي مضى على ولادته خمسة أشهر، كان الرجل يحمل في يده زجاجة الرضاعة التي كانت في فم الطفل عندما ذبحوه، والطاقية التي كانت فوق رأسه، حاولت أن أكلمه فلم يرد سوى بقطرات الدموع التي انسابت على وجهه [1].

وتحت عنوان:

«مسلمو البوسنة يذبحون بالسكاكين للشواء»

ورد في صحيفة (الخبرية) ما نصه: «... يقول شهود عيان نجوا من سكاكين وأسلحة العصابات الصربية وجنود الصرب من الجيش النظامي اليوغسلافي السابق الذي يدعمهم؟ أن اعضاء تلك العصابات قاموا ولا زالوا يقومون يوميا بإحراق المسلمين في مساجدهم وبيوتهم، في مناطق جنوب شرقي البوسنة.

وأضافوا في أقوالهم في المركز الإسلامي في زغرب ومعسكرات اللاجئين في ضواحي المدينة ومناطق قريبة من جبهة القتال على الحدود المتاخمة لكرواتيا، ان الصرب كانوا يمثلون بالقتلى المسلمين بعد ذبحهم بالسكاكين ويقطعون بها ابدان النساء بعد الاعتداء عليهن ويبقرون بطون الحوامل للتمثيل بالأجنة ويقطعون أعضاء الرجال الأحياء ...!

وبهذا أعاد التاريخ نفسه في البوسنة والهرسك في هذه الأيام تتكرر أحداث الحرب العالمية الثانية... ان المسلمين يتعرضون للمذابح

---

(1) صحيفة الراية (المغربية) الصادرة بتاريخ 07 غشت 1992م .

على أيدي الصرب «لا لشيء إلا لأنهم مسلمون» كما قال عجوز نجا من تلك المذابح ولجأ إلى المركز الإسلامي في زغرب بعد أن فقد كل شيء في وطنه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع عندما شاهد الوفد الإسلامي الأخير الذي حضر في بداية هذا الأسبوع للاطلاع على أحوال اللاجئين المسلمين من البوسنة والهرسك في كرواتيا المجاورة.

وقد تنهد الشيخ وقال بصوت خافت: «الحمد لله» وهو كل ما نطق به ثـم عـاد لينـكب الى جانب جهاز المذياع الذي كان بجانبه ملصقا رأسه به لسماع الأخبار وتتبع أحوال إخوانه الذين يواجهون الجحيم في وطنه المفقود.

ويقول شهود العيان القلائل الذين نجوا من المذابح الصربية ومعظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال ان الرجال والشبان يفرون بأسرهم وآبائهم إلى كرواتيا ثم يتركونهم بمعسكرات اللاجئين ليعودوا ثانية الى جبهات القتال في البوسنة والهرسك. ان الصرب كانوا خلال الحرب العالمية الثانية يذبحون المسلمين ويرسلون برؤوسهم هدية إلى أمرائهم وقادتهم.

وأعاد لاجيء مسلم عاصر تلك الأحداث إلى الأذهان أن كتيبة صربية من الشتنك كانت قد دخلت مدينة «فوتشا» البوسنية يوم عيد الأضحى سنة 1942م وأخذ قائد الكتيبة مفتي المدينة ولبس سنابك الخيل على رجلي المفتي بالمسامير، ثم ركب ظهره إلى المسجد قائلا: هذا أول قربان في هذا العيد! وقد جاء الآن دور أبناء أولئك الصرب ليقتفوا آثار آبائهم... وها هم يعاودون الكرة بعد أن أعدوا العدة لمعركة تاريخية مقدسة مع المسلمين كما يسميها الصرب!!.

ولم يسلم مسجد في مدن مسلمة أو ذات أغلبية مسلمة في البوسنة والهرسك من دنس أو تدمير في الحرب العنصرية الصربية ضد المسلمين والتي تشتعل الآن منذ أكثر من شهر وفي تصعيد مستمر وخطير. وقد ظهر على أشرطة فيديو هرّبها مقاتلون أن أعلاما صربية علقت على المآذن بعد تدنيس المساجد وبدل الآذان سمعت عبر مكبرات الصوت اشرطة القساوسة وهم ينشدون في الكنائس.

وقـد سمـيت هـذه الجرائم والمذابح البشعـة بـ «الفتح والتحرير وإنقـاذ الصـرب المهـددين من ضغوط المسلمين الأصوليين» على حد زعم الصرب!!» [1].

وتحت عنوان:

«شاهد على المأساة في البوسنة والهرسك»

ورد على لسان شاهد عيان آخر لصحيفة (الجزائر اليوم) ما نصه:
«... في صباح اليوم التالي نزلنا من الثكنة العسكرية لمدينة «بوسنسكي برود» التي قضينا فيها ليلتنا الى شارع فسيح أمام المبنى، حيث تم تجميع ضحايا مذبحة جورنية توليبه، ووضعوا كل مجموعة في نعش، وقفت امرأة وقد افلتت من الذبح لأنها لم تكن في القرية وقت المذبحة، جاء عالم دين شاب، ووقف أمام الصفوف التي حبست دموعها، يشرح لهم كيفية صلاة الجنازة وبعد ذلك دخل الجميع في الصلاة، وأقبلت سيارتا نقل كبيرتان لتحملا الجثث إلى مثواها الأخير.

القتل على الهوية يجري في جميع مدن البوسنة، وقد رفعت الميليشيات هذا الشعار عندما اكتشفت أن الكثيرين تخلصوا من هوياتهم حتى لا يذبحوا، فكان القرار هو إجبار الرجال على خلع الملابس ليتحققوا من هويتهم فاذا كانوا مختتنين فهم مسلمون، وقد طبقوا هذه الطريقة في مدينة بيلينا الواقعة على الحدود مع صربيا، فذبحوا كل من قبضوا عليه ورسموا على جثثهم الصلبان بالسكاكين!!

وفي أحد المساجد بالمدينة، انتظروا المصلين على باب المسجد، واختاروا اثنين منهم وذبحوهما، ثم أمطروا الباقين بالرصاص، وبعد ذلك بثوا في المئذنة ترانيمهم الأرثوذكسية، ووصل عدد الفارين من هذه المدينة وحدها 40 ألف مسلم...!!

---

(1) مجلة الخيرية، الصادرة في يونيو 1992 .

وتركز الميليشيات الصربية والجيش اليوغسلافي الذي يساعدها الهجوم على المدن الحدودية وهي «زورنيك، وفوتشا» لتوسيع المنطقة التي اقتطعوها من البوسنة والهرسك، وأعلنوها جمهورية مستقلة للصرب، وذلك تمهيدا لضمها الى يوغسلافيا الجديدة التي أعلنت مؤخرا والتي تضم صربيا والجبل الأسود، ولم يسلم مسجد في هذه المدن من التدمير، وتسمع عبر المآذن أنا شيد بأصوات القساوسة الأرثوذكسية...!!!

وفي كل منطقة تسيطر عليها الميليشيات الصربية، يقام معسكر للسبايا المسلمات اللاتي لم يستطعن الهرب، وقد أصدرت كنائس الصرب، فتوى تبيح هؤلاء النساء لكل من يدين بالديانة المسيحية الأرثوذكسية وأرسلوا بعض هؤلاء النسوة الى مناطق المسلمين، وهن يعانين من الأفعال الوحشية، ومنها تقطيع أثدائهن...!!

وفي مستشفى سلافونسكي برود قابلت الذي حضر مذبحة قرية «جورنيه توليبه» وكان الوحيد الذي نجا منها بعد إصابته بإصابات بالغة، اسمه «أنس بن مالك» وهو زعيم القرية تحدث بصعوبة قائلا: «إنه عندما انطلق العدوان الصربي من المنطقة التي يقطنونها والمحيطة بمدينة (بوسنسكي برود)، قامت قوات الدفاع المحلي برد الهجوم ومحاصرة المعتدين حتى منطقتهم، فهرب بعض من فيها الى قريتنا، فقمنا باستقبالهم، وأدخلناهم بيوتنا، وألبسناهم ملابس غير ملابسهم، ثم قمنا بتهريبهم الى منطقة صربية أخرى اعتقادا منا أنه لا ذنب لهم في العدوان الصربي الذي انطلق من منطقتهم، وإنهم من الصرب المعتدلين، وكانت المفأجاة في اليوم التالي، أن هؤلاء الذين أنقذناهم كانوا على رأس الميليشيات التي ارتكبت المذبحة، وكان أول بيت يذبحون أصحابه هو البيت الذي استضافهم وتناولوا فيه الطعام وارتدوا الملابس...!!

... ويقول الدكتور «ليمان أوغليانين»: إن البرنامج القومي الصربي الذي تم إعلانه عام 1844م، تجدد مؤخرا في برلمان صربيا، حيث صدر مرسوم يدعو إلى تطهير سنجاق والبوسنة والهرسك وكوسوفو من

المسلمين والكاثوليك، وكذلك فإن الادعاء بأن المعارك التي تدور في البوسنة والهرسك، هي معارك بين طوائف متطرفة، ادعاء غير صحيح، لأن الهجمات الصربية الوحشية تجد سندا قانونيا يدفعها من الهيئة التشريعية لصربيا، وتدرس في المدارس الصربية الابتدائية ملحمة شعرية باسم «أكليل الجبل»، كتبها أرثوذكسي متعصب تقول:

«سلك المسلمون طريق الشيطان، دنسوا الأرض، ملأوها رجسا، فلتسعد للأرض خصوبتها، ولنطهرها من تلك الأوساخ، ولنبصق على القرآن، لنقطع رأس كل من يؤمن بدين الكلاب ويتبع دين محمد، فليذهب غير مأسوف عليه»، وكل من يرتكب المذابح الآن درس تلك الملحمة وهو طفل، وتم إشباعه بمنطق الذبح وهو شاب من خلال قساوسة الكنائس الصربية، فقد ألقوا في روعهم أن الذبح غرض إلهي وفاء للذين عذبهم الأتراك العثمانيون، وانتقاما لهم، وقد مضت قيادة صربيا في زرع هذا الحقد لدرجة أنها أحيت مؤخرا ذكرى هزيمتها في كوسوفو على يد الأتراك العثمانيين، ودعت سفراء الدول المعتمدين في بلغراد لحضور هذه المناسبة، فلم يحضر إلا السفير التركي! واندهش الجميع أن تحتفل دولة بذكرى هزيمتها التي مضى عليها 660 عاما ولكن من كان يعرف لم يبد هذه الدهشة، فالاحتفال لم يكن إلا رسالة موجهة للصرب...!

حتى كرواتيا عندما استقلت عن يوغسلافيا، أعطت جنسيتها للكاثوليك المقيمين فيها، أما سكانها من المسلمين الذين يحملون الجنسية اليوغسلافية فاعتبرتهم أتراكا أجانب، ولم توافق على إعطائهم الجنسية إلا أن يقروا بأنهم كروات، وكروات تعني عندهم الديانة الكاثوليكية...!

أكتب هذا الكلام من البوسنة والهرسك، وقد توقفت رحلتنا على بعد مائة كيلو متر من «سراييفو» العاصمة، وأصبح من المستحيل بعد ذلك أن نتقدم خطوة واحدة، فكل الحواجز التي أمامنا صربية والعاصمة تقع تحت الحصار الشامل، الغذاء والدواء ممنوعات من الدخول اليها لدرجة أن الأمم المتحدة اشتكت بأن الصرب يستولون على شاحنات الإغاثة التي ترسلها، ويهددون السائقين والمشرفين بالقتل اذا لم يذعنوا لذلك...

الهاربون من «سرايـيفـو» قالوا أن كل شيء هناك يدمر خاصة المساجد، والأحياء العثمانية والتاريخية، ومباني الأوقاف، وأن شبح الموت جوعا يخيم على الذين بقوا هناك، هذه صيحة إغاثة أطلقها لكل مسلم... هذه أندلس جديدة تضيع، وهؤلاء أخوات لكم يغتصبن ويدنس شرفهن، واخوة يذبحون كالخراف، فهل من مغيث؟

هذه جمهورية مسلمة تضيع، أغيثوها لكي لا تبقى ولا تعتمدوا على الإغاثات الأوروبية وحدها، فهناك خط رجعة في موقف هذه الدول من البوسنة والهرسك، واسألوا أنفسكم: هل من الممكن أن يسمح العالم المسيحي بقيام دولة مسلمة تلاصقه في وسط أوروبا....؟!!

أكتب هذا الكلام، وجسدي لا يزال يرتعش والدموع لا تزال تبلل وجهي، وما زلت في حالة ذهول غير مصدق لما رأيت، أيمكن أن يحدث هذا، وفي زمن يتحدثون فيه عن حقوق الإنسان؟!!!» [1].

وتحت عنوان:

«لقد اغتصبنا كلنـــــا»

ورد في صحيفة (الزئبق) ما نصه: «تعرض كاتبة هذه المقالة (ميراندا سيدران) مأساة اغتصاب المسلمات البوسنيات، الاغتصاب الذي لم تنج منه أيضا الكرواتيات وإن كان يستهدف بالدرجة الأولى النساء المسلمات نتيجة الخلفية التي يتحرك بها الصرب، تبدأ الكاتبة بالإشارة في مطلع مقالتها الى أنه «ليس من السهل الاستدلال على وجود ظاهرة الاغتصاب الجماعي» لا لأنها غير موجودة كما قد يتبادر الى الأذهان، ولكن لأن النساء المغتصبات إما أنهن يقتلن ـ كما تذكر صاحبة المقال نفسها ـ أو لأن «معظم الناجيات (من القتل بعد الاغتصاب) يحفظن مصائبهن ـ كما يقول الدكتور محمد سيتيتش رئيس شعبة الأمراض العصبية النفسية بمستشفى زنيتسا ـ لأنفسهن إما من جراء الخوف أو

---

(1) صحيفة (الجزائر اليوم) الصادرة في 20 أفريل 1993م.

العار... كما أن العائلات تتكتم الاغتصاب لتوفر المرأة كلاما لا يليق بمرتبتها الاجتماعية أو لتحفظ السر عن زوجها».

ليس من السهل الاستدلال على وجود ظاهرة الاغتصاب الجماعي! إنهم يقتلون النساء أليس كذلك؟!.

أصبحنا نناقش، نتكلم بهدوء ونتساءل كم عدد ضحايا الاغتصاب في وطننا؟ فنتساءل هل العدد يتجاوز 30 ألفا أم 50 ألفا؟!.

وأنا أتساءل كم عدد النساء بالجملة في دولتنا؟ كل هذا التساؤل من أجل إيجاد الجواب على السؤال المطروح كم عدد المغتصبات إجمالا؟ لقد اغتصبونا كلنا! لو اغتصبت منا خمس نسائنا، لقلنا انهم اغتصبونا كلنا.

ولم نعد نتساءل لماذا يفعلون بنا هذا؟! نعلم ذلك، نعلم أن الاغتصاب جزء من سياسة التطهير العرقي أو بتعبير أدق، جزء من الاستراتيجية الحربية الصربية أو الإبادة الجماعية. لقد أرادوا إزالة شعبنا: روحا وجسدا، بممارسة أبشع أنواع التعذيب حتى يستأصلونا! لقد مكروا مكرهم!.

لقد عرف العدو أن هذه الطريقة تعذب الروح والجسد لذلك أمر جنوده بالاغتصاب.

إن الشهادات العديدة للمجرمين الذين أسرهم المسلمون تؤكد وجود خطة صربية مدروسة جيدا للإبادة الجماعية.

إن المجرمين الأسرى في جميع مناطق البوسنة والهرسك اعترفوا بصراحة. لقد أمروا بالاغتصاب، غير أنه في بعض المناطق لم تكتف بأمر الجنود بتنفيذ أمر القيادة... بل رغبتهم في الاغتصاب بدعوى أنه يقوي الأخلاق.

قبل أيام، صرح صربي شجاع فخور (؟) للتلفزة البوسنية:

«لقد اغتصبت فتيات عمرهن يتراوح بين 6 سنوات و 16 سنة».

«لقد كانوا يضحكون عليها - تقول فتاة من رزوا نوفيتشي (RIZVANOUVICI) لقد كانوا يضحكون لأنها كانت بكرا: «أنت فتاة جيدة، لقد كنت تحصنين (فرجك) لنا»! فتاة .س. عمرها 20 سنة من نفس

القرية، أخذوها مع 400 امرأة الى بيت جارها، قالت: قال لي: «اخلعي ثيابك (....)، لقد اغتصبني من جديد! وقبل أن يبدأ نظرت الى عينيه وسألته: هل أنت متزوج؟ قال: لا! قلت له: هل لك أخت؟ قال: عندي أخت واحدة! سألته عن أخته لو فعل بها هذا كيف يكون شعورها؟ تأثر بكلامي وقال: البسي ثيابك ثم انصرف! لقد قيل لهم إن اغتصبتم ستصبحون مقاتلين أشداء!»

ولما كانت الشجاعة من صفاتهم (؟)... كانوا يجرون نساءنا من جبهة القتال إلى الأخرى كانت آلامهن تنتهي عندما يقتلونهن. وبعد شهر كامل من التعذيب، بعد اغتصاب وضرب، (وكانوا يجرون عبر المدن: «برتشكو، مايويتسا، زوورنيك، براتوناك، هان بيسال، سوكولاتسي») كانوا يتبادلونهن كالأسرى. والحكاية التي تشمئز منها النفوس حدثت في سراييفو: لقد أخذ الصرب من غرباويتسا ـ أحد أحياء المدينة ـ كل النساء المسلمات والكرواتيات، أخذوهن، وأجبروا أبا على اغتصاب ابنته أمام بنته الثانية وزوجته.

سمع أحد الهاربين من غرباويتسا على الساعة العاشرة ليلا، صوت امرأة تصرخ وتطلب النجدة وبعد الغد بلغه أن المجرمين اغتصبوا امرأة عمرها 83 سنة، لقد كانوا يبحثون عن خمر ولم يجدوها. يقول هذا الشاهد ـ في جريدة روسلوبوجينية (OSLOBODEWJE) أكتوبر 1992:

«في أحد المحتشدات التي خصصت للاغتصاب تقول بوسنية ز. ن، عمرها أربعين سنة: لما دخلنا المحتشد كان المجرمون الملوثون الأنجاس يغتصبوننا كالحيوان والوحوش. كانوا ينتفون الشعر ويقطعون الثديين بالسكاكين.

كانوا يعذبوننا، يغتصبوننا ويستهزئون بنا، أمام أعين مآت من السجناء. لكن لم نستطع أن نتحمل اغتصاب البنات أمام أعين آبائهن».

لن ننسى أبدا التغافل الأوروبي أمام هذه الجرائم الجماعية.[1]

ميراند سيدران (MIRANDA SIDRAN).

---

(1) صحيفة الزنبق (البوسنية) عدد 11، السنة الثانية الصادرة بتاريخ 1993/1/16 (ترجمة عثمان كوزلج)، نقلا عن صحيفة "الراية" (المغربية) الصادرة بتاريخ 23 فبراير 1993م.

وتحت عنوان: «همجية نهاية القرن»

ورد في مجلة (نيوزويك الأمريكية) ما نصه: «تروي فتاة مسلمة من البوسنة رفضت الإفصاح عن اسمها وكذلك الخوض في تفاصيل الذكريات المؤلمة التي حدثت في شهر يوليو المنصرم عندما هاجمت القوات الصربية قرية «ريزفانوفيتش» الواقعة في شمال غرب البوسنة، وتحولت هي البالغة من العمر 20 سنة الى فريسة للوحش الصربي هي ومجموعة من الفتيات بلغ عددهن 400 فتاة، وتم احتجازهن بالقرب من حديقة أحد الجيران، وقد بدأت مأساتها عندما اقترب منها جنديان صربيان بالزي العسكري والصليب على صدريهما واختاراها هي وصديقتها من بين المحتجزات فاغتصباهما مرارا.

ان هذه الفتاة المسلمة هي واحدة ممن صمدوا أو صمدن أمام أعنف أعمال السادية في القارة الأوروبية منذ الحملة النازية والمعروفة باسم «التطهير العرقي» وتؤكد التقارير الموثقة حدوث عمليات القتل والتعذيب المنظمة في البوسنة وأن جرائم صربية جديدة أخذت تطفو على السطح وتتمثل في حملات الاغتصاب الجماعية ولا يعرف على وجه التحديد عدد ضحايا الاغتصاب، بيد أن الاحصائيات تفيد بأن عدد الحالات تتراوح ما بين 30.000 ـ 50.000 حالة ومعظم الضحايا من المسلمات، سمعنا طوال الأشهر الماضية شهادات مؤلمة على ألسنة بعض من تعرضن للاغتصاب على ايدي القوات الصربية وأن هذه الجرائم شملت بنات يتراوح أعمارهن ما بين 6 ـ 8 سنوات اغتصبهن الجيران والغرباء.

كما تقوم عصابات الاغتصاب بتعذيب ضحاياها الى الموت وان هناك معسكرات للاغتصاب اقامها الصرب لتنفيذ جرائمهم بشكل منظم ومنتظم والتي تنتهي في بعض الاحيان الى قتل ضحاياهم من النساء المسلمات والكرواتيات ويتم تنفيذ بعض عمليات الاغتصاب أمام الآباء والأمهات والأشقاء والأولاد وان بعض المغتصبات من المسلمات يتم احتجازهن الى أن يضعن كرها ما في أرحامهن لكي يصبحوا فيما بعد أطفالا صربا.

مجلس الأمن يصوت ضد الاغتصاب:

في البداية لم يتوفر هناك ما يثبت أو يدعم بعض التقارير غير أنه مع توافر الأدلة الدامغة بدأت وسائل الإعلام الغربية والجماعات النسائية، بالضغط على الحكومات لكي تتخذ الإجراءات في هذا الصدد... ومازالت الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية في مرحلة جمع وتقصي الحقائق وقد ذكر مجلس الأمم التابع لهيئة الأمم المتحدة أن ثمة «حالات احتجاز واغتصاب جماعية منظمة ومكررة كما صوت بالإجماع في 18 ديسمبر الماضي لإدانة الأعمال الوحشية التي تتعرض لها النساء وخاصة المسلمات في البوسنة والهرسك وكتحد صارخ للاستنكار الدولي تمادى الصرب في مهاجمة المدن البوسنية سعيا وراء إشباع شهواتهم الدنيئة.

ولاشك ان الصرب ينتهجون سياسة اغتصاب مدروسة وانهم يستخدمون الاغتصاب كوسيلة لإذلال الشعب البوسني المسلم تدريجيا ثم إبادته ويبرز حقدهم الدفين في إصرارهم على اغتصاب بنات دون الـ 7 سنين في الواقع فان عمليات الاغتصاب جزء لا يتجزأ من برنامج التطهير العرقي الذي يهدف الى طرد المسلمين من أماكن ظلوا يسكنونها منذ قرون وذلك عن طريق التهديد والطرد والإبادة الجماعية وفي أهم المدن البوسنية مثل (بركوبريجيدور وكوثورفاروس وزفرنيك وبجلجينا وكلجوش وسانسكي موست)، يتم البحث عن كل صاحب شركة أو منتم الى حركة الحزب الديمقراطي ثم قتلهم فور إلقاء القبض عليهم، بينما ينقل باقي الرجال الى معسكرات الاعتقال وكانت عمليات الاغتصاب بمثابة الضربة القاضية التي تلقتها عدد كبير من المدن المثخنة بالجراح وكأنها وسيلة لضمان عدم رغبة النساء في العودة إلى ديارهن.

قصة فتاة (12 سنة):

ومن بين ضحايا المجرمين الصرب فتاة تدعى فاسفيجا والتي في الـ 12 من العمر وقد بدأت مأساتها عندما تم إجلاؤها من قريتها جليش

في شهر أغسطس الماضي وقضت ليلتها الأولى داخل معسكر اعتقال يديره الصرب ويقع بالقرب من مدينة فوكا البوسنية، محتجزا معظمهم من النساء والأطفال وكبار السن، وقد روت فاسفيجا هذه قصتها ودموع الحزن تملأ عينيها... فقد اقتادني هذان الجنديان الى شقة خالية حيث دأبا على اغتصابي طوال تسع ليالي متتالية الى جانب رجال آخرين لم يكونوا أقل وحشية من هذين الجنديين.

واضافت فاسفيجا قائلة وقد فاجأنا ذات مرة جندي صربي في المعسكر وناداني أنا واقي وإحدى المحتجزات فاغتصبنا نحن الثلاثة... وقد خرجت فاسفيجا من ذلك المعسكر بعد أن تم تبادل السجناء بين الصرب والمسلمين في 17 سبتمبر الماضي في مركز اللاجئين وأمها وشقيقاتها اليوم في مركز للاجئين يقع بالقرب من سراييفو ولم يسمع أحد عن أخبار والدها الذي قد تعرض للضرب والتنقل من سجن لآخر في مدينة جليش.

حقائق مذهلة:

وتقدر لجنة جرائم الحرب التابعة للحكومة البوسنية عدد النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب بـ 30.000 امرأة في حين تؤكد وزارة الداخلية أن العدد يصل الى 50.000 مغتصبة، وتمتنع معظم الضحايا عن إفشاء ما ألم بهن خوفا من العار ويعزو ذلك الدكتور محمد سيستبش رئيس قسم الطب النفسي لدى مستشفى زينيكا في البوسنة إلى «أن ضحايا الاغتصاب قد جبلن على حب الإسلام واتباع تعاليمه» ومن جانب آخر فإن هناك صعوبة في الوصول الى أماكن دفن ضحايا الاغتصاب، وأكد ذلك السيد محمد صاصربي رئيس البعثة البوسنية لدى الأمم المتحدة بالقول: «أنه قد تم بالفعل قتل عدد كبير من المغتصبات ومن الصعوبة بمكان العثور على أماكن دفنهن، ذلك ان القوات الصربية مازالت تحتل 70٪ من الأراضي البوسنية.

وفي هذا الصدد صرح مسؤول في الحكومة الأمريكية مهتم بهذه الجرائم انه لكي تتضح الصورة البشعة للاغتصاب الجماعي الذي يرتكبه الصرب فان ذلك يتطلب عدة سنوات ولكن عندما يتم اجراء مسح شامل للمناطق الداخلية في البوسنة فإننا سوف نكتشف المقابر الجماعية الخاصة بكـل معسـكر وقرية تـم تطهيرها عرقيا، وسوف نجد مقابر نساء تم اغتصابهن قبل قتلهن.

وها هو العامل الصربي الذي يدعي هيراك البالغ من العمر 21 سنة وهو من سراييفو فقد اعترف هذا الشاب الصربي بأقدامه على اغتصاب 8 مسلمات وقتل اثنتين منهن كما اعترف بارتكاب 18 جريمة قتل في السابق، وهو نازل في أحد السجون البوسنية وقد برر فعلته القتالية حيث قيل لنا كلما اغتصبنا كلما قاتلنا بشكل أفضل، كما اعترف بأنه كان يرتاد أحد «معسكرات الاغتصاب» خارج سراييفو بصحبة زملائه الجنود، وذلك المعسكر كان يحتضن 80 فتاة وامرأة مسلمة تم قتلهن واستبدالهن فورا بدفعة أخرى.

وتنتشر معسكرات الاغتصاب في كافة أنحاء بعض القرى كما هو الحال في الواقعة في شمال البوسنة وتقول فتاة تدعى عايدة وتبلغ من العمر 20 عاما انها كانت من بين 100 امرأة اغتصبهن الصرب وأن الشخص الذي قد اغتصبها شرطي صربي وجار لها، يدعى ج. دراغان والذي برر جريمته بالقول: «انها الحرب... وعندما تدور رحاها فليس هناك قانون ولا نظام، ومن المستحيل الإعراض عن المغريات»!!

اعترافات المجرمين:

أما السيدة التي تدعى راسيما البالغة من العمر 33 سنة وأم فتقول: «هاجمني جنود صرب فأقدموا على اغتصابي أمام ابنتي وعندما حاولت مقاومتهم هددني أحدهم بقلع أسناني وذبح كل أولادي وتقطيعهم إربا إربا»...

وأضافت قائلة أن أحد المجرمين قد قال لها أنا مضطر للقيام بهذا والا سوف يقتلونني... وقد يكون في كلام هذا المجرم شيء من الصحة،

ذلك أن هناك شابين صربيين وهما سلوبودان بانيك وشفيجتين مكسيموفتش المحتجزين حاليا في سجن أوراسجي بالبوسنة اعترفا لمراسل مجلة «نيوزويك» بتلقي أوامر الاغتصاب والقتل في شهر مايو الماضي وذلك استجابة لرغبات قائدهما في مدينة بركو البوسنية، وقد ذكر بانسيك أنه سبق وأن رفض الانصياع لأوامرهم عندما أخذوا اليه فتاتين في حالة ميأوسة وعلامات الضرب والتعذيب واضحة عليهما وان كل واحدة منهما في لـ 18 من عمرها، حيث وضعتا في غرفة مخزن يتجمع فيها ما بين 500 ـ 600 سجين كلهم من المدنيين، ثم برر فعلته وقال: «لو لم اغتصبهما في تلك اللحظة لقتلوني...» ثم مضى بانيك في وصف المسرحيات الصربية المشينة مع تبرئة ذمته الى جانب وصف الطريقة الوحشية الذي ذبح بها امرأة مغتصبة أمام الملأ.

وجدير بالذكر أنه بالنسبة للواتي قد قضين نحبهن من جراء الهمجية الصربية فإن الموت وسيلة لوضع حد للآلام. ولكن ضحايا الاغتصاب الباقيات على قيد الحياة واللواتي ينتظرن أطفالا صربا فإن مأساتهن لم تنته بعد، فهناك من تقسم على عدم الرغبة في رؤية أهلها انها مأساة شعب برمته.

غيض من فيض:

ومن الواضح ان حالات الاغتصاب ما هي إلا جزء من البرنامج الذي وضعه الصرب لإبادة شعب البوسنة، وقد سبق أن قاموا بنهب وسلب ممتلكات المدنيين واغتصاب أراضيهم وإزهاق بعض الأرواح الى جانب النيل من شرفهم وكرامتهم وسوف يجوب شوارع البوسنة مئات، بل آلاف من أطفال صرب وضعتهم أمهات مسلمات ضد إرادتهن، ويتخيل الصرب أنهم قد كسبوا الحرب البشعة ولكن جرائمهم أثبتت من الآن فصاعدا أن صربيا العظمى ستظل منبوذة دوليا في السنوات القادمة» [1].

(1) صحيفة (النبأ الجزائرية) الصادرة بتاريخ 15-21 فيفري 1993م، عدد: 93.

وتحت عنوان:

«القوات الصربية تواصل اغتصاب المسلمات»

ورد على لسان مراسل صحيفة نيوزويك الأمريكية (روي حوثمان) ما نصه: «تروي الفتاة سيڤليتا قصتها وقصة 40 فتاة مسلمة تعرضت لشتى أنواع العذاب والاضطهاد والاغتصاب في (بريزوغوبوليه) قرب "بريتشكو" بعد حصار دام عدة أيام دخلت العصابات الصربية الى القرية واقتادت الفتيات المسلمات واعتقلتهن، وتعرضت من يوم الى يوم إلى شتى أنواع العذاب واغتصبوهن. وهذا الذي حدث في شهر مايو الماضي ليس من المعقول أن يكون الدافع إليه جنونيا، وانما هي خطة عسكرية محكمة ودقيقة.

الدكتورة مالكة كريت ماير مديرة مجموعة أطباء الأمراض النسائية المكلفة من الأمم المتحدة بالبحث في مسألة التعذيب الجسدي الذي تقوم به العصابات الصربية المتوحشة قالت: «الغرض من الاغتصاب هو فضح وإخزاء النساء المسلمات... اغتصاب النساء المسلمات غير ناتج عن الرغبة الجنسية الحيوانية للجنود الصرب، بل هو ناتج عن استراتيجية صربية، بمعنى آخر هذا الأمر جاء من القيادة الصربية العليا».

آلام نفسية:

ميرسادة ڤيتش (23 سنة) قالت: «اغتصبونا حتى نحمل منهم، وقالوا لنا إنه لنا الشرف أن نحمل منهم ونكون أمهات الأطفال الصرب، ونحن لا نريد أن نحمل منهم، والأطفال هم نتيجة الكراهية وليس الحب، وبعد خروجنا من السجن أقمنا مدة طويلة في المستشفى تحت الرعاية الطبية للصرب لم يحدثوا آلاما جسدية فقط، بل آلاما نفسية أكثر بكثير، فقدنا حقنا في أن نبقى يوما من الأيام زوجات أو أمهات. نحن ضحية الإجرام الصربي لا يرغب أي شاب في الزواج من الفتيات المغتصبات ولهذا نكون قد دمرنا كنساء».

جرى هذا اللقاء في توزلا في مخيم اللاجئين مع الفتيات المغتصبات اللواتي قررن أن لا يخفين الحقيقة، حتى يعرف العالم ماذا يفعل المجرمون الصرب. ألميرا أيانوڤيتش (18 سنة) تقول: «كنت في البيت مع والدي، عرفنا أن المجرمين الصرب دخلوا المنطقة، وكانوا قد دمروا البيت، وحرقوا حقولنا ومزارعنا، وعند المساء اقتحم ثلاثة جنود من الصرب البيت، كنت أتوقع أنهم سكارى واحد منهم أخرج سكينا وقال لي اخلعي ملابسك فورا، قلت لهم أتركوني صرخت عاليا، أخذوني وأخرجوني من البيت ولا أعرف أين أخذوني، وفقدت الوعي، استيقظت في غرفة ضيقة مثل السجن وكنت ملقاة على الأرض، اغتصبوني على التوالي طلبت منهم أن يتركوني وقالوا: «اخرسي يا تريكة» اغتصبوني يومين كاملين وكم كنت أفكر بالانتحار حتى أتخلص من هذا العذاب. وفي اليوم الثالث حدث شيء لن أنساه مدى الحياة فتحوا الغرفة الصغيرة وأخرجوني منها، ووضعوني أمام رجل قيدوا ساقيه ويديه بسلاسل حديدية، كان مضرجا بالدم. هذا الرجل كان أبي قالوا له: «الآن سوف تشاهد كيف تغتصب ابنتك»، وكان أبي يبكي وكنت أتوقع أنهم سوف يقتلوننا ولكنهم بعد يومين أطلقوا سراحنا. ومن تلك اللحظة لا أستطيع أن أنظر الى أبي خجلا منه، أنا محطمة نفسيا، لا تسألوني السماح، الشيء الوحيد الذي أشعر به هو أنني لا يمكن أن أعيش معهم أبدا.

ياسمينا ڤيريتش (20 سنة) قالت: «إن الله وحده يعلم ما في قلبي، الجنود الصرب قتلوا أهلي أمامي، رأيت كيف ذبحوا أبي بالسكين: قطعوا عنقه وبعد ذلك أطلقوا النار على أمي، هذا فقط، لأنهم مسلمون. لم يكن هذا كافيا أخذني هؤلاء المجرمون - وعددهم عشرة - الى غرفة، وهناك اغتصبوني على التوالي ثلاثة أيام... لا أريد أن أتذكر أي شيء، لن أكون امرأة طبيعية لقد أصبحت أكره الرجال وأكره الجنس».

كان عددهم كبيرا:

سيڤليتا إيانوڤيتش (18 سنة) كانت تعمل طباخة في المستشفى، قالت: «أنا كذلك اغتصبني المجرمون الصرب، من ليلة إلى أخرى كانوا

يغتصبونني حتى الصباح، كان عددهم كبيرا: وكانوا يقفون طابور ويغتصبونني حتى الصباح، واحد تلو الآخر، في لحظة كنت شجاعة وسألت واحدا منهم: لماذا تغتصبونني؟ لماذا؟ أجاب: «يجب أن تغتصب جميع الفتيات المسلمات، لأن هذا أمر من القيادة العليا، لأنكن مسلمات، يجب أن نذبح ونقتل المسلمين، يجب القضاء على المسلسين، حتى يتمكن الشعب الصربي من استلام القيادة والسيطرة على هذه الأراضي. عندما عرفت الحقيقة. كل هذا كان مخططا سابقا. الحكومة في بلغراد تستخدم الجنود الصرب للقضاء على الاسلام والمسلمين، وبسبب هذه الجرائم المذكورة فإن السلام على هذه الرقعة من أوروبا بعيد جدا لأن المسلمين لن ينسوا جرائم الصرب»[1].

ويؤكد هذا أيضا تقرير منشور في جريدة الجاردين (البريطانية) جاء فيه: «وقد عادت مجموعة من السيدات التي أرسلها مجلس الكنائس العالمي للتقصي عن جرائم الحرب في يوغسلافيا بعد زيارة لمعسكري اللاجئين في كرواتيا والبوسنة وقامت بعمل مقارنة لما حصلت عليه من أدلة مع ما حصلت عليه مجموعات أخرى من بينها المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.

وتقول السيدة بريندا فيتزباتريك في فريق تقصى الحقائق التابع لمجلس الكنائس العالمي: «لقد تأكد لنا الآن هناك سياسة منظمة للاغتصاب، وان هذه السياسة أصبحت سلاحا يستخدم في الحرب، ولم تكن هذه العمليات احدى افرازات الحروب العادية أو وليدة هذه الظروف، وتعترف ان عمليات الاغتصاب قد تحدث في جميع الجبهات، ولكن الصرب جعلوها سياسة لتحمل البوسنيات من الأسرى أطفالا من الصرب.

وبعض الهيئات الدولية الأخرى، ومنها برلمان اتحاد غرب أوروبا، قد جمعت تقارير موثوقة عن علميات اغتصاب على نطاق واسع تعرضت لها نساء وفتيات داخل المعسكرات الصربية المعدة لهذا الغرض، وقد

---

(1) نيوزويك في عددها الصادر بتاريخ 1993/8/23.

أوضح تقرير مجلس الكنائس العالمي ان عمليات الاغتصاب ضد البنات والسيدات تتكرر مع كل واحدة بشكل غير إنساني وغالبا ما تموت المعتدى عليهن نتيجة لهذه الاعمال اللاإنسانية وتوصل أيضا فريق البرلمان الأوروبي المكلف بجمع الدقائق إلى أن الأسرى المسلمين من الرجال يتعرضون «للخصي» في محاولة قذرة للقضاء على رجولتهم وعلى المسلمين هناك!

ويتجلى في هذه المعسكرات عمليات التطهير العرقي، وتقول كثيرات من الضحايا ان الصرب قالوا لهن انهم سوف يواصلون الاعتداء عليهن حتى يحملن أطفالا صربيين، وبعد ان يصبح الحمل واضحا يتركن حتى الشهر السابع وهي المرحلة التي يصبح فيها الإجهاض مستحيلا.

وتقول السيدة فيتزباتريك ان الصرب يرمون من وراء هذه الأعمال الهمجية خلق جيل يتمرس بالكراهية والضغينة.

ويتفق كل من مجلس الكنائس العالمي والبرلمان الأوروبي على ان آلافا من النساء قد تعرضن لهذه العمليات وتضيف فيتزباتريك انه يسود بين اللاجئات المغتصبات حالات الغضب واليأس ليس بسبب اعتداء الصرب عليهن فحسب، بل لتغافل العالم عن هذه الممارسات الوضيعة، وفيها الكشف عن عوراتهن بشكل جماعي والاعتداء عليهن على مرأى من العالم كله، ولم يقدم العالم حتى الآن سوى الإدانات والشجب المجرد من خطوات فعالة تتناسب مع هذه الأحداث التي تؤدي الى زيادة التوتر في العالم وإثارة حساسيات لا يمكن حصرها.

وقد قدمت بعض المنظمات المساعدة النفسية للمغتصبات اللائي يقلن ان الأدلة تجمع فقط دون جدوى وتتعامل السلطات مع بلاغات الاغتصاب ببرود غير عادي، ولا يتم اتخاذ إجراء رادع بشأنها.

وان ما يحدث لا يتجاوز أن يكون جمع أدلة دون محاولة الحد من المخالفات. يحاول الجميع هناك الاعتماد على نفسه في الدفاع عن أهله ضد هذه الأعمال، وتنتشر أخبار هذه الحوادث في الصحافة اليومية مما

يثير مشاعر الرعب في نفوس المسلمين، وهناك وعند قدوم رجال الصليب الأحمر الى هذه المعسكرات قام الصرب باخلائها وتهريب الضحايا إلى أماكن أخرى.

وتسجيل هذه الحوادث يعتبر نقطة سوداء في تاريخ البشرية، ويقول المعتدى عليهن ماذا نسجل، كلها أعمال اعتداء على الشرف والكرامة».

وتضيف مسؤولة مجلس الكنائس: كنا نعتقد أن اللاجئات يبالغن في رواياتهن ولكن مع وقوفنا على الحوادث ووصولنا للأدلة عن جرائم الحرب الصربية تأكد لنا كل ما سمعنا، من روايات مخجلة. لأن عمليات الحمل لا يمكن التصنع فيها أو الادعاء.

وهذه المسلمة البوسنية التي تدعى عذرا «17 سنة»، تحكي جانبا من هذه الممارسات الوحشية فتقول: لقد هجم الجنود الصرب على شقتنا في يونيو وهو الوقت الذي لا أنساه طوال حياتي، لأن الجنود اغتصبوها هي وأختها منيرة «16 سنة» وصديقة لهما عمرها 18 سنة حيث كان الجنود يلبسون زيا للتمويه ووصلوا الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، وقالوا لنا لابد من التوجه الى قسم الشرطة للتعرف على بعض زميلاتهن. وتضيف عذرا التي تقيم حاليا في معسكر زنيكا للاجئين ان قسم الشرطة كان على بعد خطوات قليلة من المنزل، ولكن الجنود أخذونا وتوجهوا بنا إلى فندق فيلينا فلاس، الذي أطلق عليه أخيرا «الفندق الذي لا يتمنى أن يقيم به أحد»، وهو المكان الذي يؤمه الجنود الصرب لاغتصاب البنات المسلمات وأرسلت منيرة وصديقتها لجنديين آخرين، وتركت عذرا وحدها في احد غرف الفندق، وبعد خمسة دقائق تم استجوابها... حيث قام الجندي بإغلاق باب الحجرة ودفع بالطاولة التي أمامه وسأل عذرا، من معه أسلحة من المسلمين، أجابت عذراء، لا أعرف لأن معلوماتي أنهم قاموا بتسليمها كلها، وسألها من يكن والدك، ثم بدأ يخلع ملابسه، وأمرني أن أخلع ملابسي ورفضت طلبه. وكانت تصرخ بصوت مرتفع وهي تحكي هذه القصة المؤلمة، وأضافت وبعد أن اعتدى علي بالضرب وقام بتمزيق

ملابسي حاولت الدفاع عن نفسي ولم أستسلم له، فقال لي ان لم ترضخي لي سألقي بك في نهر درينا... وبدأت أصرخ فوقف قائلا ان لم تكف عن هذا الصراخ سوف أحضر لك عشرة جنود يغتصبونك حتى الموت، فاضطررت للاستسلام بعد الضرب والتهديد والقوة... وفي الثالثة بعد منتصف الليل سمعت صراخا قويا، وبعدها سمعت صوت الباب يفتح بعنف وجندي يوجه شتائم وكانت أختي (التي لم أرها حتى الآن) هي الهدف لهذه الشتائم في الغرفة المجاورة، واستطاعت عذرا ان تهرب في ذلك الوقت واختفت لبعض الوقت وبعدها هربت من المدينة كلها في يوليو بدون أختها، ولكن مع باقي أفراد أسرتها.

ورفضت عذرا في باديء الأمر أن تحكي قصتها ولكنها وافقت أخيرا ليعرف العالم ماذا يحدث في البوسنة ورفضت أن تعطي اسمها الحقيقي، أو اسم أختها، لأنها تخشى على سلامتها ان كانت لاتزال على قيد الحياة.

وتقول عذرا: ان حقوق الإنسان انتهكت في معسكرات البقاء الصربية حيث تنتهك بها أعراض النساء من جميع الأعمار بواسطة عصابات يطلق عليها عصابات الاغتصاب من جنود الصرب وفي حوادث متكررة بهذا الفندق، وثمار هذه الاعتداءات الوحشية هو الحمل المنتشر بين آلاف من المسلمات الذي يذكرهن بمرارة هذه التجربة.

وقد أكدت سيلفاناف المتحدث الرسمي باسم المفوضية العليا لشؤون اللاجئين في جنيف وجود أدلة قاطعة على انتشار الاغتصاب المنظم من جانب الجنود الصرب حيث خلت كثير من الأماكن من نساء عندهن القدرة على الإنجاب علاوة على ترهيب العائلات لإبعاد بناتها خوفا من ذلك» [1].

---

(1) مجلة (الخيرية) الصادرة في شعبان 1413 هـ، عدد: 33 نقلا عن الغارديان البريطانية.

وفي تصريح لمجلة ألمانية قائد صربي يفرض على المسلمين في البوسنة إعلان تحولهم عن الإسلام ليصبحوا صربيين أوكرواتا... وإلا فالموت.

ورد حول ذلك في صحيفة "الراية" ما نصّه «لم يعد هناك مؤشر أو دليل يشكك في صحة أن ما يجري لمسلمي البوسنة والهرسك من ابادة واستئصال يعتبر «حربا صليبية»، فالشواهد التي تثبت وتكشف أبعاد العدوان الصربي الصليبي الهمجي والذي يتلخص في «اجتثاث الإسلام والمسلمين من البلقان ومن قلب أوروبا»، وحقيقة لتواطؤ والمؤامرة الغربية - إزاء المأساة الإنسانية الفظيعة التي تجري فصولها ببطء على مرأى ومسمع من العالم كله دون أن يتحرك أحد فعلا لوقفها ومعاقبة مسببها - كثيرة ولا مجال لإنكارها أو التملص من الاعتراف بها...

ولقد ذهب اعتقاد سائد عند فئة معينة من الناس الى تفسير ما يجري هناك من مذابح ومجازر في حق إخواننا من أنه لا يعدو كونه «صراعا عرقيا»، منكرا حضور «العامل الديني» في هذه الاعتداءات الصربية، قائلا بأن «إقحام» العامل الديني يؤلب علينا العالم المسيحي، ويؤكد صدق تهم «الأصولية» و «التصرف» و «الإرهاب» التي تلصق بنا!! لتنفيذ هذا الزعم المنكر للحقيقة رغم وجود الشواهد والأدلة الكثيرة التي تثبت العكس، نورد هنا مثلا، ما صرح به قائد القوات الصربية في البوسنة والهرسك في مقابلة صحفية أجرتها معه المجلة الألمانية «ديرشبيجل» وترجمتها عدة صحف عربية مؤخرا. واليكم نص المقابلة:

«شبيجل»: كم من المسلمين قتلتهم أنت شخصيا خلال هذه الحرب؟

فوشتيك: مئات كثيرة. كذلك قمت شخصيا بإطلاق الرصاص على الأسرى المسلمين للقضاء عليهم.

◆ المعاهدات الدولية تحرم قتل أسرى الحرب ألا تعرف ذلك؟

- للأسف لا نملك سيارات لنقل الأسرى، لذلك أسهل طريقة

وأرخصها للتخلص منهم فورا بالقتل. مثلا في شهر يوليو كشفنا مخبأ يختفي فيه 640 شخصا بعد أن دلنا عليه بعض الأسرى الذين قمنا بتعذيبهم، كان أسرع وأسهل وسيلة هي قتلهم بالرصاص والتخلص منهم.

◆ ألم تفكر أنك بذلك قد تقدم يوما للمحاكمة كمجرم حرب؟

ـ أنا لا أقتل النساء والأطفال، ولكني أقتل كل قادر على الحرب، ومن لا أقتله أقوم بخزق عينيه. نحن نستخدم وسائل متعددة للحصول على المعلومات من الأسرى، منها تهشيم أيديهم بوضعها في مكبس لتكسيرها ببطء حتى يعترفوا بما نريده من معلومات.

◆ ما الهدف من هذه الحرب؟

ـ القضاء على المسلمين. فالمسلمون في أوروبا يجب أن يختفوا كأمة. إن على المسلمين في البوسنة إعلان تحولهم عن الإسلام وأن يصبحوا صربيين أو كرواتا. أما الخيار الثالث فهو الموت.

◆ من الذي يمول قواتكم؟

ـ الصربيون بالطبع، ولمعلوماتك 99٪ من المتطوعين هنا هم جنود صربيون يأتون الينا من بلغراد.

◆ لاحظنا وجود حرفي «S. S» على ملابس جنودكم. فهل لهذا علاقة بقوات العاصفة النازية؟

ـ أنها تعني اختصار كلمة «نسور الصرب» والملابس نفسها نحصل عليها من قتلى الجنود المسلمين ثم نصبغها باللون الأسود.

◆ هل هذا يعني أنكم ستحولون جبهة الحرب الى كوسوفو حيث يوجد مسلمون ألبان؟

ـ هناك ثأر بيننا وبين المسلمين الألبان في كوسوفو سنقوم بطردهم ومن يرد البقاء سنقتله. لا نريد مسلمين بيننا أو حتى في أوروبا كلها.

هل يعقل بعد هذا كله أن يظل بيننا ـ نحن المسلمين ـ من يشكك في أن الصرب يريدون استئصال الإسلام من البوسنة، وأن دافعهم في هذه الحرب القذرة إنما ينطلق من أحقاد صليبية كامنة في نفوسهم؟

وهل يعقل بعد هذا كله أن يطالب بعض بني جلدتنا بعدم «اقحام» الاسلام في هذه الحرب حتى لا نتهم بالتعصب و «الأصولية»، أم أن هؤلاء يريدون أن يكونوا - حسب تعبير الصحفي فهمي هويدي - «صربيين أكثر من الصرب» ؟!.[1]

شهادة عائد من يوغسلافيا

انها مجزرة حقيقية ضد المسلمين

جمعها س. زايدي

«المجازر التي تعيشها البوسنة والهرسك فتحت المجال لوسائل الإعلام الغربية لأن تفرض قراءاتها بحكم قربها من الأحداث، وهو ما يجعلنا في وضعية المراقب الذي يستسلم في آخر المطاف.

ومع هذا فقد جاءتنا فرصة من حيث لا ندري، انه السيد الصائم أمير الجزائري الجنسية الطالب في جامعة زغرب عاصمة كرواتيا (اختصاص فنون مطبعية) منذ 1988 الذي زارنا بمقر الجريدة ليحكي لنا عن مأساة المسلمين في البوسنة.

يقول محدثنا أن الاعتقاد الذي كان سائدا قبل بداية المجازر هو أن يحتكم القادة الصرب الى العقل وأن يقوموا بتسوية المشكلة بالطرق السياسية كما حصل مع كرواتيا، وأن يقتنعوا بأن المتغيرات المحلية الدولية لم تعد في صالح هيمنة عرق واحد على أمم بأكملها.

كل هذه الاعتقادات انهارت كلية أمام إصرار قادة المليشيات الصربية بالتعاون مع الجيش الفيدرالي (سابقا) الذي نسي مهمته وتحول الى طرف يدافع عن الصرب.

المجازر التي حدثنا عنها السيد الصائم كثيرة يصعب حصرها لكنه يقول أن بعضا منها أثرت عليه كثيرا، من بينها حادثة قرية بيلينا

---

(1) صحيفة (الراية المغربية)، عدد: 35، الصادرة بتاريخ 15 دجنبر 1992م.

bijeljinia التي وقعت عشية عيد الفطر هذه القرية المسلمة في البوسنة اقتحمتها الميليشيات الصربية، ودخل المقتحمون مسجد القرية في آخر يوم من رمضان في الوقت الذي كان المسلمون يستعدون للاحتفال بعيد الفطر. لكن عوض الاحتفال كانت المجزرة.

رجال الميليشيات قتلوا كل المصلين وخربوا المسجد ومحتوياته إضافة إلى أعمال غير إنسانية على الإطلاق يستحي الإنسان من ذكرها، كما نزعوا الراية التي ترمز الى الإسلام وهي الراية الخضراء ذات النجمة والهلال، وعوضوها بالراية التي ترمز إلى القراصنة، واستبدلوا الأذان بالأناشيد المتطرفة. كل هذا يدخل في إطار عملية شاملة هدفها النهائي القضاء على كل مسلم وكل ما له صلة بالإسلام في يوغسلافيا (سابقا). الحالة الأخرى التي حدثنا عنها السيد الصائم هي عائلة خوجيتش (خوجة) من مدينة vlasnigsa ذات الأغلبية المسلمة شرقي البوسنة.

هذه المدينة اقتحمتها الميليشيات الصربية من بينها مليشيات أركان في موكب من عدة سيارات وعربات كتب عليها عبارة «مجزرة». وطلب المقتحمون من سكان المدينة التي كانت بلا دفاع تسليم أسلحتهم مع ضمان سلامتهم. وهنا تروي امرأة تدعى نوراسة كيف أنها كانت مع زوجها حسين الذي طلب منه رجال الميليشيات تسليم مسدسه وأعطوه وعدا بأنهم لن يسيئوا اليه. الرجل قدم سلاحه وطلب من زوجته ان تحضر له علبة سجاير من بيت... وعندما هم حسين بإشعال السيجارة أطلق عليه أحد أفراد الميليشيات الرصاص أمام زوجته... بعد الحادث مباشرة فر السكان الى أحد المنازل المجاورة وسمعوا عدة طلقات نارية... وبعد خروجهم وجدوا حوالي 150 جثة ملقاة على الأرض. وتقول مرسودينا خوجة (17 سنة) التي التقى بها السيد الصائم في زغرب ان أغلبية ضحايا - vlasinista هم من أقاربها. فقد قتل والدها وأخوها (15 سنة) وجدها و 6 أعمام وابنة عمها (6 سنوات) [1].

(1) جريدة (الخبر الجزائرية) الصادرة بتاريخ 17 أوت 1992م.

في البوسنة... تطهير عرقي أم محاكم التفتيش؟

ياسر ابراهيم الزعاترة

«يبدو أن محاولة تزوير الحقيقة هو المقصود من استخدام الإعلام الغربي لمصطلح «التطهير العرقي» في حالة مسلمي البوسنة والهرسك وما يمارسه المجرمون الصرب في حقهم منذ أكثر من سنة، لأنه يعني عرقا يعمل على تنظيف منطقة ما من عرق آخر، وهو الوصف الذي لا ينطبق على حالة مسلمي البوسنة ذلك أنه ومن حيث الخلفية العرقية، فإن مسلمي البوسنة ليسوا عرقا منفصلا عن باقي الأعراق الموجودة في الجمهوريات اليوغسلافية بصورة جدية.

من هنا فإن ما يجري في الحقيقة هو عملية محو شامل لهوية ثقافية وليس لطائفة عرقية، تلك الهوية الثقافية المتعلقة بالهوية الإسلامية.

إن ما يجري الآن في البوسنة والهرسك هو أشبه ما يكون بمحاكم التفتيش التي جرت في إسبانيا بحق المسلمين الذين كونوا هوية حضارية خاصة بهم منحت أوروبا الكثير من الخير والعلم النافع منذ القرون الوسطى، إنها حرب على الهوية وليست على العرق. وليس أدل على ذلك من تركيز الصرب على محو كل ما يمت الى تلك الهوية بصلة، وما عملية هدم المساجد وقتل المشايخ والعلماء إلا عنوانا لتلك الحملة. اضافة الى عمليات قتل العزل في قوافل المهجرين الهاربة من جحيم القصف، والتي تتشكل في معظمها من النساء والأطفال.

إن سكوت أوروبا على الجريمة التي يقترفها الصرب حتى الآن، ما هي إلا تشجيع لهذه العملية التي تهدف إلى وأد كيان إسلامي كان يمكن أن يشكل خطرا مزعوما على أوروبا. من هنا فقد كانت الدعاية الصربية المحذرة من هذا الكيان الإسلامي ناجحة الى حد بعيد. وقد شارك الإعلام الأوروبي في هذه الدعاية، وخاصة عندما راح يغض النظر عن عمليات الإبادة اليومية بحق المسلمين ليطارد مجموعة من الشباب العرب المسلمين لا يزيد عددهم عن مئتي شخص جاءوا للجهاد في البوسنة، ليقول

للأوروبيين بأن الأصولية قادمة من داخل أوروبا، وهذا هو الدليل... مجاهدون عرب جاءوا من أفغانستان ليتحولوا من قتال الروس والشيوعية الى قتال المسيحيين في أوروبا.

إن الإعانة الغربية للمخطط الصربي لم تتوقف عند هذا الحد، بل تجاوزته وبصورة فاضحة حين ساهمت في عمليات التهجير البعيد، فبدلا من تقديم العون المادي الى جمهورية كرواتيا لاستيعاب أولئك المهجرين قريبا من ديارهم بانتظار العودة، قامت بالمساعدة في تهجيرهم الى مختلف دول أوروبا، بل وزراء الهجرة في دول المجموعة الأوروبية والذين كانوا وما زالوا يعقدون الاجتماعات من أجل وضع حد للهجرة الى أوروبا، بسبب خطورتها في مرحلة ما بعد الوحدة، هم أنفسهم الذين اجتمعوا قبل شهور قليلة ليقرروا منح تسهيلات اللجوء للهاربين من البوسنة والهرسك، ومن المسلمين بالطبع، والذين زاد عددهم في دول المجموعة حتى الآن على نصف مليون شخص. كما أن مساعدتهم للمؤسسات الكنيسية التي تقوم باستقبال الأطفال الأيتام ورعايتهم... كل ذلك يؤكد ما ذهبنا اليه من أن العملية هي عملية محو ثقافي وتذويب للمسلمين في المجتمع الأوروبي، باعتبار أن ذلك خير ألف مرة من احتفاظهم بوجودهم داخل كيان إسلامي، حتى لو كان صغيرا، في قلب أوروبا.

إن المطلوب أوروبيا هو الانتهاء من هذا الكيان دون خلق حالة فلسطينية في أوروبا، كأن يتجمع البوسنيون في كرواتيا أو دولة قريبة ثم يستمروا في نضالهم من أجل استعادة حقوقهم، كما حصل بالنسبة للفلسطينيين. ولذلك فإن عملية توزيعهم على مجموعة الدول الأوروبية هو الحل الأمثل لهذه القضية. ولعل من المفيد القول إن ثمة محاولات جرت في مطلع الخمسينات لإغراء الشباب الفلسطيني بالهجرة الى الدول البعيدة، وخاصة دول أمريكا اللاتينية، بل إن مؤسسات معينة كانت تمنح تذاكر السفر لأولئك الشباب مجانا زيادة على بطاقات اللجوء الممنوحة من وكالة الغوث.

يبقى السؤال هو، هل يمكن أن ينجح هذا المخطط الصربي الأوروبي، أم أن الحالة الفلسطينية في أوروبا قد أصبحت أمرا لا مفر منه؟... إنه السؤال الذي يقلق القاتل والضحية على حد سواء [1]!!

وفي 1912 نشبت الحرب بين تركيا (دولة الخلافة الإسلامية) من جهة وبلغاريا والصرب والجبل الأسود من جهة أخرى، حقق الجنود البلقان انتصارات مهمة، وارتكبوا أثناء الحرب جرائم بشعة تكاد تكون نسخة مطابقة للأصل من جرائم الجنود الصرب في البوسنة حاليا.

وبينما يصمت شعراء العربية الكبار في هذا الزمان عن نظم بيت واحد فيما يجري في البوسنة حاليا، فان شعراء مطلع القرن لم يصمتوا، ودون أميرهم أحمد شوقي واحدة من أجمل وأصدق قصائد الشعر العربي المعاصر، هذه مقتطفات من القصيدة، وما أشبه حاضرنا بماضينا [2].

يا أخت أندلس

يا أخت أندلس عليك سلام ... هوتْ الخلافة عنك والإسلام

نزل الهلال عن السماء فليتها ... طويت وعمَّ العالمين ظلام

أزرى به وأزاله عن أوْجه ... قدر يحط البدر وهو تمام

جرحان تمضي الأمتان عليهما ... هذا يسيل، وذاك لا يلتام

بكما أصيب المسلمون، وفيكما ... دفن اليراع وغيِّب الصمصام

لم يُطوَ مأتمها. وهذا مأتم ... لبسوا السواد عليك فيه وقاموا

ما بين مصرعها ومصرعك انقضت ... فيما نحب ونكره الأيام

خلت القرون كلَيْلة وتصرَّمت ... دول الفتوح كأنها أحلام

زعموك هما للخلافة ناصبا ... وهل الممالك راحة ومنام؟

ويقول قوم: كنت أشأم مورد ... وأراك سائغة عليك زحام

(1) صحيفة (الراية المغربية) الصادرة بتاريخ 20 أفريل 1993، عدد: 45.

(2) صحيفة المستقلة، الصادرة بتاريخ 28 فبراير 1994، عدد: 14.

وبراك داء الملك ناسٌ جهالة / بالملك منهم علة وسقام

لو أثروا الإصلاح كنت لعرشهم / ركنا على هام النجوم يقام

وهُمُ يقيّد بعضهم بعضا به / وقيود هذا العالم الأوهام

صور العمى شتى، وأقبحها / اذا نظرت بغير عيونهن الهام

ولقد يقام من السيوف وليس من / عثرات أخلاق الشعوب قيام

أخذ المدائن والقرى بخناقها / جيش من المتحالفين لُهام

غطّت به الأرض الفضاء وجوهها / وكست مناكبها به الآكام

تمشي المناكر بين أيدي خيله / أنّى مشى، والبغي والإجرام

ويحثّه باسم الكتاب أقسّه / نشطوا لما هو في الكتاب حرام

ومسيطرون على الممالك سُخّرت / لهم الشعوب كأنها أنعام

من كل جزار يروم الصدر في / نادي الملوك وجدّه غنّام

سكّينه، ويمينه، وحزامه / والصولجان، جميعها آثام

عيسى! سبيلك رحمة ومحبة / في العالمين وعصمة وسلام

ما كنت سفاك الدماء ولا امرؤا / هان الضعاف عليه والأيتام

يا حامل الآلام عن هذا الورى / كثُرت عليه باسمك الآلام

أنت الذي جعل العباد جميعهم / رحما وباسمك تقطع الأرحام

واليوم يهتف بالصليب عصائب / هم للإله وروحه ظُلاّم

خلصوا صليبك والخناجر والمُدى / كلٌّ أداة للأذى وحمام

كم من مرضع في حجر نعمته غدا / وله على حد السيوف فطام

وصبية هُتكت خميلة طهرها / وتناثرت من نَوْره الأكمام

وأخي ثمانين استُبيح وقاره / لم يغْنِ عنه الضعف والأعوام

وجريح حرب ظامىءٍ وأدُوه لم / يعطفهم جرحٌ دمٍ وأوام

ومهاجرين تنكّرت أوطانهم / ضلوا السبيل من الذهول وهاموا

السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم / والنطع أن طلبوا القرار مقام

يتلفتون مودعين ديارهم / واللحظ ماء، والديار ضرام

أمير الشعراء أحمد شوقي

وقال أيضا أحمد بلحاج آية وارهام في قصيدة بعنوان:

بماذا تحيون النبي محمدا؟!

ربوع سرايـيـفـو الأبية تقضم ♦ بغدر، ووحشُ الصرب يسكرهُ الدم
لقد نهش الإسلام في حضن بوسنة ♦ ومدّ حقودا باللظى تتكلم

♦♦♦

صليبية أخرى يُسعَّر نارها ♦ نظام جديد، لا سوى الغرب يخدم
فكم باسمه تبقى العراق جريحه ♦ وكم باسمه صهيونُ تعثو.. وتغنم
وكم باسمه الإسلام يُرمى سفاهةً ♦ يُفتَنُ... لكن بالذي هو أعظم
فكيف بنو الأعمام غنُّوا وداده ♦ فصار لهم نِعْم الصديقُ المعظم؟!
يُلبون إنْ أومَأ إليهم.. وإن أتى ♦ يُضاجع أهلَ البيت لم يتكلموا

♦♦♦

صليبية كالأمس زينَ وجهها ♦ نظامٌ جديدٌ بالمُنى يترنم
مخالبها ترعاك مسخًا مسلطًا ♦ وتهواك شلواً ينحني.. ويسلم
فلا عزةُ الإسلام تبقى وضيئة ♦ ولا أمةُ القرآن بالسلم تنعم
فأين الجهاد الحر؛ يا خير أمة ♦ لقد ضيمت الأقداس، والضيمُ علقم؟!
فمسرى رسول الله لوثه العدا ♦ ونحن نكرص بالمرارة مفعم
وعرض بنات المسلمين بهرسك ♦ يداس وليل الذل فينا يخيّم
أكُلُّ قلوب الحاكمين مضاءةً ♦ بنبض العدا أم نبضها ليس يعلم؟!
جرائم ذاب القلب منها تألما ♦ وشق لها درب الإبادة مجرمُ

♦♦♦

أنرضي بما يجري، ونحسو مَذلة ♦ لنحيا، وهل يرضى بذلك مسلم؟!
يمينًا لموت المرء أجدى لدينه ♦ إذا الكفر أضحى في البرية يحكمُ
فيا نخوة الإيمان هُبي؛ دماؤنا ♦ على الأرض تجري، والبلايا تشمشم
لقد بشم الكفار من لحم أهلنا ♦ ونحن لهم ـ ويلاه ـ درعٌ ومِخذَمُ!

◆◆◆

أتخنُقُ كفُّ الصرب أسمى ديانــة ◆ كما تشتهي المأساة والكون مظلمُ؟!
وأنتم سكارى بالخـلاف كأنكُـــمْ ◆ الى الحشر لن تأتوا.. ولن تتقدمــوا
بمــاذا تجيبون الــنبي محـــمـــدا ◆ اذا ما اشتكى القتلى.. وفارت جهنَّمُ؟!
فهل مشجب «الأوضاع» يجعل بأسكم◆ شديداً على مَــنْ بالجهاد يُتَــمتمُ؟!
بماذا تجيـــبون النـــبي محـــمدا ◆ وأنتـــم قـــلوب؛ نبضها متألِّمُ؟!

III

تعصب أتباع مذهب معين ضد أتباع مذهب آخر داخل الدين الواحد:

ولإعطاء صورة على هذا النوع من التعصب الديني الذي يحدث بين طوائف أو مذاهب مختلفة داخل الدين الواحد، قد تصل في خطورتها وحدّتها درجة لا تقل عن خطورة التعصب الناتج عن صراع أتباع دينين مختلفين جوهرا، كما هو الحال في النماذج السابق سردها، في القسم الأول من هذا الفصل.

ولتشخيص بعض مظاهر هذا النوع من التعصب والصراع المذهبي (الداخلي) نورد ثلاثة نماذج تغطي أو تمثل ثلاث ديانات مختلفة وهامة من حيث العدد في العالم اليوم هي: «المسيحية والهندوكية والإسلام».

النموذج الأول: يتمثل في الصراع المرير القائم بين الكاثوليك والبروتيستانت في إيرلاندا

فمن الناحية العرقية يعتقد الإيرلنديون أنهم ينحدرون من السلالات السلتية، وقد شيدوا عبر مراحل التاريخ مدنية وضاءة حتى الفتح الأنغلو ـ سكسوني ، حيث عرفت ايرلاندا الفتح الأنجليزي على يد

الملك هنري الثامن، وهذا منذ بواكير القرن السادس عشر، ومنه تمركز النشاط الأنجليزي في صيغته السياسية الاجتماعية والدينية، لكن أهم عامل أفرز الشعور بالأقلية في هذا البلد يرتكز على الدين.

لقد أدخلت الكنيسة الأنجليكانية المتعلقة بالملك والبرلمان الى ايرلاندا في عهد إلزابيت من أسرة تيودور، وهو العهد الذي اعتنقت فيه أنجلترا الديانة البروتيستانتية وأخذت من هذا المذهب منطلقا تبشيريا في ايرلندا، لكن هذه الديانة لم تجد لها نفوذا إلا في مقاطعة (أولتير) في شمال ايرلاندا، أما في باقي ربوع البلاد فكانت تمارس السلطة الأكليريكية دون أتباع، وهو ما أشعل نار التعصب وأباح استثمار ايرلاندا ومصادرة أموال الكنائس الكاثوليكية... واسترقاق الايرلنديين واضطهادهم، وذلك بفرض الضرائب والخدمات التي كانت من وراء ثراء الانجليكان، خاصة منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو التاريخ الذي بلغ فيه التعصب أوجه حيث فصل فيه بين البروتيستانتي «الممتاز» وبين الكاثوليكي «المستحقر والمستضعف» الى درجة تحريم إرثه لواحد من عائلته إن كان بروتيستانتيا! وهذا ما يفسر المقاومة المستمرة والنادرة للكاثوليك ضد البروتيستانت، كما يفسر - أيضا - مواصلة ممارسة الكنيسة الكاثوليكية تعليم مؤمنيها، وتوجيههم وتغذيتهم بالمبادىء القومية الانفصالية ضد أنجلترا.

إن التعصب الناتج عن الاختلاف المذهبي في هذا البلد أدى بأبناء الوطن الواحد الى الانقسام على أساس طائفي، فنتج عنه تقسيم الايرلنديين الى فئتين: طبقة بروتيستانتية انكليكانية حاكمة ومرفهة وطبقة كاثوليكية مقهورة، تمارس فيها وعليها كل أصناف التحقير والتدني، حتى أن الكاثوليكي لم يتمتع بممارسة حق الوظيفة والانتخاب والتمثيل البرلماني إلا منذ قرار البرلمان الأنجليزي سنة 1829 والمعروف بقانون تحرير الكاثوليك، وذلك تحت ضغوط كثيرة ومتعددة!

إن هذا اللاتجانس الديني انعكس على الوضع الاجتماعي، فأفرز انفصالا معنويا بين سكان المنطقة الواحدة (وهو ما أدى خلال هذا القرن

الى الحرب الأهلية) كما أفرز كرها شديدا متبادلا بين البروتيستانت والكاثوليك، من أبناء الأمة الايرلندية الواحدة، وبعبارة أخرى فإن العداوة تمارس بين الأنجليز وأتباعهم وممثليهم (بما في ذلك الايرلنديين البروتيستانت) وبين الايرلنديين الكاثوليك المستضعفين!

إن هذا اللاتجانس والانفصال ذاته هو الذي أدى الى احتجاجات إيرلندية أخذت شكلا مشروعا في عصبات ورابطات منذ سنة 1850، كما أخذت شكلا ثوريا في جمعية «الفنيان» التي بدأت في المهجر (أمريكا) ثم انتقلت الى إيرلاندا ذاتها بزعامة جون ستيفانس [1] وهي جمعية تهدف الى إنشاء جمهورية ايرلندا.

ولقد عرفت هذه الحركة الانفصالية ضغطا متزايدا ومقاومة عنيفة من أنجلترا، مما جعلها تحدث قانونا استثنائيا خاصا بإيرلندا يمنح حق توقيف كل مشبوه مدة 6 أشهر دون محاكمة، وهو ما زاد في ثورية ونشاط الحركة، فتحولت الى عملية أكثر خطورة على الأمن والاستقرار، حيث صارت تضرب باستمرار وبعنف في نقاط متعددة من إيرلندا ومن أنجلترا ذاتها [2]، منذ ذلك التاريخ، وحتى هذه الساعة!

ومن نتائج هذا العنف المتبادل الذي ظل يغذيه التعصب المذهبي أن أحدث تعديلات في إيرلندا كان أهمها توقف توطيد الكنيسة الأنكليكانية في إيرلندا، حيث لم تعد منذ 1869 كنيسة للدولة، وفقدت بذلك حق الضرائب والجباية والسلطة السياسية، بل صودرت أموالها، مما أفقدها وضعها الممتاز داخل إيرلندا!.

لقد ظلت المشكلة الأساسية في إيرلندا قائمة في التعصب الممارس بين طائفتين دينيتين هما الكاثوليك والبروتيستانت، وهو ما فجر الحرب الأهلية التي تقودها الأقلية الكاثوليكية في ايرلندا الشمالية منذ 1969 ضد الأكثرية البروتيستانتية، مما أبقى ايرلندا غارقة في صراع ديني

(1) د. نور الدين حاطوم، الحركة القومية في أوروبا، ص: 250.

(2) المرجع السابق ذكره ،من ص: 253 الى 256.

متعصب تعود جذوره الى خمسة قرون، وجعلها أيضا تمثل مصدر إزعاج دائم للتاج البريطاني منذ ذلك الوقت وحتى الآن، لأن الأقلية (الدينية أو اللغوية أو العرقية) اذا ما غذاها التعصب تظل تتحين الفرص الى أن تجد التربة المخصبة لها للظهور من جديد كالبركان الخامد، وهو ما حدث في إيرلندا الشمالية، حيث شكلت الأقلية الدينية هناك حزبا وجيشا يسمى «الجيش السري الايرلندي» لضرب أبناء (الوطن) من غير الكاثوليك، وبالأحرى ضرب الأنجليز الأجانب، وهو ما يفسر توقيع اتفاقية 1985/11/15 [1] بين رئيسة وزراء بريطانيا ـ مارغريت تاتشر ـ ورئيس جمهورية ايرلندا، والتي تعطي إيرلندا الجنوبية حق المشاركة في حل مشكلة الأقلية الكاثوليكية في إيرلندا الشمالية.

ويبقى التعصب الطائفي قائما دون أية نهاية سعيدة تذكر لأي طرف مسيحي!!.

النموذج الثاني: يتمثل في الصراع السيخيي ـ الهندوسي القائم في الهند:

يشكل السيخ نسبة 2٪ من سكان الهند الإجمالي والذي يبلغ عددهم 780 مليون نسمة (1990)، وبذلك يمثل السيخ حوالي 15 مليون منهم، يتمركزون بولاية البنجاب، حيث يمثلون 60٪ من مجموع سكان الولاية، في حين تبلغ نسبة الهندوس بها 33٪.

تطالب هذه الأغلبية السيخية بولاية البنجاب بالانفصال عن الهند وبتكوين حكومة خاصة بهم، تحت رعاية حزب «أكالي دال»، وهذا ما دفع بالأقلية الهندوسية بالولاية (بالنظر الى عددهم الذي لا يمثل إلا نسبة 33٪) الى التعبير عن الاحتجاج الدائم والرافض ليس ضد السيخ فحسب، وانما ضد الحكومة المركزية وأجهزتها ومؤسساتها، خاصة مؤسسات الشرطة بالولاية، والتي يكوّن السيخ فيها 95٪ من مجموع أفرادها، وهذا له دلالته في الاصطدام بين الطوائف، رغم حيادية قائد

---

(1) صحيفة المجاهد (الجزائرية) الصادرة بتاريخ 1985/12/06.

الشرطة بالولاية (المسيحي الكاثوليكي) [1] من هذا نستنتج أن الصراع في ولاية البنجاب هو صراع بين أقليتين دينيتين داخل الدين الواحد هما:

- أقلية سيخية داخل المفهوم الهندي الكلي.
- أقلية هندوسية داخل المفهوم السيخي في ولاية البنجاب.

وهذا ما يفسر عزل السيد «سورجات سنيغ بارنالا» كبير وزراء ولاية البنجاب، واتهامه بالكفر، لمجرد تبنيه سياسة الحكومة المركزية في نيودلهي، وهو حدث يبرز الطابع الديني للحزب السيخي «أكالي دال» الذي يجد تأييد والتفاف الجماهير حوله انطلاقا من المعابد، حيث يلعب رجال الدين في هذا الحزب دور الساسة والقادة والموجهين للجماهيرا ومن هذا أيضا تبرز طبيعة الخلاف - وأحيانا الصدام - بينه وبين حزب المؤتمر الهندي - الحزب المركزي الحاكم - لقيام هذا الأخير على طبيعة غير دينية، وهذا بالرغم من انه ظل من وراء حركية الأحداث الاجتماعية والسياسية في الهند كله أكثر من نصف قرن من الزمان.

تعتبر الملة السيخية من آخر الملل ظهورا في الهند، ومن أقلها أتباعا لكنها ملة تشكل أغلبية سكان البنجاب ومنطقة هاريانا ودلهي، كما ينتشر أفرادها في ماليزيا وسنغفورة وفي شرقي افريقيا، وفي أنجلترا وكندا والولايات المتحدة وفي الخليج العربي [2].

يتميز السيخي من حيث المظهر عن غيره من الناس بارتداء العمامة المطرزة، وبالشعر المسدول الذي لا يقص شعرة منه، وبالأسورة الحديدية في المعصم من اليد اليمنى وهي كلها أركان تطبيقية في العقيدة السيخية القائمة على خمس «قواعد» هي:

- الكيسا، ومعناها ألا يمس المرء شعرة منه بمقص.
- الكانغا ومعناها المشط.
- الكاتش ومعناها السروال العسكري.
- الكارا ومعناها السوار الفولاذي.

---

(1) مجلة «العالم» الصادرة بتاريخ 1987/07/18 العدد 179.
(2) مجلة العربي - أغسطس 1984، العدد: 309.

- الكابريان ومعناها السيف ذو الحدين.

إنها مميزات ثقافية ودينية «فولكلورية» تعطي للفرد السيخي شعورا بالتميز والتعالي والتعصب والتفرد عن بقية الناس.

يعود السيخ في الأصل الى فرع الديانة الهندوسية البرهمية، وهي إحدى الديانات الخمس الكبيرة المنتشرة في الهند [1]، إلا أن بعض المثقفين من مسلمي الهند يرون أنهم كانوا منهم ثم انحرفوا بالعقيدة [2]، في حين يرى علماء الهند أن السيخ كانوا دعاة توحيد حسب دعوة مرشدهم (نانك» مؤسس المذهب (ولد سنة 1446 ومات سنة 1539) وهو مصلح اجتماعي ديني رفض التراكمات الوثنية على الهندوسية، ورفض التعدد ، فدعا الى فكرة توحيدية بسيطة ومنظمة، لكنه لم يرفض فكرة وحدة الكون والتناسخ التي تؤسس الهندوسية، وخاصة مفهوم «الاوم» الصوفي الذي يرمز الى الله، والذي أضاف اليه «نانك» رمز «أيك» ورمز «أوم كار» فصار بذلك الله الواحد الخالق، والحق الخالد الذي لا تدركه الأبصار (اسم سات نام) أي الاسم الحق [3].

لعل هذه الاشتقاقات والتقارب في بعض المفاهيم السطحية بين الإسلام والسيخية هو الذي دفع بالبعض الى القول انها إحدى الملل الإسلامية التي انحرفت بالعقيدة نتيجة خلاف بين واحد من زعماء السيخ وملك من ملوك المسلمين، فاستقل هذا الزعيم بولاية البنجاب، وعبر عن خروجه من الإسلام بعدم أكل ما يذكر اسم الله عليه من الذبائح [4]، لكننا نرى أنها فرع من الهندوسية لأنها بعيدة جدا عن كل ما هو إسلامي وموغلة في الوثنية الهندوسية.

يعتقد السيخ في (المعلم) وهم عندهم عشرة، أولهم (نانك) الذي تولى بعده تسعة معلمين، حمل كل منهم لقب (فورو) يظل وراء الظل

---

(1) (البرهمية، الإسلام، البوذية، المسيحية، الجينية).

(2) مجلة الجيل فبراير 1987.

(3) مجلة العربي، السيخ، بقلم: د. شاكر مصطفى، العدد: 309 أغسطس 84.

(4) مجلة الجيل، مقال: الإسلام والمسلمون في الهند، (نفس المرجع المذكور).

الالهي وتنتقل الروح من أحدهم الى الآخر انتقال النور (هذه هي نقاط الالتقاء بين الملة السيخية والهندوسية والبوذية عموما)، لهم من المعجزات والخوارق ما لا حصر له، اذ يبني في موقع كل معجزة معبدا ويعتبر معبد هاريما ندير (المعبد الذهبي) أولهما في أمريتسار وأقدمهما على الإطلاق.

يعد «هارغويند» المعلم العاشر وخاتم المعلمين في الديانة السيخية، وهو بهذا الختم أغلق الباب من بعده لكنه فتح على العقيدة السيخية فتحا فريدا في عقائد الهند كلها، وهو باب القتال العسكري، الذي أعطى المقاتل لقب (سينغ) ومنه الحرب التي قادها (بانغا سينغ بهادر)، (1670 الى 1716) ضد المغول المسلمين حتى اعتقل وقتل.

لكن أتباعه من الفارين شكلوا فريقا من الصعاليك استطاع الوصول الى تشكيل دولة في البنجاب 1799م، وتوجوا (رانفيت سينغ) مَهْراجا عليها سنة 1801م والذي تمكن من الصمود في وجه الأنجليز الذين لم يتمكنوا من تقليص مملكته إلا بعد وفاته، أي منذ 1839، حيث تحول معظم السيخ الى أعوان للأنجليز، ومن فصائل جيوشهم الممتازة [1] حتى أن السيخ نالوا رعاية خاصة من الأنجليز، نتيجة المصلحة المتبادلة بينهما، ففي حين أولوا الاستعمار الولاية أولاهم الحماية من الهندوس والمسلمين.

إلا أن حركة غاندي أيقضت الجماهير السيخية، كما فعلت مع الجماهير الهندية، لكن استقلال الهند بدأ بمأساة التفرقة والتقسيم على أساس عرقي - ديني، ذلك أن أول ما عملت بريطانيا على توطيده في الهند منذ استعمارها هو إشعال نيران الخلاف والتفرقة والتعصب بين الملل والنحل فيها، كما أن أعظم عمل استعماري ناجح اتسمت به بريطانيا هناك، هو تنصيب العداء المزمن بين المسلمين والهندوسيين والسيخ، وهو ما عمل على إخفاق مؤتمري (سليما) و (نيودلهي) سنتي 1945 و1946،

(1) د. شاكر مصطفى، السيخ، مجلة العربي، العدد: 309 أغسطس 1984، ص: 32.

ومنع تشكيل دولة اتحادية كبرى، وهو أيضا ما انتهى بتقسيم الهند إلى دولة باكستان إرضاء لمطالب المسلمين بزعامة محمد علي جناح، ودولة الهند إرضاء لزعامة غاندي، وهذا وفق خطة اللورد «مونتباتن».

هذه هي أهم أسباب وظواهر التعصب الديني والطائفي في هذا البلد وأهم الفتائل المستعملة التي ما انفكت تعمل على تفجير الاضطرابات بين المسلمين والهندوس والسيخ، مما أنتج إبادات حقيقية، ومذابح أفرزت حركات جماهيرية، فكان من نتائج هذه الاضطرابات ـ في سنة واحدة ـ أن غادر أكثر من ستة ملايين مسلم الأراضي الهندية في اتجاه باكستان «الانفصالية»، بينما هاجر البلاد أكثر من خمسة ملايين ونصف من الهندوس إثر شعورهم بعدم الأمان. وهو ما أدى سنة 1948 الى اتفاق نيودلهي الذي يؤمن حماية وأمن الأقليات في الهند، إلا أن هذا لم يمنع من وجود هذه النزاعات الطائفية الى اليوم، وخاصة منها المشكلة السيخية، مما جعل أتباع هذه الطائفة يشكلون خطرا حقيقيا في الهند يضاف الى توغلهم في نخاع القوة المسلحة الهندية لقيام الروح العسكرية فيهم وفق دينهم، والى تربع الكثير منهم على مراكز سامية وحساسة في الدولة، حتى أن رئيس جمهورية الهند « زايل سينغ » سيخي، والقائد «رانفيت سينغ» الذي قاد هجوم سنة 1984 على المعبد الذهبي، سيخي أيضا، وحراس أنديرا غاندي من السيخ، ولهذا فإن مقتل أنديرا غاندي على أيديهم هي من الأمور المستغربة، ولكن الضغط يولد الانفجار بالضرورة!

إن مقتل أنديرا غاندي أدى الى تجاوز الحدود الدستورية الفيدرالية للهند، فوضعت ولاية البنجاب تحت الحكم المباشر للحكومة المركزية في نيودلهي وهو قرار اتخذه (راجيف غاندي» بتاريخ 11 ماي 1987، وهي محاولة لانهاء العنف الذي يقوم به السيخ المتطرفون، إلا أن هذا القرار

ضاعف من عنفهم الذي هو من طبيعة دينهم، مما أدى الى تصعيد المعارضة الهندوسية بشقيها: اليمين واليسار، حيث حملت حكومة راجيف غاندي مسؤولية تردي الوضع في الهند، وهو ما شجع على مضاعفة أعمال العنف والاصطدامات بين جماعات اليمين الهندوسية وشرطة الحكومة [1].

وآخر ما وصلت اليه المشكلة السيخية هو موافقة البرلمان الهندي على تمديد وضع البنجاب تحت الحكم الفيدرالي لمدة 6 أشهر أخرى تبدأ من شهر ماي 1988، أملا في الوصول الى وضع حد للاضطرابات الدامية والدائمة التي يقوم بها المتطرفون السيخ والمعتصمون بالمعبد الذهبي كعادتهم، وقد لا يخلو يوم من أحداث دموية يعبر بواسطتها هؤلاء عن وجودهم وعن مطالبهم الانفصالية، اذ تطالعنا الصحف والمجلات والاذاعات يوميا تقريبا بعمليات عنف وقتل وتفجير، وقد بلغ عدد القتلى حتى منتصف سنة 1988م أكثر من ثمانمائة قتيل [2]!

والختام (المؤقت) لمأساة التعصب الطائفي في هذا البلد العجيب هو القتل الشنيع لراجيف غاندي ذاته (ابن انديرا غاندي) بنفس الأيدي الطائفية المتعصبة التي قتلت أمه قبل ذلك!!

النموذج الثالث: يتمثل في التعصب الناتج عن الاختلاف المذهبي في الإسلام:

ونظرا لأن الاختلاف المذهبي في الإسلام جله اختلاف في الفروع وليس في الأصول، وأن هذا الاختلاف ليس جوهريا بالنسبة للإسلام، خلاف ما هو عليه الشأن بالنسبة للمسيحية والهندوسية... ولمعرفة مدى مصداقية المقولة الشهيرة بأن «اختلاف المذاهب رحمة» نود أن نقف مطولا عند هذا الموضوع لنعرف منشأ الخلاف، وأسباب نشوء

---

(1) مجلة العالم، 18 يوليو 1987، العدد: 179.

(2) جريدة الشعب الجزائرية، الصادرة بتاريخ 8 ماي 1988م.

المـــذاهب ومظاهر التـعـصب المذهبي في الإسـلام كـمـا تبـدو فـي بعض الحالات غير السوية!

أولا ـ نشأة المذاهب الفقهية:

كـان فـي عـهـد الرسـول (صلعم) مـذهب واحد وهو مـذهبه وجمـيع الصحابة كانوا متمسكين بهذا المذهب الوحيد، لأن الرسول (صلعم) كان يبين الأحكام المنزلة من الله عز وجل ويفتي ويحكم ويقضي بين أصحابه وأحيانا كان يشاورهم وأحيانا كان يأمر أحدهم أن يجتهد أو يقضي فيما وقع، ولكنه كان يعمل بما رأى وكان يقر آراء الصحابة، وما لم يقرّه من اجتهاد الصحابة كان كأن لم يكن، وجرى الأمر في عهد الصحابة بعده على هذا المنوال، وكان المذهب الوحيد في عهدهم أيضا هو مذهب الرسول (صلعم)، والمسلمون كانوا يستفتون أحدا من الصحابة فيما وقع لهم، ولكن كانوا لا يتقيدون بصحابي معين، فاذا وقعت لأحدهم واقعة مرة أخرى كان يستفتي صحابيا آخر، وهكذا...

وفي عـهد التابعين، ومن بعدهم نشأ فـقهـاء جدد اقـتبسـوا من فيوضات الصحابة المخلصين في آرائهم، ولكن سرعان ما حصل الخلاف بين آرائهم وأقوالهم، واختلط الأمر وتأسست تبعا لذلك مدرستان: مدرسة الرأي في العراق ومدرسة الأثر في الحجاز. فكان أهل العراق يتمسكون بما وصل اليهم من الآثار، وأما اذا لم يجدوا فيما نزل فيهم من النوازل أثرا يستفيدون من معطيات العقل ويجتهدون فيه، وأما أهل الحجاز فكانوا لا يحتاجون في أكثر الأحوال الى مراجعة الرأي بسبب كثرة الأحاديث والآثار عندهم، وكانت رئاسة مدرسة أهل الرأي بيد إبراهيم النخعي، وكانت رئاسة مدرسة أهل الآثار بيد سعيد بن المسيب، وانتقلت رئاسة مدرسة الرأي الى أبي حنيفة، ورئاسة أهل الحجاز الى الإمام مالك، وبعد قليل نشأ الإمام الشافعي وركز أسس مذهبه على الأثر واستعمل الرأي بمهارة عجيبة وألف بين الأثر والرأي، والحديث يترجح

على الرأي في مذهبه، وأما الإمام أحمد بن حنبل، فكان يميل الى الاستناد على الأثر في تأسيس مذهبه.

ومن الأمور الضرورية التي ينبغي الإشارة إليها، هي أن نشأة مدرسة الحديث لم تكن نشأة كرد فعل لمدرسة الرأي، وانما هي نشأة سعيدة لصيانة السنة من الاندراس، ولحماية حقائق الإسلام وعناية أولي العلم والنهي وتعاضدهم في آرائهم وأفكارهم، ولم يقع بين هذا وذاك أي خلاف في حقيقة الأمر إلا عند بعض المتعصبين!

ثانيا- الاختلاف في المفهوم الاسلامي:

اذا كان الإسلام ينهى عن الاختلاف ويشجبه ولا يرتضيه للأمة الإسلامية، فانه لابد من التنبيه الى أن الاختلاف ليس نوعا واحدا ولا يمكن تفاديه كله. فالاختلاف الناشيء عن تفاوت المدارك وتباين طرق النظر الى الأشياء، لا يمكن إلا أن يكون خلافا طبيعيا، كما أن الاختلاف عن الغير حين ينحرف هذا الغير ليس إلا وجها من أوجه الثبات على الحق، فهو بهذا اختلاف محمود. والاختلاف العلمي الذي ينتجه البحث والتعمق في الأشياء اختلاف إيجابي يثري حصيلة البحث العلمي.

أما الاختلاف الممدوح فهو مخالفة المسلم للشرك، ولصاحب البدعة والضلال، ولو تسمّى باسم المسلم فلا يجوز موالاته بدعوى وجوب التوحد بين المسلمين.

أما الاختلاف الجائز فهو ما وقع بين المجتهدين المؤهلين حول النصوص التي تحمل معاني متعددة فيحملها أحدهم على أحد مدلولاتها، ويحملها البعض الآخر على مدلول آخر، فينشأ عن ذلك اختلاف مشروع.

لقد أعطى القرآن الكريم مثالا للاختلاف الناشيء عن استدلال صحيح وزكاه، فقد قص قصة داود وسليمان (عليهما السلام) اذ عرضت عليهما نازلة غنم نفشت في زرع قوم ليلا فأفسدته فقضى داود بتعويض رب الزرع من الأغنام الى صاحب الزرع الضائع، لكن سليمان رأى أن من مصلحة الطرفين أن يسلم صاحب الزرع المتضرر الأغنام ليستفيد منها

ويستبقي الحرث بيده ليصلحه، فإذا عاد لهيأته الأولى أعاد صاحب الزرع لخصمه أغنامه [1].

وقد سجل الله النازلة وحكم للأب والابن بالعلم لكنه رجح حكم الابن فقال عز وجل: **«وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا»** {سورة الأنبياء الآيات: 78-79}.

ودلالة الآية واضحة في إمكان الاختلاف بعد الاجتهاد، كما أنها واضحة في أن الحق لا يتعلق بصغر سن أو كبره.

ثالثاً ـ مجال الاختلاف:

ان الاختلاف نوعان:

اولهما اختلاف في أصول الدين، وهو حرام بإجماع المسلمين، لما يترتب عليه من الخروج من الدين، وبسببه ضلت كثير من الفرق، وهو ما يشير اليه قوله تعالى: «... **وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا...**». {سورة الروم الآية: 32} وقوله تعالى: **«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ»**. {سورة الأنعام الآية: 159} وقد نهانا الله عزّ وجل صراحة عن هذا النوع من الخلاف فقال: **«وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»**. {سورة آل عمران الآية: 105}

النوع الثاني: اختلاف في الفروع، كاختلاف المذاهب الفقهية في المسائل الفرعية ثم الاختلاف بين فقهاء المذهب الواحد بحسب ما تيسر لكل واحد منهم من وسائل الفهم والاجتهاد... وهذا النوع من الاختلاف لا ضرر فيه، بل هو مظهر من مظاهر حيوية هذا الدين ومرونته ليحقق أهليته في كل زمان ومكان، فهو إذن أمر لابد منه، وأيضا فإن هذا النوع

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي.

من الاختلاف لا يكاد يسلم منه البشر لتفاوتهم في الفهم والإدراك، والنهي عنه من قبيل التكليف بما لا يطاق، والله تعالى يقول: «**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**». [سورة الحج الآية: 78]

رابعاً ـ اختلاف الفقهاء:

واختلاف الفقهاء هو من النوع الثاني، أي الاختلاف في الفروع، وهو أمر لا ضرر فيه لأنه ليس في الشريعة ذاتها، وانما في وجهة نظر العاملين بها، ويؤيد ذلك قوله تعالى: «... **وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**...»، [سورة البقرة، الآية: 213] ومن طبيعة البشر الاختلاف في العقول والأفهام واستواؤهم في ذلك أمر لا سبيل اليه، وهذا النوع من الاختلافات محمود عند بعضهم، قال ابن القاسم: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز: «ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحد بقول رجل منهم كان في سعة». وقال مثل هذا جماعة من العلماء.

وقد وقع مثل هذا الاختلاف بين الصحابة (رضي الله عنهم) كما وقع بين التابعين، وإلا فكيف يستقيم القول: **إن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان،** لو لم يكن الفقهاء في سعة من أمرهم، يجتهدون في الفروع بما يلبي حاجات المجتمعات المختلفة ومتطلبات الحياة المتجددة... ولو حجر على الناس هذا الباب وجمدت النصوص الفرعية لاضطر الناس الى مخالفة الشريعة بحكم تجدد الحاجات... ولا يتصور أن تشتمل النصوص الشرعية على كل ما يكون في مستقبل حياة الناس، ومن هنا كان منطق الاجتهاد والاختلاف فيه داخل إطار الفروع.

ومن هذا القبيل ـ إذن ـ كان الاختلال في الفهم بين السلف الصالح والأئمة المجتهدين إلى يومنا هذا.

خامساً- أسباب اختلاف الفقهاء:

إن اختلاف الفقهاء في الفروع أمر لابد منه، بل هو واضح ولا يسلم منه بشر لتفاوتهم في فهم الأدلة المختلفة، واختلاف منهاجهم في الاستنباط، ولقد أمضى رسول الله (صلعم) نتائج الاجتهاد وقبلها في قول ما معناه: «من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد»، ومن المسلم به أن الاجتهادات تختلف باختلاف المجتهدين لتفاوتهم في الفهم والإحاطة بالسنة المطهرة وطرقهم في قبول خبر الآحاد.

إن التعامل مع النصوص يؤدي بطبيعته الى شيء من التباين والاختلاف في الفهم والادراك سواء كان النص ذا طابع تشريعي أو أدبي أو تاريخي... فاذا كان عدي بن حاتم (وهو العربي القح) يشكل عليه معنى الخيط الأبيض من الخيط الأسود من قوله تعالى: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ»، [سورة البقرة الآية: 187] فيصرف معنى الخيط الى أقرب مدلول حسي، فإن هذا ليس إلا مثالا لما وقع للصحابة من تفاوت في الإدراك نجم عنه بالطبع اختلاف في مستنبطات النصوص التي هي الأحكام الشرعية، إن الصحابة على تمكنهم من ناحية اللغة التي رضعوها من أثداء أمهاتهم، وعلى كثرة اتصالهم بالرسول (صلعم)، قد اختلفوا في أحكام عدة، فتباينت أنظارهم في حكم مانعي الزكاة وفي قسمة الغنائم، وفي قتل الجماعة بالواحد، وفي إرث الجد، وفي كثير من القضايا الاجتهادية، الا أن اختلافهم هذا ليس إلا لونا من ألوان الاختلاف المباح الذي يقع لجميع الباحثين في العلوم الإنسانية في الوقت الحاضر.

وهكذا فلم يمض عصر الصحابة حتى خلّف اتجاهات فقهية واضحة، كانت هي منطلق المذهبية الفقهية، فلقد ذكر ابن حزم أن أهل كل بلد قد اتبعوا الصحابي الذي تفقهوا به، فقد اتبع أهل المدينة في الأغلب فتاوى ابن عمر،واتبع أهل الكوفة فتاوى ابن مسعود، واتبع أهل مكة في الأكثر فتاوى ابن عباس. ولكل واحد من هؤلاء منحى في الاجتهاد، وعن هذه

المناحي تشكلت المذاهب الفقهية التي لم تكتسب صفة المذهب إلا باعتبار اختلاف أساليبها في الاستنباط واعتمادها هذا الأصل في الاجتهاد قبل غيره، وتقديمها إحدى الدلالات على غيرها ، فعلى هذا يكون الخلاف بين المذاهب خلافا حول المنهج والطريقة، لا حول وجوب الأخذ بسنته صلى الله عليه وسلم، ومن المتأكد أن الأئمة لم يكونوا يقصدون الى التميز بإنشاء مذهب، وانما كان شاغلهم الأساسي هو البحث عن الحق بحسب ما تأسس لديهم من أصول.

ويمكن إجمال الدواعي والأسباب التي فرضت الاختلاف في النقاط التالية:

1 ـ الدواعي اللغوية الافرادية والتركيبية.

2 ـ الدواعي الحديثية.

3 ـ الدواعي الأصولية التي هي جملة القرارات التي يعتمدها مذهب معين.

1ـ الدواعي اللغوية:

من المعلوم أن المفردة الواحدة في اللغة العربية قد تحمل معاني عدة يفرضها الاشتراك اللغوي أو الموقع التركيبي أو قابليتها للحقيقة والمجاز، كما يتحدد مدلولها بناء على الباب النحوي الذي تحل فيه، لهذا كان ضروريا أن تراعى جميع الأوضاع والكيفيات التي تطرأ على الكلمة فتحدد معناها.

أ ـ الاشتراك اللفظي: وهو أبرز وأقوى أسباب الاختلاف، وهو كما عرفه الأصوليون بأنه اللفظة الموضوعة لحقيقتين مختلفتين [1] أو أكثر، وله أمثلة كثيرة في القرآن والسنة. فمن أمثلته فعل «قضى» الذي يرد بمعنى حتم كما في قوله تعالى: **«فيمسك التي قضى عليها الموت»**، [الزمر: 42]، ويرد بمعنى أمر كما في قوله تعالى: **«وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ»**، [الإسراء: 23]، وبمعنى أعلم كما في قوله تعالى: **«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ»**، [الاسراء: 4]. وحيث أن الاشتراك اللفظي يستدعي

---

(1) كشف الأسرار لعبد العزيز النجاري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ص: 38.

عدة معان، فقد اختلفت أنظار العلماء إليه، فجوز الشافعي والباقلاني وبعض المعتزلة كالجبائي والقاضي عبد الجبار أن يصرف اللفظ المشترك الى جميع معانيه إذا لم تكن متضادة، ولم يروا اصطفاء أحد المعاني، لأن ذلك ترجيح بغير مرجح، وعندهم أنه لا مانع من ايراد جميع معاني الاشتراك عليه كما في قوله عز وجل: «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ**»، (الحج: 18)، فمعلوم أن لفظة السجود الواردة لا يصدق على الأشجار والجبال والدواب بمثل ما تصدق على الإنسان الذي له إرادة يتحمل التكليف.

ب ـ تردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز: لا مجال للخوض هنا في مسألة تضمن القرآن للمجاز، فلذلك مجال آخر، والواقع أن الصحابة اختلفوا في انزال الجد منزلة الأب، واختلف الأئمة بعدهم بسبب المجاز، فقرر الشافعية أن الدلالة المجازية دلالة ضرورية على خلاف الأصل، لذلك تقدر بقدرها ولا يتوسع فيها، أما الأحناف فقد اعتبروا الدلالة المجازية دلالة عادية جارية على مقتضى اللغة، ومنعوا أن تكون ضرورة [1].

وتبعا لهذا الاختلاف الأصولي فقد اختلفوا في فهم قوله صلى الله عليه وسلم، لا تبيعوا الصاع بالصاعين فوقفت به الشافعية عند أقل ما يحتاج الى الاكتيال بالصاع، وهو الطعام، فمنعوا ربا الفضل فيه دون غيره.

ووسعت الأحناف جريا على أصلها في اعتبار الدلالة المجازية دلالة عادية فمنعت التفاضل في كل مكيل [2].

جـ ـ الاختلاف المتسبب عن الحركة الإعرابية: من المعلوم أن الحركات الإعرابية دالة على الباب النحوي الذي تحتله الكلمة، كالفاعلية والمفعولية والإضافة، وهي معان متباينة تفصح عنها الحركة الإعرابية،

---

(1) كشف الأسرار، نفس المصدر السابق، ص: 40.

(2) الأسماع الى معرفة أصول الرواية للقاضي عياض، تسبيق أحمد صقر، ص: 150 دار التراث القاهرة.

ولقد رويت أحاديث كثيرة بأكثر من وجه إعرابي فنتج عن اختلاف الحركة اختلاف الفهم، ونتج عن اختلاف الفهم اختلاف الحكم الشرعي المستنبط من اللفظ، وقد تجاوز هذا الاختلاف نصوص السنة الى القرآن الكريم، فقد قرأ نافع وابن عامر والكسائي والجمهور قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِذَا قُمــتُمْ إِلى الصَّلاَة فَــاغْسِلُوا وُجُــوهكُمْ وأَيْدِيكُم إِلى المرافِقِ وامْسَحُوا بِرُؤُوسكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَــيْن»، [المائدة: 6]، بنصب اللام من ارجلكم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة بجر اللام، فانتهى الأمر الى الاختلاف في حكم الرِّجْلين في الوجوب، فاعتمد ابن عباس قراءة الجر عاطفا الأرجل على قوله برؤوسكم فرأى وجوب مسح الأرجل، ولعله قد تراجع وأخذ برواية النصب، لكن ابن جرير الطبري كان من مذهبه جواز مسح الرجلين دون غسلهما.

أما الأحاديث التي انتهى الاختلاف في فهمها على اختلاف قراءتها، فهي لا تكاد تحصى كثرة، وقد استعرض القاضي عياض في الالماع نماذج لها كقوله صلى الله عليه وسلم: «ذكاة الجنين ذكاة أمه» برفع كلمة ذكاة الثانية، فكان المعنى أنه ذكاة الأم من الماشية هي نفسها ذكاة لجنينها، وهو ما فهمته المالكية والشافعية من الحديث وأسس عليه حكمها بعدم تذكية الجنين، أما الحنفية فقد قرأوا كلمة ذكاة الثانية بالنصب فكان المعنى ذكّ الجنينَ ذكَاةَ أمّه، فيجب تذكيته أيضا وقد اختلفوا في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث ما تركناه صدقة» فإن قرأت كلمة صدقة بالرفع كانت خبرا للإسم الموصول (ما) لكن الإمامية رجحت النصب، فكان المعنى أن الأنبياء لا يورثون فيما يتركونه صدقة [1].

2 ـ الدواعي الحديثية:

الحديث النبوي ثاني أصلين اتفاقيين تستند إليهما الأمة الإسلامية في الاستنباط، ولقد حرص أئمة الاجتهاد خصوصا على الاستكثار منه،

---

(1) رفع السلام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية، ص: 15.

ومع ذلك فإنه لم يتيسر لمجتهد أن يلم بجميع الأحاديث أو يحيط بها علما، وبهذا يكون أهم أسباب الاختلاف بين الفقهاء الجهل بالأحاديث، فقد يفتي المجتهد غير عالم بحديث في الموضوع، فيكون الغالب على أمره أن يخالف معنى الحديث الذي لم يصله، وليس ينقص من أقدار المجتهدين أنهم لم يحيطوا بالحديث علما، لأن ذلك لم يتيسر حتى للصحابة على كثرة اتصالهم بالنبي (صلعم) وقلة الوسائط بينهم وبينه.

3 ـ الخلاف المتولد عن الاجتهاد في الأصول:

لقد سبق الالماع الى أن من أصحاب رسول الله (صلعم) من كان يميل الى الأخذ بالرأي والنص، كما كان منهم من كان يقف عند النص لا يعدوه ولا يتدخل فيه برأي، وقد كان في الجند الذي بعث به صلى الله عليه وسلم الى بني قريضة من يمثل هذا الاتجاه، ومن يمثل ذاك، وقد سار الفقه الإسلامي نفس المسير فانشطر الى شطرين، أحدهما يضم الواقفين عند ظواهر النصوص، وهم الظاهرية الذين يمثلهم داود بن علي الظاهري وابن حزم الأندلسي، وثانيهما قسم الجامعين بين النص والرأي.

فلقد اعتمدت الشافعية القياس وجعلته ركنا متينا تلجأ اليه في الاجتهاد، وتوسعت الأحناف في الرأي فقالت بالاستحسان، وأضاف المالكية وبعض الحنابلة القول بالمصالح المرسلة، ونظرا لتباين المنطلقات فقد تباينت حظوظ المذاهب في الأخذ بهذا الأصل أو ذاك، فكان لذلك كله انعكاس على النتاج الفقهي لهذه المذاهب.

4 ـ الخلاف الناشئ عن اختلافهم في العمل بخبر الآحاد:

من المعلوم أن معظم الحديث الذي بأيدي المسلمين هو من قبيل الأحادي الذاتي، وبما أن الأحادي ليس قطعي الثبوت، فقد اختلفت أنظار الفقهاء اليه فاعتمده بعضهم بإطلاق، واشترطت الأحناف للعمل به أن لا يكون منقطعا من حيث المعنى ولا من حيث الرواية.

ويتحدثون ضمن الانقطاع المعنوي عن صور:

أ ـ أن لا يكون مخالفا لنص الكتاب، يقول السرخسي: اذا كان الحديث مخالفا لكتاب الله فإنه لا يكون مقبولا ولا حجة للعمل به.

ب ـ من القوادح الراجعة الى الراوي تصرفه بتعيين أحد احتمالات الحديث ومعانيه التي يقبلها فيكون بذلك ناقلا له من ظاهره الى معنى محتمل، وهو ترجيح واجتهاد غير ملزم، ومثاله حديث ابن عمر أن النبي (صلعم) قال: «المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا» وهو يحتمل التعرف بالأقوال، على حد قوله تعالى: «وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ»، [النساء: 107]، كما يعني التفرق بالأبدان، وقد كان ابن عمر اذا أوجب البيع مشى هنيهة ليحصل له الافتراق.

ج ـ من أسباب الانقطاع بسبب الرواية ما يتصل بالصحابة خاصة فإن هم عملوا بخلاف محتوى الحديث كان ذلك مشيرا الى عدم صحته عندهم، فقد روى الرجم والجلد في عقوبة الزاني المحصن، لكنهم اكتفوا بالرجم، ولم يجمع عمر على الزاني البكر بين الجلد والتغريب، وقال علي كفى بالنفي فتنة، فدل هذا كله على انتساخ الحديث السابق، أو عدم ثبوته عندهم، أما ما كان الانقطاع فيه راجعا الى أئمة الحديث، فذلك يشمل كل الأحاديث التي ردها المحدثون وضعفوها بموجب ما اتصل في علم المصطلح من القواعد.

فهذه الصور كلها ترك الأحناف فيها العمل بالآحاد لقيام الشبهة عندهم.

سادسا ـ الفقه الاسلامي بين التعصب والتسامح:

من المؤسف أن يقترن الفقه في أذهان بعض الباحثين بالتعصب حتى لكأن التاريخ الفقهي ليس إلا تاريخ تحجر على أقوال الأئمة وترويج لها من غير محاولة لاستشراف ما في المذاهب الأخرى، ولما ساد هذا التصور الخاطىء، فقد انطلقت الصيحات الكثيرة الداعية الى نبذ التمذهب لكونه مسؤولا عن التعصب، وما نتج عنه من تفريق لصفوف الأمة الإسلامية،

وقد تبدو هذه الأطروحة شائقة وجذابة، إلا أن البحث المتأني في تاريخ الفقه يفيد أن الأمة الإسلامية قد تأرجحت بين التعصب للمذهب، وبين التسامح المنفتح الذي يتسع لسماع الرأي الآخر.

ولقد كان التعصب على الدوام مقترنا بضآلة العلم بالفقه وبأسباب الخلاف، وكان أشد ما يكون تجليا في فترات الهبوط الفكري، أما التسامح فقد كان سمة العلماء المتعمقين المتضلعين، لعلمهم بالأسس التي قامت عليها المذاهب الأخرى، ولمعرفتهم بمآخذ الأقوال ومنطلقاتها، وقد كان هذا التسامح أكثر ما يكون تجليا في الفترات الذهبية من تاريخ الأمة الإسلامية، ولتأكيد وجود التسامح في تاريخ الفقه الإسلامي، فإنه لابد من الإشارة الى الشواهد التالية:

1 ـ فقد روى الشافعي عن مالك فقال: ما أحد آمن علي من مالك، وجعلت مالكا حجة بيني وبين الله، واذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال مالك عن الشافعي: كان أفقه الناس في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

2 ـ تواضع الأئمة وعدم تشددهم فيما وصلوا اليه، فقد قال أبو حنيفة: هذا أحسن ما وصلنا اليه، فمن رأى خيرا منه فليتبعه، وسئل هل الذي انتهيت اليه هو الحق الذي لاشك فيه فأجاب: لا أدري لعله الباطل الذي لاشك فيه، وقد رفض مالك أن يحمل الناس على مذهبه ووسع في الأخذ بما انتهى إليهم من الأقوال.

3 ـ تقدير العلماء النابهين لجهود الأئمة وإكبارهم لآثارهم ولو كانوا على خلاف مذاهبهم، ومن ذلك أن يؤلف بعض العلماء في مناقب إمام آخر ليس على مذهبه، لقد ألف أبو محمد داود الظاهري كتابا في مناقب الشافعي، وألف ابن عبد البر المالكي كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة أئمة الفقهاء، فترجم لمالك والشافعي وأبي حنيفة، وألف السيوطي الشافعي كتابه «تزيين الأرائك بمناقب الإمام مالك»، وكتاب «تبييض الصحيفة بمناقب أبي حنيفة»، وألف مرعي المقدسي في مناقب الأئمة الأربعة.

4 ـ استحضار بعض العلماء لأكثر من مذهب وإفتاؤهم بذلك. فقد كان سراج الدين البلقيني يفتي على المذاهب الأربعة، وكتب أبو محمد ابن رشد بداية المجتهد ونهاية المقتصد عارضا آراء المذاهب.

5 ـ لقد نبه العلماء الى استحسان عدم التوغل في الخلافات الجزئية الواقعة بين المذاهب ودعوا الى الوقوف عند النقط الجامعة بين المذاهب.

6 ـ من أثر التسامح أن ينص الفقهاء على أن الخلاف المذهبي لا أثر له في صحة العبادة، فقد جوزوا صلاة الشافعي خلف المالكي والحنفي، على ما بينهما من افتراق في موضوع البسملة، وقد كان الامام الواحد يؤم المسلمين على اختلاف مذاهبهم خصوصا في بيت الله الحرام، ولم تعرف المساجد الأروقة الخاصة بالمذاهب إلا في أزمنة الانحطاط والتدني، بل قد جوزوا أن الرجل يصلي الظهر بمذهب مالك، والعصر بمذهب الشافعي.

7 ـ لقد اعتمد عامة الفقهاء أصل الخروج من الخلاف وهو أصل يقضي بمحاولة الجمع بين المذاهب ورعايتها ما أمكن ذلك، فاستحبوا الدلك ومسح جميع الرأس للشافعي، وإن كان غير واجب في مذهبه رعاية للمذاهب التي توجبه، واستحبوا الترتيب في الوضوء الحنفي، وترك الوضوء بالماء المستعمل للمالكي، وقد أمعن القرافي في بيان هذا الأصل وتحدث عنه تحت عنوان: الورع فقال: من الورع الخروج عن خلاف المذاهب بحسب الإمكان، فإن اختلف العلماء في فعل هل هو مباح أو حرام فالورع الترك، أو هو مباح أو واجب فالورع الفعل ، مع اعتقاد الوجوب، أو واجب فالورع الفعل، حذرا من العقاب وترك الواجب والفعل المكروه لا يضره، وإن اختلفوا هل هو مشروع أولا، فالورع الفعل لأن القائل بالمشروعية مثبت لأمر لم يطلع عليه النافي والمثبت مقدم على النافي، كتعارض البينات وذلك كاختلاف العلماء في مشروعية الفاتحة في صلاة الجنازة، فمالك يقول ليست مشروعة، والشافعي يقول هي مشروعة واجبة فالورع الفعل، ليتيقن الخلوص من إثم ترك الواجب على المذهب.

8 ـ من مظاهر التسامح الماثلة في التراث الفكري الإسلامي أن كتبا كثيرة قد ألفت مبرأة من التعصب، وكان دأب أصحابها البحث عن الحق، فكانوا لا يرون مانعا من الركون الى مذهب هذا الإمام أو ذاك متى قويت في نظرهم حجته، ولعل ابن العربي من المالكية خير من يمثل هذا المنحى المتسامح، وهو على كل حال ليس الممثل الوحيد له، فقد كان يدرس القضايا الفقهية على ضوء معطيات المذاهب، ثم يرجح ما يراه أولى بالترجيح، وينتصر لما يراه حقا، ومن هذا الصنيع موافقته أبا حنيفة في عدم وجوب زكاة الفطر إلا على مالك نصاب الزكاة.

سابعا ـ مظاهر وأسباب التعصب المذهبي داخل الإسلام:

لاشك أن أبرز مظاهر الخلاف والصراع المذهبي الذي يمكن أن يسجل بين الطوائف الإسلامية، هو منحصر ـ على وجه التحديد ـ بين الشيعة والسنة، سواء في الماضي أو الحاضر على وجه الخصوص.

واذا كنا قد بينا أهم أسباب الاختلاف التي أدت بدورها الى نشوء وتعدد المذاهب الفقهية في الإسلام... فإن تضخيم هذه الاختلافات، ومحاولة تعميقها بشتى الطرق لشق صفوف المسلمين، كما يلاحظ اليوم (من لبنان الى أفغانستان) مرورا بفرنسا والجزائر والهند والسودان وباكستان، لا تعود الى عوامل دينية جوهرية في العقيدة... أكثر مما تعود الى عوامل سياسية داخلية تتعلق بنزوات بعض القادة المنتسبين الى الإسلام في هذا البلد أو ذاك، وعوامل خارجية متكاملة معها ترتبط (بكيفية أو بأخرى) بالمصالح الاستراتيجية للاستعمار الجديد، والمتمثلة في البحث الدائم عن كل الثغرات في هذا الكيان لإذكاء نار التعصب، والنعرات الطائفية، وتجذير الخلاف بين أطرافه، والعمل على الإبقاء عليه متأججا بكل الوسائل!! مما يجعلنا نقول بأن الاختلاف المذهبي القائم (بين السنة والشيعة) أو (بين المالكية والإباضية) هو اختلاف فقهي (مسيّس) أكثر مما هو اختلاف سياسي (مفقّه).

ومن الأمثلة التاريخية والشواهد الحية على تداخل وتشابك خيوط السياسة بالمذاهب الدينية (السنية والشيعية) على الخصوص، أن الدولة المصرية التي لا يكاد يوجد فيها اليوم من أتباع المذهب الشيعي ما يستحق الذكر، كانت دولة شيعية المذهب، في مرحلة من تاريخنا المجيد التي امتدت مدته زهاء قرنين من الزمان (969 ــ 1176) وكان هذا الامتداد المذهبي الرسمي قد أتاها من الجزائر (كما هو معلوم) والتي لا توجد بها أيضا اليوم أية أقلية شيعية تذكر! مع أنها كانت عاصمة لدولة الفاطميين، وكانت منطلقا لهم الى تأسيس القاهرة وتشييد الأزهر الشريف، وقد ظلت كل من الجزائر ومصر تتعبد الخالق حسب المذهب الشيعي لعدة قرون من تاريخ الأمة الزاهر الخالي من التعصب الديني الذي تعيشه اليوم. فقد انتزع الفاطميون الحكم في مصر من الدولة الأخشيدية وهي سنية المذهب، وهنا يبدأ الخلط (الموروث) والمتعمد بين السياسة والمذهب الفقهي، حيث ما استتب الأمر واستقر بيدي الساسة الجدد من أتباع المذهب السني حتى بدأت الحملات تشن ضد أتباع المذهب الشيعي، ويسقط الفقه مطية فتاكة في يد السياسة، وفي مثل هذه الحالات تأخذ الفرجة المذهبية في التعمق والاتساع الى ما لا نهاية، بفعل الدوافع السياسية التي تسخر المنابر والأقلام للقيام بهذه المهمة أحسن قيام! فتُزيِّف الحقائق للعامة، ويعمق الحقد في نفوس الرعية حول أتباع هذا المذهب أو ذاك، الى درجة أن التاريخ الإسلامي قد يسجل ولأول مرة أن في الوقت الذي كانت الحروب الصليبية تعصف بالكيان الإسلامي في احدى أعز بقاعه على قلوب كل المسلمين كانت بعض العروش تتفرج على المذابح، وكأن الأمر لا يعنيها، أو بعبارة أخرى كأن الأمر لا يخص الإسلام أكثر مما يخص عروش بعض الأنظمة السلطانية، وذهب الأصل ضحية الفرع، وقدم الإسلام قربانا على مذبح التعصب المذهبي والتحيز للمصالح العروشية الآنية، والأحقاد المتراكمة في النفوس الضائعة (أو المضيّعة) بعبارة أدق وأصح!!

وما أشبه اليوم بالبارحة حيث أن الزمان اذا كان غير الزمان فالإنسان بنزواته، والعدو الصليبي والصهيوني (بمآمراته ومخططاته) هو «الإنسان!».

وبدلا من أن يظل اختلاف المذاهب رحمة على المسلمين في دنياهم، انقلب الى صراع وتعصب ونقمة عليهم في دنياهم وأخراهم معا!!

ودون التحيز لهذا المذهب أو ذاك يجب أن يظل العلماء عموما وعلماء الدين خصوصا، فوق مستوى الاختلافات السياسية الهوجاء والمتقلبة في دنيا أمتنا! وفي هذا الخصوص نورد هذه الفقرة لأحد الكتاب العرب في نقده لكاتب آخر متحيز ـ سياسيا ـ تحت غطاء مذهبي فيقول: «منذ سنوات انبرى وزير مصري الى اصدار كتاب حاول أن ينال فيه من فئة عربية كبيرة هي الشيعة بوجه عام، والشيعة في العراق بوجه خاص، وكان صدور الكتاب في وقت يجري فيه الحديث عن قيام وحدة بين العراق ومصر، فكان هذا الكتاب إشارة أو دلالة على أن مصر لا ترغب في هذه الوحدة مع العراق... ولكن المؤسف أن مثل هذا الكتاب يترك أثرا على الصعيد الشعبي أكثر مما يكونه من أثر على الصعيد الرسمي.

فالخلافات العربية بين الحكومات والقيادات السياسية ليست في حاجة الى تبريرات أو فلسفات مذهبية لكي تقوم ولكي تتسع دائرتها... أنها تقوم بين دول عربية يتبع أغلب أهلها السنة أكثر مما تقع بين دولة سنية أكثر المسلمين بها من الشيعة... فهناك أسباب ودواع كثيرة لإيقاع الخلاف وتوسيعه بين الحكومات العربية دون اللجوء الى الكلام عن المذاهب الدينية...» [1].

ثم يضيف قائلا: «وقد رأيت يومئذ أن أتصدى للكلام في هذا الموضوع وللرد على ذلك بدافع أنني عربي ومسلم قبل أن يكون الدافع أنني شيعي جعفري...

---

(1) عن مقال للكاتب اللبناني، محمد باقر شرى، جريدة أخبار اليوم، الصادرة بتاريخ 1979/02/24م.

... لقد خيل إلي أن الخلافات المذهبية بين المسلمين قد انتهت، وأنه لم يعد هناك مجال للإيقاع بين السنيين والشيعة بعد الفتوى التاريخية التي أصدرها الأزهر الشريف» [1].

هذا كلام مسؤول لكاتب مسلم مستنير صادق الاعتقاد والدعوة الى ضرورة تجاوز الخلافات المذهبية أو بعبارة أدق قيام العلماء بواجبهم نحو الأمة للوقوف في وجوه الساسة الذين يستغلون الخلافات المذهبية (الرحمة) ليجعلوها تتجاوز حدودها لتنقلب الى (نقمة) على الأمة، بل ولعنة تطاردها في كل حين!!

وفي إطار هذه المساعي الجادة والمخلصة التي يقوم بها العلماء (رغم الساسة) في هذا الخصوص نذكر «دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية»، وقد كانت هذه المبادرة من أجلّ الأعمال التي أرسى دعائمها كوكبة من العلماء الكبار في الدين الإسلامي... (سنيين وشيعة) على حد سواء.

ومما كتبه الإمام الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، وهو أحد أقطاب هذه الدعوة الى جانب نظراء أجلاء له من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر، والشيخ الإمام عبد العزيز عيسى وزير الأوقاف والتعليم الديني السابق، والشيخ الإمام عبد المجيد سليم، والشيخ الأستاذ محمد المدني وغيرهم كثير... قوله: «... إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، وهي دعوة الإسلام والسلام، وأن أسلوبها الذي تنتهجه لهو الأسلوب الحكيم الذي أمر به الله رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) اذ يقول: «**أُدعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بالتي هي أحسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أعلَمُ بالمهتدين**» {سورة النحل الآية: 125} [2].

هذا ما يتعلق بجانب علماء السنة في الأزهر، أما عن جانب علماء الشيعة فيمكن أن نذكر هنا وبصفة أخص رائد الدعوة الى التقريب على

---

(1) نفس المرجع المذكور آنفا.

(2) نفس المرجع السابق.

امتداد أكثر من نصف قرن من الجهاد المتواصل في هذا الخصوص، وهو الإمام محمد تقي الدين القمي. فلقد كان هذا العالم (فيما نعلم) هو أول من بدأ هذا المشوار الطويل من الجانب الشيعي، وعندما ارتحل هذا الإمام بدعوته الى مصر سنة 1937 التقى بالإمام الأكبر مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، الذي تفهم دعوته وحسن قصده، وكان سندا ونصيرا قويا لهذه الدعوة، حيث بادر الى عقد لقاء جمع فيه الإمام القمّي بكبار علماء الأزهر في ذلك الوقت، ممن سبقت الإشارة الى أسمائهم، ودار النقاش طويلا ومثمرا حول فكرة التقريب بين المذاهب وأثرها في وحدة كلمة الإسلام والمسلمين، وسقطت الكثير من المحاذير أمام صدق النية ووضوح المقصد وإخلاص العمل للدين الحق، فانفتحت العقول والقلوب لتحتضن الفكرة وصاحبها، ومنذ ذلك التاريخ حدثت تغيرات في غاية الأهمية من الجانبين، وكان الفضل يرجع الى الامام المراغي الذي تفجرت على يديه ينابيع ظلت مكبوتة في العقول والكتب وحلقات التدريس في الأزهر سنوات وقرونا، وكان رحمه الله يعتمد في تدريسه للتفسير بالأزهر ـ معقل فكر السنة ـ بعدد من مؤلفات ومراجع (الإمامية) مثل كتاب مجمع البيان، وكان لهذا وقعه وصداه في العالم الإسلامي كله [1].

وفي عام 1948 عاد الإمام القمي الى مصر ليكتشف أن البذرة الصالحة قد بدأت تأتي ثمارها، وأن فكرة التقريب قد أصبحت متبناة من عشرات العلماء وكثيرين من أصحاب العلم وقادة الفكر والاجتماع والقانون، وكانت جماعة التقريب قد تأسست وقتها فأخذت الاجتماعات تتوالى بين كبار علماء أهل السنة والفكر والقانون والاجتماع وبين علماء الشيعة، وتتفق الآراء على أن المذاهب المشاركة في «جماعة التقريب» مذاهب متفقة في أصول العقيدة، وأن خلافهم اجتهادي في الدائرة المقبولة... [2].

---

(1) انظر: مجلة روز اليوسف الصادرة بتاريخ 1977/03/07م.

(2) نفس المرجع السابق ذكره.

وسقطت نتيجة لهذه المكاشفة الصادقة بين العلماء النزهاء، الكثير من الأفكار القاتلة (على رأي المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي رحمه الله) والجامدة التي سادت طويلا (للأسباب المذكورة) أتباع كل مذهب عن أتباع المذهب الآخر، الى درجة أن بلغت الشائعات حد الاعتقاد الجازم بأن بعض نسخ القرآن الكريم التي يتداولها الشيعة محرفة!.

وثبت بالقطع لعلماء السنة من خلال التحريات الدقيقة والصادقة أنه لا يوجد من بين ملايين النسخ القرآنية المتداولة لدى أتباع المذهب الشيعي تحريف واحد لآيات الله، لا في الكلمة ولا حتى في التشكيل، وكان في المقابل بعض أهل الشيعة يعتقدون أن بعض البلاد السنية المذهب لا تحب أهل البيت فوجدوا أن مكانة أهل البيت في هذه البلاد - كالجزائر مثلا - تصل الى درجة التقديس، بما يضاهي أحيانا حب الشيعة أنفسهم لأهل البيت!!

وكان من نتائج هذا العمل الجليل، لهؤلاء الأقطاب الكبار من علماء الأمة الأحياء منهم والراحلين، أن أصدر الشيخ شلتوت فتواه الشهيرة، والتي جاء فيما كتبه عنها بنفسه ما نصه: «لقد تهيأ لي بهذه الأوجه من النشاط العلمي (وهو يشير هنا الى التجارب التي مر بها أثناء قيامه بدعوة التقريب... سنين طويلة كما ذكرنا)، أن أطل على العالم الإسلامي من نافذة مشرفة عالية، وأن أعرف كثيرا من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع الكلمة وائتلاف القلوب على أخوة الإسلام، وأن أتعرف على كثير من ذوي الفكر والعلم الإسلامي، ثم تهيأ لي بعد ذلك وقد عهد الي منصب مشيخة الأزهر أن اصدرت فتوى في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذاهب الشيعة الإمامية (الاثنى عشرية) وهي تلك الفتوى المسجلة بتوقيعنا بدار التقريب، التي وزعت صورتها الزنكوغرافية بمعرفتها، والتي كان لها الصدى البعيد في مختلف بلاد الأمة الإسلامية، وقرت بها عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم الا

الحق، والألفة ومصلحة الأمة، وظلت تتوارد علي الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها، وأنا مؤمن بصحتها ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين، فيما أبعث من رسائل للمستوضحين او أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشيء من مقال ينشر أو حديث يذاع، أو بيان أدعو به الى الوحدة والتماسك والاتفاق حول الأصول الإسلامية »[1].

واذا كان لنا من تعليق حول هذا النص الواضح الدقيق، والشامل - في نفس الوقت - للعديد من المعاني والأمور المتداخلة في موضوع الاختلاف المذهبي في الإسلام والذي نلاحظ كثيرا ما يتجاوز الموضوع حده - في ظل الجهل والتضليل - لينقلب الى ضده، لو لا تدخل نزاهة العلماء المخلصين سدنة الحق والدين القويم... من أمثال هؤلاء.

إن مثل هذه الفتوى التاريخية وإن أتت متأخرة عن موعدها بقرون (للأسباب المذكورة) إلا أنها أزالت الكثير من الغموض وحسمت الأمر لصالح الحق وحده فكانت دعوة الى التسامح بين المذاهب الفقهية الاسلامية الأربعة وبين المذهب الإسلامي الشيعي الجعفري.

وبنصها الصريح على أن هذا المذهب الشيعي مذهب إسلامي صحيح في نظر السنة ويجوز للسنيين أن يأخذوا من أحكامه الفقهية دون أن يكونوا بذلك قد تخلوا عن أصل الدين الحنيف...

كما اعتبرت هذه الفتوى - بحق - بمثابة التنديد الصريح بأولئك الذين يتعصبون بغير حق لمذهب من المذاهب، وما ينجر عنه من أحقاد متوارثة (في الضلال والجهالة) عبر الأجيال والقرون.

وقد أثبتت الفتوى أيضا أن دين الله الذي ارتضاه لعباده ما كان محصورا في مذهب بعينه، وما كان له أن يكون كذلك لاتساع دوائر البحث في كل دقائقه (كما سبق التفصيل بالكثير من الشواهد التي تبرز الاختلاف المذهبي المباح والمقبول، بل والمفضل)، بما يؤكد - عندما تخلص النية لدين الله - أن كل المذاهب المبنية على الأصول الصحيحة من القرآن

---

(1) نقلا عن صحيفة أخبار اليوم 1979/02/24.

والسنة مذاهب إسلامية، وما قيل هنا عن المذهب الشيعي ينسحب على المذهب الإباضي أيضا بالنسبة للشيعة والعكس بالعكس، مع ما يوجد من اختلافات اجتهادية بين المذهبين، والتي لا يمكن ولا ينبغي أن ترقى الى درجةالقطيعة [1].

واذا كنا قد أخذنا صورة على مواقف علماء السنة، بشكل واضح، من خلال الشواهد السابقة، فإننا نريد أن نكمل الصورة بإعطاء مواقف الجانب الآخر والمتمثل في أقطاب علماء الشيعة، وهنا نفضل أن نترك أحد أكبر هؤلاء الأقطاب (الدعاة الى التقريب بين عباد الله في دين الله) وهو الإمام تقي الدين القمي ذاته، في آخر استجواب له أجرته معه صحيفة روز اليوسف سنة 1977 ، ونقتطف على الخصوص مما جاء في هذا الاستجواب الطويل والشامل ما يلي:

«... قلت للإمام حدثني عن استقبال علماء السنة في مصر لدعوة التقريب؟

الإمام: أتيت الى مصر الكنانة عام 1937 أستمد من علمائها الدعم والفهم المشترك لدعوة التقريب، ولم أكن في حاجة الى بذل جهد كبير، فقد وجدت العقول والقلوب معي، ووجدت علماء أهل السنة يدور بخاطرهم ما يدور بخاطري وأن ما بين الشيعة والسنة من اتفاق على أصول العقيدة يجب ما بين تلك المذاهب من أسباب الخلاف والاختلاف... كلانا متفق على أن إلهنا واحد ونبينا واحد، وكتابنا واحد. لا يختلف السني عن الشيعي ـ ولله الحمد ـ في كلمة من كلمات القرآن، وهذا فخر وأي فخر للدعوة الإسلامية.

ـ وفيم الاختلاف اذن مادامت أركان الإسلام الخمسة شرط من شروط الإسلام الصحيح لدى مختلف المذاهب؟

---

(1) نذكر على سبيل المثال مؤتمر «التقريب المذهبي» المنعقد في سلطنة عمان سنة 1988، والذي جمع مختلف المذاهب الإسلامية، وقد تحققت فيه نتائج مشجعة للغاية. انظر: جريدة الأهرام ليوم 1988/05/03م.

الإمام: هذا هو السؤال. لقد عملت مراحل سياسية وأنظمة متعاقبة هنا وهناك على منع المسلم في هذا المذهب أو ذاك من أن يمد بصيرته ويتعرف على ما لدى أخيه من حجة أو اجتهاد رغم أن قبلة المسلمين على اختلاف مذاهبهم واحدة، وهي الكعبة المشرفة، وصلواتهم المفروضة خمس صلوات من ركعاتها وسجداتها وقراءتها. وإن كان هناك خلاف... ففي: هل يكفي جزء من السورة بعد الحمد لله أم السورة كاملة، ثم أن صوم المسلمين واحد. وإن كان هناك اختلاف بين صوم أهل السنة وصوم الشيعة، فإن أهل السنة يفطرون بمغيب الشمس، بينما الشيعة يشترطون ذهاب الضوء تماما... أي بعد المغيب بربع ساعة زيادة في الحيطة.

وتكسو ملامح وجهه ابتسامة بالرضى ثم يقول: وكما ترى فهذه أمثلة من الاختلافات بين مذاهب أهل السنة ومذهبي «الشيعة الإمامية والزيدية» وهي خلافات من الظلم للإسلام الذي جاء من أجل إعلاء كلمة المسلمين ووحدتهم وقوتهم... أن ترقى الى مجال التباعد والتنافر والقطيعة. وأما عن الخلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة أو الخلافة فأمره معروف وأدلة كل فريق يرجع اليها في كتب كل منهما!.

- وماذا قدمت الدعوة من أساليب ومناهج للتقريب بين المذاهب السنية والشيعية؟

الإمام: بداية الدعوة كانت بمثابة إشعال الضوء على طبيعة الخلافات الثانوية بين المذاهب، والتي لا تمس جوهر العقيدة وأصولها الثابتة، ذلك أن كثيرا من الأفكار والأوهام المتبادلة بين المذاهب نمت وترعرعت في الظلام! كان شعارنا «اعرف أخاك. وتعرّف على أفكاره. اذا لم تقتنع اعذره واحترم رأيه».

قلت: ماذا عن الجديد في مناهج وفكر جماعة التقريب؟

الإمام: إن دعوة التقريب في حقيقتها حرب شعواء بالقلم والفكر وكل أدوات الاتصال ضد تنابلة المسلمين الذين يصدون عن قراءة ما لدى

أخوتهم من المسلمين الذين يجاورونهم أو يعيشون معهم... هؤلاء الذين تجمدوا عند حد ما سمعوا من أسلافهم دون مراجعة وتفكير وتمحيص!.

أمثال هؤلاء وهؤلاء... نسعى الى أن نصل اليهم في عقر دارهم... في عقر عقولهم... وهم في النهاية يتناقصون ويعزلون أنفسهم عن دعوة التقريب التي تكسب اليها كل يوم مزيدا من المتفهمين والمؤيدين والدعاة.

وفي مصر على سبيل المثال حركة تأليف وتحقيق نشطة لدار التقريب شعارها «اعرف أخاك» وهناك عشرات العلماء الأجلاء يضعون الآن كتاب «الفقه الجامع» الذي يقنن فقه علماء السنة وعلماء الشيعة في العبادات والمعاملات. عشرات من العلماء آخرون يعكفون على تحقيق كتاب «تفسير مجمع البيان» في عشرة مجلدات، وهو في رأي الكثيرين أدق وأشمل تفسير للقرآن.

قلت: أذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فهل تحجم دعوة التقريب عن كسب الأنظمة والحكومات الاسلامية بما لديها من قوة التأثير في نشر الدعوة؟

الإمام: كان حذرنا في بداية الدعوة، أن نتجنب الولوج الى ميادين السياسة أو نستدرج اليها، وكان الجو ملبدا بغيوم التشكيك والافتراءات ومحاولات الاستقطاب، والآن وبعد أن رسخت أقدام الدعوة وعرفها القاصي والداني لوجه الله، وخير المسلمين قاطبة... يسعدنا بالطبع كل عمل من شأنه أن يدعم الدعوة ويفسح لها مجال الانتشار والازدهار، ويسعدنا أكثر أن يتوقف كل عمل من شأنه وضع العقبات والمعوقات أمام توجهات الدعوة لجمع كلمة المسلمين وقوتهم.

إن الدولة الإسلامية ـ بهمة أفراد رقعتها وعدد سكانها ـ تسعى لأن تكون مثالا حيا لمبادىء الإسلام في الحكم والعدل والمساواة، يمكن أن تقدم للإسلام والمسلمين القدوة الحسنة لبقية الدول والشعوب الإسلامية إذا ما نجحت في التطبيق والممارسة الصحيحة والسليمة.

وقلت له: هل أسألك عن أمنياتك لدعوة التقريب؟

قال الإمام وهو يشد على يدي مودعا: دعنا من الأحلام وعلينا أن نتمنى ما هو ممكن التحقيق... إنني أطمع في جيل جديد من المسلمين... تربى على المعرفة والاستكشاف ورحابة الفكر؟...

ماذا لو وضعت مناهج لتدريس الدين الإسلامي بمختلف مذاهبه واجتهاداتها في المعاهد والجامعات الاسلامية، وأن تدرس نفس المناهج بشكل مبسط في مختلف مراحل التعليم المدني.

بذلك نكسب مستقبلا للأمة الإسلامية دعائم الفهم والوفاق وليس التعصب والاختلاف» [1]. وتأكيدا لذلك منا عن دور السياسة في إفساد الدين وإذكاء نار التعصب في نفوس العامة (كما ذهب الى ذلك الإمام القمي ذاته في التصريح السابق) نذكر مثالا على ذلك ما حدث في الأزهر الشريف ذاته مع بداية الثورة الإيرانية وتوطيد العلاقة بين حاكم مصر في ذلك الوقت وشاه إيران (العلماني)، ورغم الفتوى الأزهرية (النموذج والقدوة) يأتي عالم يتربع على رأس الأزهر (وبعد قرابة 20 سنة من صدور الفتوى) ليخطب في اجتماع ديني كبير بحضور رئيس الدولة (آنذاك) وكبار الشخصيات فيها، مهاجما المذهب الشيعي في تزلف مكشوف، ومما جاء في هذا الخطاب أن الأزهر بناه الشيعة لتدريس مذهبهم، ولكن إرادة الله شاءت أن نأخذه من أيديهم لتدريس المذهب الصحيح... وختم كلامه الصريح بقوله: إن إرادة الحق غلبت ارادة الخلق» [2].

والحقيقة أن مثل هذا الكلام المثير للمشاعر المؤلمة ما أغنى أمتنا عن سماعه، علما (كما أسلفنا) أن هذا المذهب الديني كان هو المذهب الذي أخذت به مصر في مرحلة زاهية من تاريخها الإسلامي، فهل تقتطع

---

(1) مجلة روز اليوسف الصادرة بتاريخ 1977/03/07. العدد: 2543.

(2) جريدة أخبار اليوم الصادرة بتاريخ 1979/02/24م.

هذه المرحلة لتضاف الى عهد الجاهلية؟ ثم أنه من الجحود إنكار فضل المعز لدين الله الفاطمي الذي (أنشأ الأزهر)، وإنكار أفضال الفاطميين الذين تعهدوه من بعده وتعهدوا رجاله بكل تجلة واكرام...

ومهما يكن من أمر فقد كان من الأولى بعلمائنا على الأقل (إن لم يكن لساستنا) بدل التشفي من تحول الأزهر الشريف من يد إسلامية الى يد إسلامية أخرى... أن يجعلوا من بناء الأزهر الشريف على أيدي الشيعة، ثم انتقاله الى أيدي المذاهب السنية دليلا على التكامل التاريخي وسببا من أسباب التقارب والائتلاف، وإلا فيحق لعاقل أن يسأل وبكل وجاهة هذا العالم المتشفي (المسيس): اذا كان خروج معهد ديني أو معبد ديني من يد طاهرة الى أخرى مثلها دليلا على أن الله فضل اليد الثانية على اليد الأولى، فماذا يقال عن خروج مسجد قرطبة من يد المسلمين وبناء كنيسة بداخله؟ وبعبارة أنكى في جروحنا النازفة اليوم: ماذا يقال بخروج المسجد الأقصى الى وصاية اليهود الذين يعيثون في ربوعه فسادا ليل نهار، بعد أن حاولوا إحراقه وكسر عظام الأطفال المدافعين عنه بالحجارة، وبأضعف الإيمان، في حين ما يزال بعض (علمائنا) يبررون بعض مواقف ساسة أمتنا في الدعوة الى التفتت، والتشرذم والتعصب المذهبي والديني فضلا عن السياسي والاقتصادي إرضاء للأعداء الألداء الذين لم ولن يرضوا عن أمتنا حتى وإن أخلص لهم - ودون جدوى - بعض ساستها الولاء والتذلل والخيانة، وهل يوجد أنكى وأفظع من إهانة وإذلال الغرب الصليبي الاستفزازي لنا بالاعتداء على عرض وشرف أبناء وبنات الأمة في فلسطين والبوسنة وطاجاكستان... والبقية تأتي للأندلسيات المتبقية... وقد تكون في مقدمتها إسطنبول (عاصمة محمد الفاتح!) عندما كنا أمة لها وجود ملموس في الواقع!.

الفصل الرابع

التعصب والصراع اللغوي

التعصب اللغوي:

إن التعصب اللغوي فضلا عن خطورته في ذاته فهو ذو علاقة مباشرة بالعناصر الأخرى.. وقبل أن نستعرض نماذج من الحالات التي يتمثل فيها التعصب المركب، والمتفاعل بين عنصرين أو ثلاثة، نورد هنا بعض الشواهد الحية حول التعصب اللغوي، والصراع الناتج عنه كعنصر في غاية الحساسية بالنسبة لخلق الشعور القومي وبعث روح الانتماء والوفاء والولاء في نفوس الأفراد والجماعات بحسب تعصبهم لهذه اللغة أو تلك..

ونقتصر هنا على استعراض ست حالات في خمسة بلدان هي:

أولا: فرنسا:

ومن مظاهر التعصب اللغوي في هذا البلد بالذات، والذي هو انعكاس مباشر أو امتداد للصراع القائم بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالأنجليزية في العديد من أقطار العالم، وبصفة خاصة البلاد الإفريقية المقسمة ـ لغويا ـ كما هو معلوم على هذا الأساس!!

فمن أوجه هذا الصراع الحاد الدائر بين الأمبراطوريتين اللغويتين (الأنجليزية والفرنسية) في الوقت الحاضر تلك الضجة التي قامت في فرنسا حول معهد (باستور) لاعتماده اللغة الأنجليزية لغة بحث دون الفرنسية...

لقد تناقلت وكالات الأنباء خبرا مفاده: أن إدارة «معهد باستور» هذه القلعة العلمية الفرنسية، ذات الشهرة العالمية، قررت أن تصدر حولياتها باللغة الأنجليزية، ولم يمر الخبر كما تمر بقية الأخبار الأخرى! ذلك أن الموضوع حيوي ويمس السيادة الوطنية الفرنسية، فثارت ثائرة العلماء والكتاب والصحفيين والسياسيين واعتبر الجميع هذا الخبر خطيراً جدا بحيث لا ينبغي ولا يمكن السكوت عنه على الإطلاق!!

وبدأت حملة الإعلام الفرنسي في خوض هذه المعركة بمختلف وسائلها. فهذه مجلة «جور دو فرانس» تكتب على غلافها وبعنوان بارز: «اللغة الفرنسية في خطر»!! ـ (الجرثومة الأنغلوفونية في «معهد باستور»)!! يا للفضيحة!! بين عشية وضحاها أصبحت عناوين الحوليات السنوية لمعهد باستور تحمل اسما بالأنجليزية، إنها فضيحة ـ كما قال أحد الكتاب ـ وينبغي علينا الدفاع عن اللغة الفرنسية المهددة في عقر دارها من طرف أبنائها!! وظل الموضوع يتفاعل في فرنسا، وقد أقام رجال العلم والمعرفة والسياسة ولم يقعدهم بعد!!.

فهذا (ألبير جالكوار) عالم الأجنة في معهد الدراسات الوطنية الديمغرافية يقول: «إنني شعرت بعقم، بهذه الفضيحة، وأقول لهولاء الذين يفكرون هذا التفكير بأن اللغة الفرنسية لم تعد عندهم سوى لسان فئة منحطة من الشعب!» [1].وفي الأخير طالب هذا الباحث والعالم الحكومة الفرنسية بقطع كل المساعدات والقروض المخصصة «لمعهد باستور» حتى يقلع ويتخلى عن قراره الجديد باستعمال اللغة الأنجليزية لغة نشر لأبحاثه وحولياته!.

أما (مارك غومير) رئيس الجمعية الوطنية للصحفيين المختصين في الإعلام الطبي فقد قال: «أنه من الضروري أن يكون العلماء والباحثون الفرنسيون قادرين على التعبير باللغة الأنجليزية في المحافل التي تكون فيها اللغة الأنجليزية هي لغة العمل السائدة، كما أنني أقول إذا كنا نحن

---

(1) جريدة الشعب (الجزائرية) الصادرة في 1989/05/08م.

الفرنسيين غير قادرين على الدفاع عن لغتنا في المحافل العلمية، فلا أحد يدافع عنها!! فكثيرا ما حدث في المؤتمرات الدولية وسئلت من طرف الكنديين والسويسريين ولوكسمبورغيين والأفارقة، وبكل دهشة يقولون لي: «إذا كنتم أنتم الفرنسيون تتحدثون الأنجليزية في المؤتمرات الدولية فكيف يمكن أن يكون مصيرنا نحن في المستقبل؟!» ولهذا أعتقد بأن قرار نشر حوليات معهد باستور بالأنجليزية قرار خاطيء وينبغي التراجع عنه ونشر هذه الحوليات بالفرنسية، لأن اللغة الفرنسية هي إشعاعنا في العالم» [1].

وترى الكاتبة (جيني فياف دورمان) بأن موقف معهد باستور موقف مزعج لها ولغيرها من الذين بلغ الى علمهم قرار هذا المعهد، وأن هناك مواقف عند كثير من الفرنسيين تتسم بالرياء وحب الظهور وتستشهد على ذلك بقولها: «رأيت هذا وأنا أركب الطائرة بين باريس ونانت، فأستمع الى مضيفات الطائرة وهن يقدمن معلومات عن الرحلة باللغة الأنجليزية، ألم يكن هذا التصرف غريبا وفيه كثير من الرياء و(سنوبيزم) لغوي!!.

إننا نحاول أن نقنع أنفسنا بأن النفق الذي يربط المانش ضروري في حين لا يعتقد الأنجليز هذا الاعتقاد»!!

ويعلق (مارك دانروز) مندوب اللجنة الفرنسية للتربية من أجل الصحة، وفي منظمة الصحة العالمية على الموضوع بقول مفاده: أن وراء اللغة ثقافة، والمطلوب منا هو العثور على إستراتيجية لا دفاعية فقط، بل البحث عن إستراتيجية هجومية، فسكان الكيبك في كندا أدركوا قبلنا الواقع، وبذلك غدوا يتكلمون كلهم الأنجليزية، ولكنهم يعرفون متى يستعملون الفرنسية عندما يقتضي الأمر ذلك، وأن لنا جميعا مصلحة في السيطرة والتحكم في اللغة الأنجليزية لتعريف أنفسنا وتعريف الآخرين بنا، بواسطة هذه اللغة، ولكن ليس على حساب شرفنا وكرامتنا، وعليه فعلى المعهد أن يفرض لغتنا الفرنسية، وبهذا نحترم أنفسنا!!

(1) نقلا عن مقال صادر بجريدة الشعب الجزائرية ليوم: 1989/05/18م للكاتب الصحفي الجزائري، سعدي بزيان، مراسل الجريدة في باريس.

أما رئيس تحريرالجريدة الطبية اليومية، وعضو لجنة الدفاع عن اللغة الفرنسية (ليليان لابلان) فوصف ما أقدم عليه معهد باستور من تبني اللغة الأنجليزية في منشوراته وأبحاثه العلمية، بأنه عمل خطير ويمس بالسمعة الوطنية لفرنسا وبهيبتها، فمعهد باستور له شهرة عالمية، وهذا ـ كما قال ـ مادفع الأكاديمية الطبية أن تشجب هي الأخرى بعنف هذا الموقف، وقد أبدت أسفها العميق لتصرفات المسؤولين في المعهد، ونحن ننتظر موقفا يتسم بالحيوية والفعالية، من جميع السلطات المعنية، ومن منظمات علمية أخرى وليعبر هؤلاء جميعا عن رغبتهم في الإبقاء على حضور اللغة الفرنسية في العالم فضلا عن فرنسا الأم!. وقد يمكن اعتبار هذا الحدث عارضا ورمزيا ولكن الذي يدعونا وإلى اتخاذ موقف فعال إزاءه هو ما نلاحظه من تطورات في الساحة الدولية، حيث أصبحت اللغة الفرنسية تختفي تدريجيا من المنابر الدولية، بل أصبحت اللغة الفرنسية تختفي من عدة ميادين بما في ذلك القانون، والديبلوماسية، وقد سيطرت لغة واحدة على الساحة!!

وإذا نحن تصرفنا على غرار تصرفات معهد باستور فإننا نعطي انطباعا يوحي بأننا استسلمنا وتخلينا عن تراثنا الثقافي وينبغي علينا في الأخير الوقوف في وجه المد الأنجلوفوني!!

وناشد كاتب آخر الغيورين من بني جلدته من علماء ومفكرين أن ينظموا مظاهرة احتجاج أمام أبواب معهد باستور، هذا المعهد الذي كل مخصصاته المالية ومساعداته المادية تأتيه من الفرنسيين مضيفا قوله: أن في قضية اللغة الفرنسية لا يختلف موقفي مع موقف (شامفور) القائل: «أن اللغة هي الوطن فلنكن مع الوطن»، وفي الأخير طالب هذا الكاتب جميع المستشارين الثقافيين بإلغاء اشتراكاتهم مع هذا المعهد تأديبا له على مواقفه المعادية للغة بالزاك [1].

وعن موضوع التشبث بوحدة الثقافة ووحدة اللغة الفرنسية في الداخل والخارج ورد على لسان السيد (ميشال دوبري) رئيس الوزراء

---

(1) نفس المرجع.

الفرنسي السابق، وعضو الأكاديمية الفرنسية في خطابه الرسمي بمناسبة تعيينه عضواً في الأكاديمية مانصه: «يجب أن نعلم (أنه لكي تبقى فرنسا في المرتبة الأولى على الصعيد الأوروبي واتحاد الشعوب الحرة، خاصة في الوضع الراهن العالمي الذي يتسم بوضع حربي)، أن الشعب الذي يعول على نفسه في بناء ذاته لا يمكن أن يقوم بهذا العمل شعب آخر بدله!!

... وعلاوة على ماسبق، فإنه يجب تذكيركم أيها السادة بأهمية مسؤولياتكم تجاه اللغة والثقافة، لأن ثقافة فرنسا ولغتها هي تعبير عن وجدانها.

وفي هذا المضمار، ساهمت الأكاديمية في ميدان اللغة الفرنسية بفضل مؤسسها على وحدة البلد وفي القرن الثامن عشر سمحت مهمتكم في خدمة اللغة الفرنسية على بسط نفوذ فرنسا. أما في القرن التاسع عشر فإن لغتنا قد أخذت مكانتها بين اللغات العالمية.

أما في القرن الحالي فقد أعيد النظر في نفوذها وللأسف، ويمكن إعادة النظر حتى في وحدتنا في القرن المقبل، الأمر الذي يجعل دراستكم تحظى بالأهمية القصوى.

لقد هوجمت اللغة الفرنسية من قبل لغات أجنبية، والتي لا تكمن قوتها في نوعيتها الجوهرية، بل في عدد الأفراد الذين يتكلمونها، ويجب أن تفرض اللغة الفرنسية على اللغات «الجهوية» حتى لا تكون ترقيتها في بعض الأحيان اصطناعية، تعبر عن تفكك سياسي، ولهذا فالفرنسية تواجه جبهتين، وعليه فإن مهمة الأكاديمية محددة الإتجاه وهي:

ضمان نوعية اللغة الفرنسية وتذكير بمتطلبات الإملاء والنحو، ثم جعل وحدة اللغة تخدم نوعية الثقافة وأخيرا تشجيع استعمال لغتنا ومساندة من يفعل ذلك من الأقطار الأخرى.

فليكن زميلنا الرئيس (ليوبولد سيدار سينغور) وأميننا الدائم (موريس دريون) مشكورين على عنادهما لتأكيد الفرنكوفونية، التي ستكون مهمة أساسية لكل حكومة كما أثبتته الوزارة التي

يديـــرها زمـيلنا (الان ديكو) لـكونهـا تعـبـيـرا عن وحـدتنا ونـفـوذنا وباختصار عن سيادتنا ا[1]

ثانيا: كندا:

لقد وقع هذا البلد ـ كما هو معلوم ـ تحت السيطرة الفرنسـية فـيما بين القرن السادس عـشر والثـامن عـشر. ولما خرج الفرنسيـون منه بقيت لغـتـهم منتـشرة بين ربع أفـراد المجتـمع الكندي تقـريبا، وعلى الرغم من انقضـاء قرنين كـاملين علـى هذا التـاريخ إلا أن اللغـة الفـرنسـيـة مـا تزال منتـشرة كلغة إدارة وثقافة لدى هذا الجزء من المجتـمع الكندي في إقليم (الكبيك)، وما يزال الكنديون في هذه المقاعطة يتعصبون للغة الفرنسية ضـد اللغـة الأنجليـزية (الأم) بالنسـبـة للبلد ككل، ويعـتـبرونها لغـتـهم القـومـيـة، ومـايزال الخـلاف قـائمـا الى الآن بين اللغـة الأنجليـزية واللغـة الفرنسـيـة، ونتج عن هذا الانقسـام اللغـوي نشـوء أنماط ثقـافـية فرعـيـة (فرنسية) داخل الثقافة الكندية (التي تشمل غالبية أفراد المجتمع) ذات العلاقة المباشرة باللغة الأنجليزية، وستظل هذه الثـقافة الفرعيـة القائمة في مقاطعة (الكبيك) تهدد الوحدة الوطنية للبلاد كلها، وقد تزداد استفحالا في المسـتـقبل طالما ظلت اللغـة الفـرنسـيـة قـائمـة في هذه المقـاطعـة، وطالما ظلت العـوامل السيـاسـيـة تغـذيها يومًا بعـد يوم، ضـمن الصـراع الدولي القـائم بين الهـيـمنتين الدولـيـتين القـائمـتين في العـصـر الحـاضـر بين (الفرنكوفونية والأنجلوفونية).

وحـول هذا الموضـوع ورد في جـريدة «لومـوند»بتـاريخ 1989/1/27م مانصه: «صادق المجلس الوطني للحكومة الليبرالية للسيد (بوراسا) على مشروع قانون (اللغة) يتعلق بتخفيض استعمال اللغة الفرنسـية بصفتـها لغة إعلانات في الميدان التجاري، وهذا يقطع الاتفاق المتبنى منذ 11 سنة

---

(1) جريدة لوموند الفرنسية الصادرة بتاريخ: 1989/01/23م. والجدير بالإشارة أن هذه "الروح" الفرنكوفونية هي التي تقف كالنار تحت رماد مأساة الشعب الزائيري، وكذلك وراء مشكل تعيين الأمين العام الجديد للأمم المتحدة بدل الأمين السابق (بطرس غالي) الفرنكوفوني الذي ظلت تدعمه باريس ضد(الفيطو)الأمريكي!.

في ميثاق اللغة الفرنسية، ولهذا قررت الحكومة إدخال إجراء يتمثل في تفضيل الازدواجية.

ولفهم سياق هذا القرار، يجب ذكر بعض الأحداث السابقة، حيث سبق للحزب الليبرالي للسيد (بوراسا) خلال الحملة الانتخابية لسنة 1985 أن وعد الناخبين الأنجلوفونيين بإدخال بعض التعديلات اللينة في ميثاق اللغة الفرنسية، ولكن عندما انتخب نقضت الحكومة الليبرالية الالتزام بوعدها مادامت المحاكم لم تفصل بعد في مسألة لغة الإعلانات.

وبالفعل، فبينما يحدد الميثاق أن الإعلانات لا تكون بلغة أحادية (الفرنسية) نجد أن بعض التجار الناطقين بالأنجليزية قد احتجوا على هذا الإجراء ورفعوا دعوى أمام المحكمة العليا لكندا مذكرين بحق حرية التعبير.

ولهذا فصلت المحكمة لصالحهم مع الاعتراف أيضا بأن الفرنسية هي لغة مهددة بالكيبك وأن الحكومة بإمكانها استعمال بنود استثنائية (مخالفة لقانون الاتفاق) وفي الحال نظمت مظاهرات شعبية تطالب الحكومة بتأكيد إجراءات ميثاق اللغة الفرنسية فيما يتعلق بالإعلانات.

وتعتبر (حركة الكيبك الفرنسية) هي المحفز لهذه الحركة، التي تضم المركزيات النقابية الثلاث الكبرى: المنتجون الفلاحيون، اتحاد الفنانين، والمنظمات الوطنية. وتهتم بمدى استعمال الفرنسية بصفتها لغة عمل ولغة إعلانات، ويعتبرون أن كل تأخر في مكانة الفرنسية بالكيبك في أي ميدان ينتج عنه عودة الى شكل من الازدواجية المعممة الذي يجعل من الفرنسية لغة مواطنين من الدرجة الثانية، بالإضافة الى هذا، أقرت حكومة «بوراسا» قانونا يسمح بالازدواجية داخل كل أنواع النشاطات التجارية.

...وللأسباب السالفة الذكر، يشعر سكان الكيبك بالتقصير في حقهم، وبالتالي أصبح الشارع المكان المفضل لهم للتعبير السياسي، ونتيجة لذلك برز للوجود الاتحاد الكيبكي الفرنسي.

وظهرت معارضة في المجلس الوطني تحت زعامة خمسة نواب، منهم نائبان ذاع صيتهما: الأول «قوين يفاس» الذي أصبح مندوبا عاما

للكيبك بباريس من 1976 الى 1981 . والثاني: «روني ليفاسك» الذي أصبح زعيما للحزب الكيبكي ووزيراً أول للكبيك من 1976 الى 1985.

وبعد أشهر قلائل من انتخاب حكومة الحزب الكيبكي، انكبت على دراسة المسألة اللغوية، وفي صيف 1977 ظهـر القانون الجديد، وسمي بميثاق اللغة الفرنسية لكنه تعرض للنقد الشديد من طرف المعارضة الليبرالية!!

ويتبين مما سبق أن أغلبية الكيبكيين الفرنكوفونيين، لا زالوا متمسكين بميثاق اللغة الفرنسية ويطالبون الحكومة بتطبيق الإجراءات اللازمة، ويؤكد هؤلاء الكيبكيون المجتمعون تحت إشراف حركة الكيبك الفرنسية، التي تمثل المعارضة الشعبية، عن عزمهم على العيش في جو فرنسي بالكيبك، وكل تنازل عن هذا المبدأ مرفوض مسبقا [1].

وحول نفس الموضوع ورد عن وكالة الأنباء الفرنسية من أتاوا بكندا ما نصه: «اللغة الفرنسية مهددة بحدة في كندا ومقاطعة الكيبك بالخصوص، ذات الأغلبية السكانية الفرانكوفونية، والتي تعتبر المقاطعة الأكثر ازدواجية لغويا (أنجليزية فرنسية).

وقد جاء في تقرير سنوي أن اللغة الفرنسية هي لغة الأقلية في كندا، وأقل منها في أمريكا الشمالية، وأن هذه اللغة مهددة من الداخل والخارج من حيث النوعية ومن حيث الصلاحية قياسا بالأنجليزية.

ويعترف التقرير بأنه بالرغم من عدم قبول الكيبك قرار المحكمة العليا القاضي بالسماح باستعمال اللغتين (الأنجليزية والفرنسية) في الملصقات التجارية في شهر ديسمبر الماضي، فإن المقاطعة تعد الأكثر ازدواجية في كندا، الأمر الذي فتح جدلا لغويا أخذ منعطفا خطيرا في نهاية السنة الماضية عندما أرادت حكومة الكيبك الحفاظ على الوجه الفرنسي للمقاطعة برفض قرار المحكمة العليا السماح للتجار الأنجلوفونيين باستعمال ملصقات باللغة الأنجليزية احتراما لحرية التعبير،

---

(1) جريدة لوموند الفرنسية:1989/01/27.

وفي المقابل صادقت هذه الحكومة على القانون (178) الذي يقر إستمرارية منع الملصقات المزدوجة خارج المحلات، ويسمح به فقط داخل المحلات الصغيرة (التي لا يزيد عدد العمال فيها عن 50 عاملا).

هذا القرار أدى الى ردود أفعال رفضت من خلالها مقاطعتان فكرة اعتبار «الكيبك ذات طابع اجتماعي متميز» في الدستور الكندي [1].

ولقد حتم هذا الصراع المزمن الذي يغذيه التعصب اللغوي في هذا البلد (الأوروبي المسيحي) منذ قرنين بما شاهدته كندا من رفض لمشروع الدستور المقدم للنقاش منذ سنة 1987 ويمثل التعصب اللغوي العامل الأول والوحيد في هذا الرفض للدستور الفيدرالي بكندا، بدليل أن هذا الرفض كان من سكان مقاطعة الكيبك وحدها، مادون سكان العشر مقاطعات الأخرى التي يتكون منها الاتحاد الفيدرالي الكندي، وهو ما يهدد الوحدة الوطنية لكندا في الصميم، حيث اعتلت الأصوات المطالبة باستقلال مقاطعة الكيبك (الناطقة بالفرنسية) على بقية المقاطعات الأخرى الناطقة بالأنجليزية في كندا، وذلك إثر مظاهرات (عاشتها البلاد خلال شهر ماي وجوان من سنة 1990) لم يشهد تاريخ كندا أعنف منها، وقد بلغ الأمر فيها بالمتظاهرين أن داسوا صفوفا صفوفا على العلم الوطني (الكندي) مستبدلين إياه بعلم آخر مكون في معظمه من اللون الأزرق، مقابل اللون الأحمر المميز للعلم الكندي الرسمي (الحالي) مرددين أناشيد كيبيكة (فرنسية) وسيشهد التاريخ في المستقبل استقلال هذه المقاطعة عن كندا وانفصالها التام عنها لصالح فرنسا!!.

ثالثا: بلجيكا:

يعود البلجيكيون الى ما قبل التاريخ، وينحدرون من الجنس السلتي وهو مزيج من الهندو ـ أوروبي، وهم ريفيون بالدرجة الأولى، عرفوا الفتوحات في عصر مبكر فغزاهم الرومان بسهولة، لأنهم لم تكن

(1) عن جريدة الشعب الجزائرية الصادرة بتاريخ: 1989/04/13م.

لهم دولة، كما ساعد هذا العامل على رومنتهم التدريجية (خاصة إبان القرن الثاني الميلادي)[1]، وهو ما ساعد على انتشار لهجة من أصول لاتينية ممزوجة بالسلتية استمرت حتى اليوم عند الفالون، وهذا عكس سكان منطقة الفلاندر الذين خضعوا للغة الغزاة الجرمانيين.

عرف البلجيكيون بعض الاستقرار والتوحيد في عصر «شارلمان» لكنه وضع سرعان ما انتهى بتمزق بلجيكا الى مقاطعتين: واحدة تابعة لفرنسا والثانية تمزقت الى امارات مستقلة [2]، وهو مايفسر ظهور اللغة الفرنسية في مناطق من بلجيكا إبان الفترة الممتدة حتى القرن الثامن عشر، وإلى جانب اللغة الفرنسية ـ لغة الإدارة ـ كانت تستعمل اللغة الفلامنكية [3]، كلغة شفهية (على غرار اللهجات البربرية في بلاد المغرب العربي)

عندما استقلت بلجيكا عن هولندا سنة 1830 ، لم يكن للمجتمع البلجيكي لغة وطنية مشتركة. فقد كان بعض أفراده يتحدثون اللغة الفلامندية والبعض الآخر يتحدثون اللغة الفرنسية، ونظرا لكون اللغة الفرنسية أرقى من اللغة الفلامندية وأوسع منها انتشارا في البلاد ، قامت الدولة بجعلها لغة رسمية للإدارة وأخذت تنشرها كلغة مشتركة، بين أفراد المجتمع البلجيكي، لتحل محل اللغة الهولندية في الإدارة والمؤسسات المختلفة في الدولة، غير أن سكان المنطقة الفلامندية سرعان ما أخذوا يقاومون عملية الفرنسة، واشتدت حركة المقاومة، وأخذت بعدا سياسيا يهدد الوحدة الوطنية بالانقسام، مما اضطر الدولة الى تشكيل لجنة خاصة لدراسة مطالب الحركة، وكانت تلك المطالب كالتالي:

أ) أن تكون اللغة الفلامندية لغة التعليم في جميع المدارس والمعاهد الواقعة في المناطق الناطقة بالفلامندية، وكذلك جامعة (غاند) يجب أن تحول الى جامعة فلامندية.

---

(1)(2) مصطفى أبو زيد فهمي: النظرية العامة للقومية العربية، المكتبة الشرقية للنشر والتوزيع، ص:100.

(3) نفس المرجع، ص: 103.

ونظرا لأن الفلامندية كانت لغة مشافهة فقط، ولم تكن لها حروف ولا قواعد، فقد نشط بعض المثقفين من زعماء الحركة في اختراع حروف وقواعد لتلك اللغة، وأنشأوا بها صحافة مكتوبة تنشر بين الناطقين بها، وأخذوا يؤلفون بعض الآثار الأدبية باللغة الفلامندية، ليبرروا مطالبهم السياسية بجعلها لغة التعليم والإدارة.

ب) أن تنشر جميع القوانين باللغة الفلامندية والفرنسية وكذلك القضاة والمحامون والممثلون الديبلوماسيون في الخارج.. يجب عليهم أن يعرفوا اللغتين معا...

جـ) أن يقسم الجيش حسب اللغة التي يتحدثها أفراده الى كتائب فلامندية وكتائب فالونية (أي ناطقة بالفرنسية) حتى تكون التعليمات المقدمة الى كل جيش باللغة التي يعرفها.. وقد تلكأت الحكومة كثيرا في تنفيذ هذه المطالب، لأنها كما هو واضح، ستكون طريقا حتميا الى الانقسام الحقيقي، وهو الهدف النهائي الذي كان يسعى الى تحقيقه زعماء الحركة الفلامندية، وبقي الصراع قائما على أشده الى الحرب العالمية الأولى، حيث توحد المجتمع البلجيكي ضد الغزو الألماني في ذلك الوقت، وخمدت الحركة المناهضة الى حين، غير أن الدولة لم تجد بدا من ذلك في تلبية بعض مطالب الفلاماند شيئا فشيئا تحت الضغط القوي، وتفادت خطر التقسيم بأن اعتبرت اللغتين الفلامندية والفرنسية رسميتين في البلاد، ولا أفضلية لواحدة على الأخرى!!

والنتيجة من كل هذا التعصب اللغوي أن بلجيكا التي كانت بلدا موحدا أصبحت اليوم بلدا مقسما الى جزأين تفصلهما حدود لغوية حقيقية، تطبع فيهما الجرائد وتبث منهما الإذاعات ومحطات التلفزة ـ بلغتين مختلفتين ـ أنباء وأحداث مختلفة وأحيانا متناقضة، وهو وضع قسم البلاد ـ من منظور اقتصادي ـ إلى منطقتين مختلفتين أيضا، إذ تمركزت الصناعة والتصنيع بالمنطقة الناطقة بالفرنسية، وهو أمر يرتبط بالتعليم وتدعيم إمكانياته منذ تأسيس «الوطن» البلجيكي سنة 1830،

ومنذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما يفسر رد فعل الفلامنديين الذين تمكنوا من (صناعة) لغة انطلاقا من لهجة تحتوي على مائة مقطع مبعثر استندت في البداية الى الكنيسة، ثم ارتكزت على الإنعاش الاقتصادي، مستغلة كل الظروف، حتى تحالفت مع النازية في مقابل الدعم الهتلري، وخلق القضية أو الأزمة الملكية بعد الحرب العالمية الثانية والمتعلقة بعودة الملك «ليوبولد الثالث» [1] وهي قضية قسمت بلجيكا الى فلامان كاثوليكيين مؤيدين، وفالون لائكيين معارضين . وهي مسألة لم تعرف حلا إلا بتنازل ليوبولد الثالث عن العرش في 16جويليه 1951 لصالح «بودوان» الأول، لكن التاج لم يعد يمثل رمز الوحدة على الإطلاق مع بقاء التعصب والصراع اللغوي على أشده في هذا البلد المسيحي الصغير!

وسيظل ـ في نظرنا ـ برميل البارود الذي يهدد الوحدة الوطنية في بلجيكا متمثلا في اللغات المختلفة التي يتحدث بها سكان البلاد والتي تكاد تنشطر ـ في الواقع ـ الى قسمين مختلفين، يتحدث كل منهما لغة تختلف عن لغة القسم الآخر، بينما العاصمة بروكسل تجمع بين اللغتين (الفلامندية والفرنسية) وإن كانت هي ذاتها أشبه بجزيرة وسط بحر من الأراضي الناطقة بالفلامندية أو الفرنسية. لقد كانت اللغة ولا تزال هي القنبلة الموقتة الكامنة في أعماق هذه الدولة الأوروبية التي لا يزيد عمرها عن 150 سنة!!

كما كانت اللغة وراء كل المتاعب والاضطرابات التي شهدتها البلاد ، خلال تاريخها القصير، كما كانت السبب وراء سقوط أغلب الحكومات التي تولت السلطة والتي بلغت منذ سنة 1933 فقط 63 حكومة اضطرت أغلبية هذه الحكومات أن تترك الحكم قبل انقضاء الفترة المقررة لها دستوريا وهي أربع سنوات. ومما قيل في ذلك ماورد في مقال بعنوان: «حرب اللغات تهدد مستقبل بلجيكا كدولة موحدة» جاء فيه:.

---

(1) هنري داركي:تاريخ البلجكيين دار النشر (بوك) بروكسل، ص:199.

«تعيش بلجيكا هذه الأيام واحدة من الأزمات الوزارية العديدة التي كانت اللغة سببا لها حيث اضطرت حكومة (ليوثنا مانز) الائتلافية إلى الاستقالة بعد 16 شهرا فقط من توليها السلطة، بعد الخلاف العاصف الذي نشب بين الأحزاب المؤتلفة في الحكومة حول مشروع قانون جديد يستهدف حل مشكلة الخلاف حول اللغة، يقسم البلاد الى مناطق منفصلة تتمتع كل منها بحكم ذاتي» [1]، وجاء ـ أيضا ـ في جريدة لوموند تحت عنوان «بين الخصام اللغوي والانهيار الاقتصادي» ما نصه: «أما المطالب المتعلقة باللغة أو بالحكم الذاتي فكانت مقتصرة على الفلامنديين فقط، سيما بعد الحرب العالمية الثانية، وتترجم العواطف المتأججة لمنطقة فلاندرا بعزيمتهم القوية في الثأر، ثم البناء بواسطة ابتكار لغة انطلاقا من عدة لهجات متفرقة وتكوين ثقافة حول الكنيسة» [2].

رابعا: الوضع في إسبانيا:

1 ـ كاتالونيا:

يشكل الكاتلان المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من إسبانيا، وتمتد على إقليم كل من برشلونة وتاراغونة وليريدا، ويمثل عددهم عشر الشعب الإسباني تقريبا خلال القرن التاسع عشر [3].

لقد عبر الكاتاليون عن شعورهم القومي بالتصدي للوجود النابوليوني في إسبانيا فظلوا رافضين له، إذ لم تنقطع الثورة ضد فرنسا حتى سنة 1810 [4].

---

(1) جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ: 1978/10/28.

(2) (جريدة (لوموند) الصادرة بتاريخ:1982/10/26. وانظر: أيضا مقالا في (جريدة (لوموند) الصادرة بتاريخ:1986/10/16.

(3) لوموند الديبلوماسي الصادر بتاريخ:1982/01/04.

(4) نفس المرجع السابق.

وابتـداء من سنة 1814، وتحت تأثير سياسة المركزية، اتخذت الحكومة الإسبانية موقف الرفض من المطالب الانفصالية للكاتلان، فحرم استعمال اللغة الكاتالونية التي تنحدر من أصل لاتيني وتختلف في نطقها وتركيبها عن اللغة القشتالية، لكن الشعب ظل يتعصب لهذه اللغة في التعامل اليومي كما ظل الكهان يبشرون بها.

إن الحالة في كاتالونيا تعد مثالا حيا للتعصب اللغوي ولدور القادة السياسيين الطموحين في اللجوء الى اللغة كوسيلة لتحريض الجماهير ضد الحكومة المركزية، وتعد أيضا مثالا على أن اللغات ليست سببا جوهريا في الخلاف في ذاته، وإنما هي من دوافع الخلاف ومن مبرراته، فبالرغم من أن كاتالونيا اليوم تتمتع بالاستقلال الذاتي، وباستعمال حر للغة الكاتالونية، حتى أنها تملك القناة الثالثة في التلفزة الإسبانية، والتي تفتح وتغلق قنواتها دون النشيد الإسباني الوطني، لكن الروح الانفصالية الطامحة إلى الاستقلال الكلي عن الدولة المركزية ما تزال تغذي تنظيمات سرية وعلنية الى اليوم. فقبل عملية الاغتيال التي جرت ببرشلونة يوم 1987/12/26 والتي أودت بحياة جندي أمريكي وجرحت آخرين ، ظهرت ملصقات جدارية عن منظمات استقلالية كاتالونية تندد بالوجود الأمريكي في إسبانيا (والذي بلغ 12 ألف جندي)، أما بعد العملية، فقد تبنت الحدث منظمة الأرض الحرة والجيش الأحمر لتحرير كاتالونيا، كما تبنت المنظمتان عملية أخرى سابقة جرت أحداثها يوم 1987/10/14. وهذا كله كما يلاحظ كان للتعصب اللغوي وبالتالي القومي دور في حدوثه، والمثال الثاني في هذا البلد هو:

2 ـ مقاطعة الباسك:

إن الوضع في هذه المقاطعة من حيث القلاقل التي يثيرها سكانها للحكومة المركزية في مدريد لا تقل عما تثيره مقاطعة كاتالونيا ، وهي كلها ذات أساس لغوي يكتسي طابعا تعصبيا عنيفا تجسد في ظهور حركة انفصالية تطالب باستقلال المقاطعة على أساس لغوي (قومي) وهي منشقة الى قسمين:

1 ـ شق سياسي (نضالي) يسعى الى تحقيق فكرة الانفصال بوسائل سياسية (ديمقراطية).

2 ـ شق عسكري لا يفرق بين الدكتاتورية والديمقراطية في إسبانيا، أمام طموحه المتعصب والهائج نحو الانفصال التام.

إن حركة الباسك عاشت في المهجر منذ الحرب الأهلية في إسبانيا وانتصار الجنرال فرانكو، فوجدت في فرنسا تعاطفا معها، خاصة وأن الحدود اللغوية بين الباسك الشمالية وفرنسا غير واضحة المعالم، وهو الأمر الذي شجع هذه الأقلية على المطالبة باستقلال المقاطعة.

ومن مظاهر هذا الصراع (اللغوي ـ السياسي ـ العسكري) ما نلاحظه من استغلال الحكومة الإسبانية لظاهرة الإرهاب التي انتشرت مؤخرا في أوروبا لتحذير فرنسا من إيواء أعضاء هذه المنظمة الانفصالية (المتعصبة) ودفعتها الى شن حملات اعتقال واسعة وتنظيم حملات «تسليم» ضخمة ضد مناضلي الباسك [1]. للسلطات الإسبانية خاصة بعد تحسن العلاقات ـ منذ 1984 ـ بين حكومة فابيوس الاشتراكية وحكومة غونزاليس، وبعد انضمام إسبانيا ـ منذ 1986 ـ الى السوق الأوروبية المشتركة، ومجيء حكومة جاك شيراك الديغولية الى الحكم في مارس 1986 ، حيث أصبحت مشكلة (الأمن) ومكافحة الإرهاب تطرح بنفس الحدة في كلا البلدين المتجاورين.

من هنا يتحدد دور الإعلام الفرنسي في تشويه حركة الباسك وعدهم من الإرهابيين، كما يتحدد أيضا رد فعل منظمة الباسك ضد

(1) جريدة المجاهد (الجزائرية) الصادرة بتاريخ: 1987/12/22م.

المصالح الفرنسية في إسبانيا، وحتى داخل فرنسا نفسها، وهو الأمر الذي يفسر بوضوح التحالف الإسباني ـ الفرنسي ضد الباسك، لأنهم أصبحوا يغذون فكرة الانفصال في إسبانيا وفي فرنسا معا [1].

إن النموذج الباسكي في دراسة نتائج التعصب اللغوي يمكن من استنتاج مفاده أن التعصب لا يفتأ يهدد بالانفجار والانقسام كالبركان كلما كانت الفرصة مواتية، وذلك ما لاحظناه أثناء مقابلة في كرة القدم جمعت بين (بوردو) و(بالباو) في الأسبوع الأول من أكتوبر 1984 والتي كانت قد أعقبت تسليم السلطات الفرنسية لثلاثة من مناضلي الباسك للسلطات الإسبانية، وهو حدث استغله الاستقلاليون الباسك للإعلان عن وجودهم وعن مطالبهم فحولوا مقابلة كرة القدم الى تعبير عن تأييد سياسي لمنظمتهم، فأخرجوا أعلامها، وعلقوا لافتات مطالبهم الاستقلالية، مثلما لاحظناه ـ تماما ـ بالنسبة لسكان الكيبك بكندا والأسباب واحدة!!

كما أن الأقلية تعبر عن وجودها في استغلالها للظروف والمناسبات التشريعية أو السياسية، فأثناء حملة انتخاب البرلمان الأوروبي الذي جرى في 10جوان 1987م جاءت النتائج في بلاد الباسك لتشكل مصدرا هاما جديدا لحكومة فيليب غونساليس الاشتراكية، إذ أحرز أنصار الحركات الاستقلالية والانفصالية تقدما على حساب أنصار الاندماج في الوطن الإسباني [2]، وهي المناسبة التي رأى فيها الرأي العام العالمي بلاد الباسك، وقد وضعت تحت الحراسة المكثفة والشديدة، لكن هذا لا يمنع أبدا أفراد الأقلية من التعبير عن استيائهم، ومن التعبير عن مطالبهم وهو ما فعلته الجماهير الباسكية بتاريخ 1987/10/4 في مظاهرة صاخبة للتعبير عن الاستياء والتنديد بالسياسة الفرنسية التي سلمت 141 مناضلا باسكيا الى غاية جويلية 1986 [3].

---

(1) نفس المصدر السابق الصادر بتاريخ:1987/12/29م.

(2) مجلة الحوادث العدد 1615 بتاريخ 1987/10/16 .ص :39.

(3)مجلة العالم العدد 193 بتاريخ 1987/12/31.ص:39.وانظر أيضا مجلة لوبوان (الفرنسية)العدد 629 بتاريخ 1987/10/8.

خامسا: الهند:

إن الصراع في الهند يشبه الى حد ما الحركات الانفصالية المذكورة في الحالات السابقة في كل من بلجيكا وكندا وإسبانيا، ويرتبط هذا الصراع بصعود عناصر (جهوية) تطالب بالمشاركة في الوظائف الحكومية منافسة بذلك النخبة في المدن، ففي غياب الفرص الواسعة للتوظيف في الأعمال الحرة والصناعة أصبحت الأعمال الحكومية الطريق الأوسع لبلوغ تقدم في الحركة الاجتماعية. وقد كانت النخبة التي أدارت شؤون الهند تحت حكم الأنجليز مزدوجة اللغة عموما، فهي تتحدث الأنجليزية بالإضافة الى لغة محلية أخرى، أما الجماهير الأقل تعلما فإنها لا تستطيع التحدث إلا بإحدى اللغات المحلية.

وعليه فإنها كانت ومازالت مقصاة تماما من الإدارة، إلا في حالة تحول مقر السلطة الى المراكز الجهوية، وتحولت وسيلة الاتصال والتفاهم من الأنجليزية الى اللغات المحلية، ومنذ أن شكلت الوظائف الحكومية مصدرا أساسيا للحركة الاجتماعية أصبح هذا الاقصاء مشكلا بالغ الأهمية.

وهناك جانب آخر من جوانب الاختلاف التي يظهر فيها التعصب اللغوي في الهند يتمثل في استمرار استعمال اللغة الانجليزية في هذا البلد كلغة رسمية. وللوهلة الأولى يبدو هذا مدهشا نظرا لكونها لغة السلطة الاستعمارية، ونظرا للنسبة الضئيلة من الهنود الذين يتحدثونها، غير أن الشيء الذي عورض أكثر، وبعناء أكبر، هو تبني اللغة الهندية كلغة وطنية أساسية، لأن هذا من شأنه إعطاء مجموعة متحدثي هذه اللغة تفضيلا خاصا للالتحاق بالإدارة السياسية. وقد فشلت عدة مرات المحاولات الرامية الى إلغاء اللغة الأنجليزية وإحلال الهندية مكانها أمام المعارضة التي أبدتها المجموعات التي لا تتحدث اللغة الهندية. وينظر الى محاولة جعل اللغة الهندية لغة رسمية على أنه عمل إمبريالي من قبل الناطقين باللغة الهندية؛ ويبدو أن الهنود الذين يتحدثون الهندية في

الشمال يهدفون الى الهيمنة على الحكومة الوطنية. ولاشك أن مشاعر الاستياء من هذا الوضع قد زادت حدة، نظرا لأن المناطق الساحلية كانت في السابق أرقى المناطق في جنوب البلاد، ومعظم هذه المناطق لا تتكلم الهندية، وقد عانى سكانها من الشعور الكريه بازدراء سكان الداخل لهم، وقد يوجد الى حد ما عامل آخر زاد التعصب اللغوي حدة، وهو التعالي العرقي لسكان الشمال ذوي البشرة الأكثر شقرة، والمنتسبين عادة الى الطوائف السامية، وذلك لما للغة من علاقة بالعرق، أو بمعنى آخر باسم العرق أو الجنس الذي ينتسب إليه ناطقو اللغة، كما يتبين في كل الصراعات القومية التي تحدث في العالم، والى جانب ذلك، فقد زاد من انشغال الأقليات اللغوية الهندية وتعصبها ضد اللغة الهندية الشعوربأن جعل اللغة الهندية لغة رسمية أساسية قد يوقف الحركية الاجتماعية للذين لا يتكلمونها.

وعبر عن ذلك سياسي من الجنوب قائلا: «كونوا عادلين أيها الهندوس لكي تكونوا مخلصين لديمقراطيتكم» [1].

(1) بيار باولو جقليولي «اللغة والسياق الإجتماعي» .كوكس واويان لـ تي دي ـ بريطانيا 1972ـ من ص 364 الى 366 .

الفصل الخامس

التعصب المركب من أكثر من عنصر

لقد تناولنا الى حد الآن ثلاثة أنواع من التعصب ـ كل على حدة ـ بحسب الموضوعات التي تكون محورا أو سببا له.. بيد أن هذه الأنواع الثلاثة كثيرا ما توجد متساندة ومتداخلة فيما بينها باتفاق عنصرين (اللغة والعرق) أو (العرق والدين) أو (اللغة والدين)، خاصة وأن اللغة تكتسي طابعا خاصا وحساسا من حيث هي عنوان للقومية، وأساس للشخصية والجنسية.. فيختلط أمرها مع العرق أو الجنس المرتبط اسميا باللغة، فتتضاعف ظاهرة التعصب العرقي لتنسحب على اللغة أو تتضاعف ظاهرة التعصب اللغوي لتنسحب على اسم الجنس أو العرق، كما قد يصادف أن يكون المتعصبون عرقيا أو لغويا من أتباع ديانة مغايرة لديانة الطرف المقابل فتتسع دائرة التعصب وتصبح أكثر حدة واستعصاء على الحل، وهذا ما سنتناوله في هذا الفصل باستعراض بعض الشواهد الحية لهذه الأنواع من التعصب و الصراع المضاعف و المركب من عنصرين أو أكثر في البلد الواحد ومثال ذلك:

أولا: العرق واللغة ومثاله الوضع في موريتانيا.

إن جمهورية موريتانيا هي إحدى دول إفريقيا الغربية التي استعادت استقلالها عن فرنسا في 28 نوفمبر 1960، وهي تمثل أقصى الطرف الغربي لمجموعة الشعوب العربية الإسلامية التي تفصلها مساحات مترامية من الصحراء.

وقد ألغى الاستعمار الفرنسي اسمها الحقيقي الإسلامي (بلاد شنقيط) [1] وأطلق عليها منذ 1899 إسم موريتانيا، وهو اسم روماني قديم كان يطلق على معظم بلاد الشمال الإفريقي بما فيها الجزائر.

تطل موريتانيا على سواحل المحيط الأطلسي، تجاورها الصحراء الغربية والجزائر في الشمال، ومالي في الشرق، والسينغال في الجنوب.

التعصب اللغوي:

منذ فجر الاستقلال وموريتانيا تواجه مشكلة لغوية عويصة تتمثل في المد والجزر بين أنصار اللغة العربية، والداعين الى ترسيخ أقدام اللغة الفرنسية، زيادة على اللهجات المحلية، حيث أن لكل قبيلة لهجتها الخاصة بها!!

وقد وقعت أول أزمة في هذا المجال عام 1966 بسبب تنامي الأقليات التي تتكلم اللغات الزنجية، والتي رأت في الفرنسية أداة لتأكيد ذاتها، وتعقدت الأزمة عام 1968 عندما أصدرت الحكومة قرارا يجعل اللغة العربية لغة رسمية الى جانب الفرنسية وأعلنت الحكومة عزمها على احترام اللغات المحلية وخصصت وقتا خاصا في الإذاعة لتلك اللغات.

وكانت آخر إحصائيات حول عدد الطلبة الحاصلين على الثانوية العامة في عام 1975 تشير الى أن الحاصلين على الشهادة الثانوية بالفرنسية يبلغ عددهم 300 طالب والحاصلين على الشهادة الثانوية المزدوجة (عربية ـ فرنسية) أقل من 200 طالب!.

---

(1) مجلة منار الإسلام العدد الأول ليوم 1986/09/12، ص:50.

وأخذت اللغة العربية تواجه صعوبات فرنسة الإدارة وفرنسة التعليم، ووجود اللغات الإفريقية الأخرى، ولا تزال اللغة الفرنسية تسيطر على المكاتب الحكومية التي يوجد فيها حتى الآن الرئيس الذي لا يجيد سوى الفرنسية والمرؤوس الذي لا يجيد سوى العربية ولا يلتقيان إلا وبينهما مترجم!..

وأصبح المجتمع الموريتاني متعدد اللغات، وهذه اللغات هي العربية، واللغات الإفريقية الثلاث (التكرورية ـ السونيكية ـ والوولف) وصدر قرار بإلغاء اللغة الفرنسية ابتداء من المراحل الأولى في العام الدراسي 84 ــ 85، ولكن الصراع ما زال على أشده حول هذا الموضوع الحساس، الذي تقف وراءه فرنسا بطبيعة الحال، وعن ذلك يقول السيد «عبد الودود ولد الشيخ» [1].

«يقوم هذا المعهد بإعداد قاموس خاص للهجة الحسانية، ولدى قسم الدراسات اللغوية خطة لكتابة اللغات المحلية الثلاث بالحروف اللاتينية، بعد أن كان المعهد منذ إنشائه مركزا لصراع حاد، ففي البداية عمل على كتابة هذه اللغات بالحروف العربية، وبعد أن قطع شوطا كبيرا توقف أمام معارضة بعض عناصر هذه القوميات واتجه المعهد الى كتابة هذه اللغات بالحروف اللاتينية، ووضع الأبجدية اللازمة لذلك، وبدأت بالفعل تجربة تدريسها بعد كتابتها بالحروف اللاتينية» [2].

ويلقي «والي روصو» رشيد بن صالح بعض الضوء على هذا الموضوع فيقول: «لقد أدى الصراع الثقافي الذي نشب منذ الاستقلال الى عرقلة التعريب في موريتانيا، وكانت نتيجة هذا الصراع استمرار اللغة الفرنسية في المدارس والدوائر الحكومية، وقد قرر وضع حد لهذه الحالة بالبدء بتدريس اللغة العربية، الى جانب اللغات المحلية، حتى ولو كان ذلك بالحروف اللاتينية، كبديل لاستمرار التدريس باللغة الفرنسية» [3].

---

(1) باحث بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي الذي يهتم بكل ما يتعلق بموريتانيا (الدراسات اللغوية واللهجات المحلية والأوضاع السكانية والعادات الاجتماعية وحتى الأمثال الشعبية المروية).

(2) مجلة العربي العدد 293 أفريل 1983.

(3) نفس المرجع السابق.

التعصب و الصراع العرقي:

لقد أعلن تيار سري للمقاومة وهو «القوة التحريرية الإفريقية لموريتانيا» في بلاغ أذيع في دكار [1] أن 200 ضابط وصف ضابط جلهم من السود قد اعتقلوا وأن هذه الحادثة تبين مرة أخرى مشاكل وصعوبات التعايش بين البيضان «المور أو العرب البربر» والأفارقة «السود» في موريتانيا.

الأفارقة السود يمثلون ربع سكان موريتانيا الذي يقدر الآن بحوالي مليونين، لكن نسبة التزايد أعلى عند الأفارقة السود منها عند البيض الذين يشغلون المناصب الحساسة في البلاد، كالاقتصاد والإدارة والحكم السياسي، زيادة على هذا، فحتى الأراضي الخصبة المجاورة لنهر السينغال يحتكرها البيض، وهذا ما زاد في نرفزة الأفارقة السود، ودفعهم لأن يتظاهروا في أكتوبر 1986 في كل من نواديبو ونواكشوط... [2].

التداخل بين التعصب و الصراع العرقي والتعصب والصراع اللغوي:

كان رفض الأفارقة السود لإجبارية تعليم اللغة العربية منبعا للإصلاحات اللغوية التي قامت بها الدولة عام 1979 والقاضية بتعميم تعليم أربع لغات وطنية وهي العربية ـ السونيكية ـ الوولف ـ والتكرورية، زيادة على الفرنسية التي تعتبر لغة العمل. وعلى ضوء ما سلف يمكن أن نستخلص بأن موريتانيا اليوم ونظرا للتنافر العرقي، فهي تعاني من مشكلة الهوية والانتماء الثقافي واللغوي [3]، الى جانب أن الموريتانيين يواجهون اليوم مشكلتين مزدوجتين الأولى تكمن في تعدد اللغات، والثانية في التمايز العرقي بين الأفارقة السود والبيض، هذه من جهة،

---

(1) جريدة لوموند ليوم: 1987/10/31، رقم 13998.
(2) نفس المرجع السابق ذكره.
(3) مطبوعة تحت عنوان: «بطاقة تحليل الوضع في موريتانيا» من منشورات المعهد الوطني للدراسات الاستراتيجية الشاملة بالجزائر 1989.

ومن جهة أخرى هناك تمايز آخر يمكن أن نطلق عليه اسم التمايز (العرق ـ لغوي) حيث أن الأفارقة السود يتعصبون للغاتهم المحلية وللغة الفرنسية، بينما البيض يميلون، بل ويتعصبون للغة العربية لغة الإسلام، ضد الناطقين باللغات الأخرى من أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد والدين الواحد.!

على أن هذا الاختلاف العرقي واللغوي الملاحظ لم يقتصر على داخل موريتانيا فحسب، بل امتد إلى السينغال حيث كاد يحدث حرباً طائفية بين الجارتين، ومع أن هذه الحرب لم تقم إلا أن مجازر بشرية قد ارتكبت في حق رعايا كلا الدولتين المسلمتين في شهر رمضان من سنة 1989 ومما أوردته الصحافة العالمية في وصفها لتلك المذابح العرقية وفظاعتها وخلفياتها، ما جاء تحت عنوان «يوم المذبحة» مانصه: «وفي اليوم نفسه 27 أفريل استدعى الأمين العام لوزارة الخارجية السينغالية السفير الموريتاني، وسلمه في السابعة والنصف مساء رسالة احتجاج من الحكومة السينغالية، وفي الليلة نفسها أذاع الراديو والتلفزيون السينغالي بيانا حكوميا تضمن تصعيدا دراميا للأحداث، فهم منه الموريتانيون أن يوم الجمعة سيكون مذبحة.

أثناء ذلك امتلأت السفارة الموريتانية بالمواطنين الملتجئين اليها وحولوا لكثرة عددهم الى المعهد الإسلامي في وسط داكار، ثم حولوا بعد امتلائه الى المعرض الدولي لأنه كان أوسع، وكان عددهم قرابة 30 ألف مواطن.

يوم الجمعة 28 أفريل يسميه الموريتانيون يوم الجمعة الأسود الذي قتل فيه الموريتانيون في داكار وفي مدن سينغالية أخرى.. ومن الصعب تقدير عدد القتلى، ولكنه مرتفع جدا، وأعضاء السفارة الموريتانية يتحدثون عن آلاف القتلى.

مساء الجمعة ألقى عبدو ضيوف خطابه الشهير وكان عنيف اللهجة، وكان عبدو ضيوف هو الذي طلب أن يسترد كل بلد أفراد جاليته، وذلك في حديث مع ولد الطايع حيث قال أن هناك 500 ألف موريتاني في السينغال وأنه غير قادر على حمايتهم.

خلال هذه الفترة كان مئات السينغاليين والموريتانيين قد عبروا الحدود من النهر خوفا » [1].

وجاء أيضا في مقال تحت عنوان «المسألة الموريتانية السينغالية» تحت عنوان فرعي «رد فعل عنيف» مانصه: «في الحقيقة لم يفاجأ أحد برد الفعل الموريتاني وخاصة في العاصمة نواقشوط التي وقعت بها حوادث سطو وتقتيل ضد السينغاليين المقيمين، واستمرت الحوادث الخطيرة رغم استدعاء الرئيس ولد الطايع للقوات المسلحة وفرض حظر التجول.

وتعقب الأوساط العليمة في نواقشط بقولها «الأعمال الإجرامية لم يقم بها الموريتانيون (البيض) بل نفذتها جماعة «الحراتين»، (وهم الزنوج الذين لا يعتبرون أنفسهم عربا) والظاهر أن مثل هذا التعقيب يراد به تفنيد الاتهام المغرض الصادر عن الأوساط السينغالية بأن البيض (العنصريين في زعمهم) يقتلون زنوج موريتانيا بكل برودة دم»!.

وهنا تختلط المفاهيم شيئا ما؛ فمن جهة تؤكد الأوساط الموريتانية أن الضحايا هم سينغاليون أصلا «اشتروا» بطاقات تعريف وشهادات ميلاد واستصدروا أوراقا وبطاقات جنسية موريتانية، وتضيف نفس الأوساط أن أعداد هؤلاء تضاعف في السنوات الماضية، وإذا استمر الحال على هذا المنوال فإنهم سوف يشكلون أغلبية السكان في البلاد في المستقبل القريب!!

أما الأوساط السينغالية فإنها تقول عكس ذلك تماماً! أي أن الضحايا هم من السكان الزنوج الموريتانيي الأصل والمنحدرين من القبائل التي تعيش منذ عشرات السنين على ضفتي السينغال الذي يشكل خط الحدود بين موريتانيا والسينغال منذ ثلاثين سنة، أي منذ الاستقلال، وأهم هذه القبائل الزنجية تنتسب الى التوكولور والسولنكي والبولار!!

والحقيقة أن السلطات الموريتانية تنزعج دائما من «المشاعر الأبوية» التي تمنحها السلطات السينغالية لنفسها دائما كلما تعلق الأمر «بزنوج موريتانيا» أي القبائل الزنجية التي عاشت وتعيش منذ زمن

---

(1) جريدة الشرق الأوسط العدد 3920 ليوم: 1989/08/22.

سحيق على الضفة الشمالية من النهر، أو ضمن حدود الدولة الموريتانية الحالية، وقد ازداد انزعاج الحكومة الموريتانية بعد ما تكونت حركة سرية تسمي نفسها «فلام» (جبهة تحرير أفارقة موريتانيا) وقد زعمت في إحدى مناشيرها (طرد المور «العرب» الى بلدهم الأصلي). وهي تريد الاستيلاء على السلطة بحجة أن الأغلبية للزنوج في موريتانيا!!

إن كل هذه العناصر تبين حدة الأحقاد والمشاعر العنصرية التي زرعت مؤخرا لنسف علاقات الأخوة والجوار بين موريتانيا والسينغال باستغلال مثل هذه «الفتائل» العرقية اللغوية!

ثانيا: الدين واللغة والعرق ومثاله الوضع في نيجيريا:

ومن مظاهر التعصب الديني واللغوي المنتج للصراع المزمن بين القبائل في هذا البلد الإفريقي العملاق، العضو في منظمة المؤتمر الإسلامي، وذي الأكثرية الإسلامية، هوما عرف على هذا البلد من عدم استقرار منذ أكثر من ربع قرن (1962). وقد ازدادت حدته في السنوات الأخيرة بسبب المنظمات المسيحية والحركات التبشيرية ذات الاتصالات الخارجيــة (الغربيــة والأمريكية) لاستفزاز مشاعر المسلمين، وذلك بالطعن في مصداقية رسالة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وتحريف آيات الذكر الحكيم.

وفي هذا الإطار قام المسلمون تحت قيادة جماعة نصر الإسلام [1] بالرد على الهجوم الاستفزازي الذي قامت به هذه الجماعات الصليبية المختلفة، وذلك بشرح القضية على حقيقتها لرفع اللبس الناتج عن المغالطات التبشيرية من جهة وتكليف أكثرمن 27 محاميا للدفاع عن المسلمين المعتقلين نتيجة أعمال العنف والتعصب التي أسفرت عنه الاستفزازات المذكورة من جهة أخرى [2].

(1) مجلة العالم العدد 183 الصادرة بتاريخ: 1987/08/15م.

(2) مجلة العالم العدد: 200 الصادرة بتاريخ: 1987/12/12.

وهكذا نستخلص أن مصدر الاضطرابات والتعصب يكمن في التطاحن الديني القائم أساسا ـ بين المسلمين والمسيحيين ـ والمتمثل في التسابق بين الطرفين المتصارعين نحو من ستكون له الكلمة الأولى واليد الطولى أو العليا في البلاد.

وحول هذا الصراع جاء على لسان إحدى الشخصيات الاجتماعية المرموقة في نيجيريا (وهوالحاج محمد عطا) أنه إن لم تتخذ الإجراءات الأمنية اللازمة للحيلولة دون تفاقم الوضع الناتج عن التعصب في هذا البلد فإن الوضع أصبح مخيفا ومنذرا بالانفجار الى درجة أن الجيش النيجيري لا يستطيع أن يوقفه، مما يهدد وحدة البلاد بالتمزق والانقسام المحتوم.. وذلك لأن الصراعات العرقية والدينية ما انفكت تطل برأسها بفعل عوامل داخلية تتمثل في اللاتجانس العرقي والديني، وعوامل خارجية تتمثل في إذكاء نار الفتنة والتعصب بين القبائل المتناحرة للأسباب (الاخلاقية) ذاتها [1].

وكان قبل هذا التصريح بأيام قد أظهر «الاتحاد المسيحي النيجيري» (فرع شمال نيجيريا) عضلاته علنا، وذلك بإقامة صلوات «سياسية» مفتوحة في ساحة المهرجانات الشعبية في مدينة كادونا عاصمة الشمال المسلم.

لقد استفز ذلك الاجتماع المسلمين الذين شعروا بالإهانة والتحدي من قبل من لم يكن لهم أي دور معروف في الماضي، وإنما شكلوا شوكة في حلق الشمال المسلم.

والذي تسرب من ذلك الاجتماع المسيحي «المكشوف» هو أن على المسيحيين في الشمال أن يعبئوا قواهم السياسية ضد أي مسلم، وكل ما هو إسلامي، وخاصة في انتخابات الحكومة المحلية المقبلة، والتقط الحاج أبو بكر قمي (الزعيم الإسلامي المشهور) القفاز ليحرق ما تبقى من خطوط اتصالات سياسية مع المؤسسة المسيحية.

---

(1) نفس المرجع السابق

وجاء في أحد التصريحات لمجلة «كواليتي» بأن لدى المسيحيين في نيجيريا خيارين وهو: الخضوع لحكومة إسلامية أو تقسيم نيجيريا الى دولتين إحداهما للمسلمين والأخرى للمسيحيين [1].

هذا إذن فيما يخص الصراع الناتج عن التعصب الديني بين المسيحيين والمسلمين والذي ماانفك يهدد هذا البلد بالانقسام من بداية الستينيات حتى الآن، أما فيما يتعلق باللغة أو العرق فإن الوضع وإن كان يبدو أقل خطورة (بسبب أن اللغات الوطنية الخاصة بالقبائل المتصارعة دينيا وعرقيا، هي لغة غير مكتوبة في الوقت الحاضر) [2].

إلا أنه لا يعدو أن يكون برميلا من البارود المنذر بالانفجار في كل حين، بمجرد أن تطالب أية قبيلة من القبائل الأربع الهامة بالانفصال على أساس ديني، فيتبعها التقسيم اللغوي الجاهز المتمثل في اللغات الوطنية المتداولة شفويا في البلاد، والمهددة للجغرافيا السياسية لهذه القبائل المتناحرة وهي:

لغة الهاوسة: نسبة لقبيلة الهاوس.

لغة الفولاني: نسبة لقبيلة فولاني.

لغة يوروبا: نسبة لقبيلة يوروبا.

لغة أيبو: نسبة لقبيلة أيبو.

ثالثا: الدين واللغة ومثاله قبرص:

وكما أشرنا في بداية هذا الفصل، فإن العناصر الثلاثة للتعصب والصراع تتكامل لدعم بعضها البعض، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما هو قائم الآن في قبرص، حيث يوجد دينان مختلفان (الإسلام والمسيحية) ولغتان مختلفتان(اليونانية والتركية) وقد أنتج العنصران صفة ثالثة قومية ذات طابع عرقي أو قومي تتمثل في القبارصة الأتراك (نتيجة اعتماد اللغة التركية) والقبارصة اليونان (نتيجة اعتماد اللغة

---

(1) مجلة العالم العدد: 200 الصادرة بتاريخ: 1987/12/12.

(2) نفس المرجع السابق.

اليونانية) فأصبحت الجزيرة مقسمة إلى قوميتين و"دولتين" نتيجة للتعصب الناتج عن تمسك كل طرف بما يراه أساسا لمقومات وجوده القومي على الجزيرة، والذي يعتبر امتدادا للتعصب (الأحادي العنصر) الموجود بين الأغلبية المسيحية والأقلية المسلمة في اليونان (كما سبقت الإشارة في الفصل الثاني).

وتعود أصول التعصب في هذا البلد الى أن قبرص عبارة عن دولة في جزيرة يسكنها شعبان مختلفان لغة ودينا.. ويرجع هذا التقسيم أو هذا الدمج القسري في أصله الى أن الجزيرة كانت تحت السيطرة البريطانية منذ عام 1887 حيث تنازلت لها عنها تركيا مقابل مساعدة أنجلترا لتركيا ضد روسيا إذا تطلب الأمر.

ونظرا لأن الأغلبية من سكان الجزيرة يونانيون، فقد قاموا بالثورة ضد الأنجليزللمطالبة بالالتحاق باليونان، بلدهم القومي، وقد استمرت ثورة القبارصة اليونانيين ضد الأنجليز إلى أن تدخلت تركيا في هذا النزاع، وعارضت بشدة التحاق الجزيرة باليونان، ورفضت أن يبقى القبارصة الأتراك تحت رحمة اليونانيين، حينئذ طالبوا بعودة الجزيرة اليهم بعد جلاء البريطانيين، على اعتبار أنها كانت تحت حكمهم لعدة قرون قبل أن يتنازلوا عنها للأنجليز.. ولما اشتدت الثورة ضد الأنجليز من طرف القبارصة اليونانيين شعر الأتراك بأنه من الصعب المطالبة بعودة الجزيرة اليهم لرفض القبارصة اليونانيين هذا الطلب من الأساس، الى جانب أن الأتراك يمثلون خمس سكان الجزيرة، ولذلك صار الأتراك ينادون بتقسيم الجزيرة الى قسم تركي وقسم يوناني، غير أن التقسيم كان شبه مستحيل من الناحية العملية، ولذلك اتفق الأطراف الثلاثة في النهاية على إيجاد نظام خاص في الجزيرة يؤلف بين مصالح الجميع ومطالبهم، وتأسست بذلك الدولة القبرصية دون أن تنطفئ نار الشقاق والصراع بين القوميتين المتعارضتين في البلاد، ولا أدل على ذلك من نشوب الحرب الأخيرة بين تركيا واليونان التي انتهت بتقسيم الجزيرة الى قسمين لا يمكن التنبؤ بكيفية الجمع بينهما مرة أخرى في دولة واحدة.

ومن المؤكد أن الجزيرة، لو لم تكن محتلة من قبل الأنجليز طوال المدة السابقة لسار سكانها في الاتجاه الذي سار فيه سكان جزيرة كريت، أي كان على اليونانيين أن يثوروا على الأتراك (بدليل ثورتهم على الأنجليز) وتنتهي تلك الثورة بانضمامهم الى الدولة الأم في اليونان، وكان على الأتراك الموجودين في الجزيرة الخيار أمام أمرين: إما البقاء في حالة أقلية تحت الحكم اليوناني، وإما الخضوع لحكم (التبادل السكاني) الذي تقرر بعد الحرب التركية اليونانية، حيث استبدل كل طرف أقليته بأقلية الطرف الثاني الموجودة تحت حكمه، فانتقل أتراك اليونان الى تركيا وانتقل يونان تركيا الى اليونان، ولعل هذا أقوى برهان على ارتباط القومية باللغة أساساً كقاعدة عامة، ولا نعرف - حتى الآن - ما يثبت العكس في اعتقادنا.

ونتيجة عدم تسامح أو تنازل أي طرف للطرف الآخر عن مميزاته القومية، والوقوف في المقابل موقف التعصب لهذه الخصائص مقابل تعصب الطرف الآخر، جعل الوضع يزداد تعقيدا شيئا فشيئا، وقد ينتهي بانقسام الجزيرة الى دولتين مستقلتين استقلالا (بائنا)، بعد فشل جميع المساعي الدولية الى حد الآن، لإيجاد أي حل وسط يمكن أن يجمع سكان الجزيرة في أي شكل من أشكال الدولة الواحدة المتسامحة الأطراف، والغاضة النظر عن الخلاف والاختلاف، وهذا نموذج من الحالات التي تتبين فيها أخطار التعصب، على وحدة الشعوب والأمم، وعلى نفسية الأفراد في نفس الوقت، حيث يعيشون في قلق دائم وخوف مستديم، وترصد للخصم، وتحفز لصد العدوان الذي يغذيه التعصب المركب في كل حين، ومن كل جانب، وعلى الدوام.

رابعا: العرق والدين واللغة
ومثاله الوضع في سيلان «سري لانكا»

إن هذا البلد الآسيوي المحاذي للهند والتوأم له في تعقيدات طوائفه وأقلياته المتناحرة.. يمثل أحد النماذج القليلة في العالم التي تتداخل فيها

عناصر التعصب الثلاثة، حيث يتكون من أقليات دينية وعرقية ولغوية، ما انفكت تتناحر فيما بينها في تعصب وعنف مدمر للهوية والذات الوطنية، ويتمثل على الخصوص فيما يقوم به السنهاليون الذين يمثلون حوالي 11 مليون نسمة إزاء التاميل الذين يمثلون 3 ملايين نسمة، بصفاتهم الثلاثة المتميزة عن السنهاليين (دينا ـ وعرقا ـ ولغة) الى جانب المسلمين وعددهم حوالي مليون وربع مليون نسمة، والذين يتفقون مع التاميل في اللغة ويختلفون عنهم في الدين، وتعود خليفات التعصب (المركب) في سري لانكا الى أن التاميل يعتقدون أنهم شعب قادم الى سري لانكا من الهند، منذ قرون موغلة في القدم، وهم ينتمون الى ولاية (تاميل نادو) ومن ثمة انتشروا عبر نقاط كثيرة في المعمورة، وحيثما حلوا لم يذوبوا في المجتمعات المحلية، بل ظلوا متمسكين بميزاتهم العرقية والدينية والثقافية عموما، سواء في سري لانكا أو في غيرها من البلاد التي استوطنوها، وتتمركز أغلبية الأقلية التاميلية في جزيرة سري لانكا، فهم يشكلون 18٪ من مجموع سكان الجزيرة البالغ عددهم 16 مليونا، تجتمع هذه النسبة في شبه جزيرة جفنا الشمالية، أما الأغلبية السكانية فهم من السنهاليين.

يعتبر تاميل سري لانكا أنفسهم امتداداً لتاميل الولايات الجنوبية للهند، وخاصة ولاية نادو التي يقطنها زهاء 55 مليون من التاميل [1] يشكلون ولاية تتمتع بالاستقلال الذاتي على أساس لغوي، إذ أن ديانة التاميل هي الديانة الهندوسية، ولهذا فإن الأقلية التاميلية في جزيرة سري لانكا تجد تغذيتها الروحية، وتستمد وجودها الثقافي وشعورها القومي من سكان الهند في نقطة جوهرية تكمن في الانتماء الديني، حيث أنهم فرع من الهندوسية التي تشكل أغلبية سكان الهند، كما تعتمد هذه الأقلية على سكان ولاية نادو وبالخصوص حيث تستمد شعورها الثقافي من اللغة التاميلية.

---

(1) مجلة العالم، 9 يناير 1980، العدد: 204.

هذا ولم يفتأ بقاء عنصر اللغة حيا يحرك عنصر الأقلية كلما دعت الظروف لذلك مما أثمر - غداة استقلال الهند - تقسيمها الى ولايات مستقلة ذاتيا، على أساس مناطق لغوية، ومنها ولاية نادو، التي تمثل الأرض التي يتمثل فيها التاميل لغتهم وحضارتهم ومفهوم الشعب التاميلي ذاته.

لهذا فإن الشعب التاميلي يعمل بكل جهد على تبيان تمايزه عن باقي الشعوب، فأدخلت اللغة التاميلية كأداة للتعليم في ولاية نادو الهندية، وبذلت شتى المحاولات لتحديثها والارتقاء بها الى مجال البحث العلمي، وإقامة العلاقة بها بين الماضي الثقافي العريق والحاضر العصري، لهذا تنمو المرافق التعليمية بين تاميل نادو بسرعة فائقة من حيث الكم والكيف، فازداد عدد الجامعات التي توفر التعليم العام، وانشئت الجامعات المتخصصة، فأصبح للتاميليين جامعة زراعية وأخرى هندسية ومعهدا للتكنولوجيا.

لكن أهم ما يلفت النظر في حياة التاميل، أنه شعب لا تحدد حياته بالدوافع الاقتصادية أو بعبارة الأمن المادي كما هو الشأن في البلدان التي حققت قدرا من الرصيد الاقتصادي والمادي، لكن تتحدد حياته وأسلوب تفكيره بالهيمنة القوية للدين، وهو ما يدل عليه تسخيرهم للآلات الالكترونية من أشرطة وأسطوانات وغيرها لهذه الأمور الدينية، أما الحركية الاقتصادية، فإنها من العوامل الثانية في تنشيط الحركية الاجتماعية للتاميل، وفي الإسهامات التثقيفية من أجل تغيير نمط الحياة وأسلوب التفكير.

بهذا المدخل الأصيل للتاميل، نربط بينهم وبين الأقلية التاميلية بجزيرة سري لانكا، والتي تشكل - كما أسلفنا - حوالي 18٪ من سكان الجزيرة الإجمالي. يرى البعض [1]، أن ثلثي هذه النسبة هم ممن يعرفون

(1) ثورة التاميل: مجلة العربي، الكويت (استطلاع خاص) 1985/08 العدد: 321، ص:87.

بجافنا تاميل، وتمتد جذورهم الى أرض جزيرة سري لانكا منذ حوالي ألفي سنة، أما الثلث المتبقي فهم من الهنود التاميل الوافدين من نادو التي لا يفصلها عنهم إلا 40 كلم من مياه مضيق بالك.

إن تاميل جافنا يعتبرون أنفسهم أعلى عرقا من التاميل الوافدين، وذلك من حيث شعورهم بالتفاوت الثقافي والحضاري، إذ يتميزون بشعورهم بالانتماء الى الأرض، ويتفاخرون بانتسابهم الى نسل المقاتلين الأوائل من ملوك البانديا والشولا والبالانما، وفي حين يعتبر الهنود التاميل من الوافدين العمال والاجراء الذين جاء بهم الاستعمار الأنجليزي لاستغلال زراعة الشاي وصناعته في سري لانكا [1]. وهم بالنتيجة من أفقر الطبقات، ومن أحطها في الوطن الأصلي. وهذا هو الذي أحدث تمييزا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا بين طائفتي التاميل.

أما من الناحية العقائدية، فإن التاميل الهنود يعتبرون أكثر تمسكا بالهندوسية كما هي في أصالتها الهندية، في حين نجد في تاميل الجافنا فئات أكثرتحجرا وانغلاقا عرقيا، وخاصة منهم النباتيون والبرهميون الذين يحافظون على نقاوة وسمو عرقهم.

لكن رغم هذا، فإن عامل اللغة يجمع بين الطائفتين التاميليتين ليكوّن منهم جبهة في مقابل السنهاليين، وتعني الكلمة دماء الأسد (سنها = أسد، لي= دم).

ينحدر السنهاليون وهم أغلبية سكان سري لانكا من أصول هندية، تزعم الأساطير أنهم نزلوا رفقة ملكهم (فيجايا) أرض (تامباباني) في سري لانكا، في اللحظة التي كان بوذا يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة، وهذا مكنهم من الامتزاج بالأجناس الأصلية البدائية في الجزيرة من قبائل اليكساس والناجاس وتعلموا منهم لغتهم (البراكزيتية) التي تحولت فيما بعد ـ وعلى مدى القرون ـ الى اللغة السنهالية.

---

(1) نفس المصدر

أما من حيث العقيدة، فتنتمي الأغلبية العظمى من السنهاليين الى البوذية (10 ملايين من مجموع 11 مليون سنهالي).

هذا هو إذن أصل الخلاف الثقافي والاجتماعي والسياسي والعقائدي بين التاميل والسنهاليين في جزيرة سري لانكا، فهو خلاف ديني ولغوي يوجد حتى داخل أبناء الطائفة الواحدة و له جذوره القريبة، إذ وصل السنهاليون الهندوآريون الى سري لانكا خلال القرن الخامس، لينظم اليهم بعد ذلك الغزاة التاميليون القادمون من جنوب شرق الهند، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، قام الحكام الهنود بعدة حملات غزوا فيها سري لانكا في مناسبات متعددة، وفي نهاية القرن الثالث عشر نجح التاميل في تأسيس مملكة مستقلة في الجزء الشمالي من الجزيرة، وهي المملكة التي استمرت حتى الغزو البرتغالي في القرن السابع عشر، وهي المنطقة التي يطالب التاميل بحق تقرير مصيرهم فيها، وحق بناء دولة مستقلة على ضوء استفتاء شعبي [1].

إن الاصطدامات بين التاميل والسنهاليين تعود الى بداية الاستقلال، وأهمها اصطدامات سنة 1958 و1961 و1977 و1981 و1983 [2]. إلا أن العصيان الفعلي والمسلح الواسع والعنيف بدأ بتاريخ 23 يوليو 1983، بقيادة جبهة تحرير التاميل بإقليم جافنا (التجمع الرئيسي لطائفة التاميل) وهو عصيان ضد الحكومة السريلانكية وضد الأغلبية السنهالية الذي أشعل نيران الفتنة بين الطائفتين.

دخلت سري لانكا في حرب أهلية منذ 1983، وذلك نتيجة قتل 13 في الجنود الحكوميين إثر هجوم أحد الفرق التاميلية عليهم، مما أثار الروح الطائفية لدى الأغلبية السنهالية، التي راح أفرادها يطاردون التاميل ويحرقون بيوتهم ويحطمون محلاتهم ويطعنون أجسادهم في كل أنحاء سري لانكا، وبهذا أنتج هذا الاصطدام حربا قومية ذات جذور دينية

---

(1) ثورة التاميل (مصدر سبق ذكره)

(2) ثورة التاميل (مصدر سبق ذكره)

ولغوية وعرقية، أدت الى أزمة اقتصادية في سري لانكا، لأن التاميل يملكون 60٪ من الأعمال التجارية، ولأن الخسائر المادية بلغت سنة 1983 أكثرمن 165 مليون دولار أمريكي، والى أكثر من 500 قتيل [1].

لم تفتأ هذه الأحداث والاصطدامات أن اشتعلت من جديد نتيجة استفزاز أو هجوم من قبل أفراد جيش تحرير التاميل. ففي سنة 1985 هاجم الثوار التاميل إحدى المدن البوذية المقدسة، وقتلوا حوالي 150 من المدنيين، وهوما أثار السخط الرسمي فراحت قوات الشرطة تحتجز المدنيين من التاميل الذين بلغ عددهم أكثرمن 1500 شخص وأحيلوا الى السجون دون محاكمة، وهو ما زاد في غليان الثوار، إلا أن تفاقم الأوضاع في سري لانكا أدى الى تدخل الهند تحت ضغوط تاميلية، وبدعوى حماية الطرفين، وهو ما أدى الى اتفاقية بين رئيس جمهورية سري لانكا ورجيف غاندي[2]، رأى فيها السنهاليون أنها تنازلت لمطالب التاميل، مما أدى الى هجوم على مقر البرلمان وقنبلته في محاولة لقتل الرئيس جيايو أدين بتهمة التواطؤ [3] مع الهند وتقديم ضمانات للاعتراف باللغة التاميلية كلغة وطنية، ومنح حقوق الانتخاب لعمال الزراعة الهنود، والذين كانوا محرومين من هذا الحق، بل ذهبت الضمانات الى حد الاعتراف بمنحهم حكما ذاتيا.

لكن ثوار التاميل مصممون على الاستقلال الكلي وإقامة دولة منفصلة عن سري لانكا، وهذا ما دفع بالمتطرفين منهم الى عدم الاعتراف بهذه الاتفاقية وهو ما جر الهند الى وجوب تدخل عسكري في المنطقة، وقد تم هذا بالفعل وبقوة «سلام» قوامها 20000 ألف جندي هندي [4]، وذلك في صائفة 1987، وبهذا تورطت الهند في قضية أساءت الى سمعتها وريادتها في عدم الانحياز من جهة، كما كشفت عن مجابهة

(1) نفس المصدر السابق، ص:87،

(2) أمضيت الاتفاقية بتاريخ: 07/29/ 1987 (جريدة لوموند العدد: 13235 ليوم: 1987/08/18).

(3) مجلة المستقبل 29 أوت 1987، العدد: 549.

(4) جريدة المجاهد (الجزائرية) الصادرة بتاريخ: 1987/05/04.

مباشرة بين القوات الهندية والثوار، بل حتى المدنيين من التاميل، وكلفها ذلك 159 قتيلا في مقابل 650 من التاميل[1]، وهو ما أثار غضب تاميل نادو بالهند، مما أدى الى تصادم 3400 متظاهر تاميلي بقوات الشرطة على أرض الهند ذاتها[2]، وهذا معناه تضامن الأقلية التاميلية في الهند مع الأقلية التاميلية في سري لانكا، وهو ما يؤكد رأينا الثابت بتغلب «الخريطة الثقافية» على الخريطة السياسية، في أية دولة في العالم!

إن الوضع ما يزال متأزما في سري لانكا، ولن يجد حلا إلا بضحايا جدد، وبتورطات جديدة سببها هذه الأقلية التي تستغل كل الدوافع والمنبهات من أجل التعبير عن ذاتها، حتى ولو كان الثمن في ذلك باهضا، إذ لا ننسى انه بلغ منذ أحداث جويلية 1983 الى سنة 1987، 6000 ضحية[3]. وهذا كله نتيجة التعصب المركب كما هو ثابت، ونفس الأوضاع ستظل كذلك الى أن تفتت هذه الدولة إلى قوميات (طبيعية!) أو الفناء الكلي للطرف الضعيف!!

هذا ما يتعلق بمظاهر التعصب والصراع القائم بين طائفتي التاميل والسنهاليين. أما فيما يتعلق بالمسلمين الذين يمثلون الآن حوالي المليون ونصف المليون نسمة، والمعروفين في سري لانكا باسم «المور» أو الموريين (نسبة الى أصولهم العربية)، وهم يتحدثون لغة التاميل على رغم الاختلافات التي تميزهم عن التاميل دينيا وثقافيا وعرقيا وتاريخيا...

وحول هذا الموضوع ورد في دراسة أعدها الشيخ انعام اللّه محيي الدين ضمن منشورات الحزب الإسلامي السري لانكي في 1989/11/28 ما نصه: «لقد صار ما يجري في جزيرة سري لانكا من اضطرابات طائفية وأعمال عنف وأحداث دامية وتدخل من الحكومة الهندية في شؤوننا الداخلية موضوع اهتمام الأوساط الدولية ووسائل الإعلام العالمية. وهي

---

(1) مجلة العالم 1987/10/27.

(2) مجلة العالم الصادرة بتاريخ: 87/11/02، و87/12/28.

(3) مجلة (ليكسبرس) العدد: 1882 الصادرة بتاريخ: 1987/08/07.

تقدم القضية على أنها قضية صراع بين الحكومة العنصرية السنهالية والأقلية التاميلية وتتجاهل عمدا قضية طرف ثالث يرزح تحت وطأة كلا الطرفين المذكورين، وهي قضية أكثر من مليون مسلم يشكلون 8٪ من مجموع سكان الجزيرة».

وتأكيدا لهذا التقرير، نقتطف من مقال صحفي عن مدى الاجحاف والتعصب الذي يعانيه المسلمون في هذا البلد ما يلي: «وطبقا لإحصائيات 1980 تتمتع الأغلبية السنهالية بنحو 85٪ من مجموع الوظائف، ولم يسمح للمسلمين إلا بنسبة 3٪ فقط، بينما هم يستحقون 8٪ وكذلك التاميليون يحصلون على 10٪ من حقهم المحدد بـ 18٪. وهذا يدل على أن السنهاليين الذين يشكلون 74٪ من مجموع السكان ينتزعون 11٪ فوق نصيبهم المستحق من حقوق الأقليات ولم يحصل المسلمون ـ على الأقل ـ على النصف من نصيبهم والتاميليون كذلك ، وهذه المعاملة السيئة ،وجدت بطالة متفشية بين الأقليات مما جعلت الشباب المسلم يتطلعون إلى آفاق جديدة...

وتمكن السنهاليون والتاميليون من الاستيلاء على مرافق وخيرات البلاد في الشمال والشرق وكانت تضم مناطق أكثرية مسلمة.

والجدير بالذكر أن الدستور ينص على الاهتمام بالنسب المائوية الطائفية عند إقرار خطط التنمية والحدود الإدارية للبلاد، ولكي يصبح الغبن الذي لحق بالمسلمين واضحا يكفي القول أن الحكومات تجاهلت ثلاث قرى هي «كاتان كودي» و«ايراوور» و«الايشيناي» ويبلغ عدد المسلمين فيها على التوالي: 28000 ـــ 27000 ـــ 27000 نسمة وأوجدت دوائر إدارية للسنهاليين تبلغ أعدادهم فيها على التوالي: 2500 ـــ 5000 ـــ 12000 ـ 20000 نسمة وهي تقع في الشرق، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مؤامرة الأغلبية العنصرية للسيطرة على مقدرات المسلمين، وانتهاك ممتلكاتهم وحقوقهم الأساسية ثم إجهاض تطلعاتهم المشروعة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا وحضاريا ودينيا..

هذا وكان عدد السنهاليين في الشرق يشكل 4٪ فقط من مجموع سكانها، طبقا لإحصائيات عام 1921 فأصبح هؤلاء الآن يمثلون نسبة 24٪ حسب احصائيات أخيرة»[1].

وآخر ما تناقلته وكالات الأنباء العالمية حول مظاهر التعصب في هذا البلد ما نصه : «قالت مصادر عسكرية وزعماء مسلمون في كولومبيا أمس الإثنين أنهم يعتقدون أن ثوار التاميل وراء مصرع 18من المسلمين طعنا حتى الموت بعد اختطافهم يوم الأحد في ثاني حادث من نوعه موجه ضد المسلمين في سري لانكا.

وقال وفاء فاروق، أمين صندوق المؤتمر الإسلامي في سري لانكا «لقد وجدت جثث 18 منهم يوم الإثنين وقد طعنوا حتى الموت، ولاشك أن الآخرين سيقتلون لأن النمور لا يطلقون سراح من يختطفونهم» ويضيف نفس الخبر قوله:

«ومساء الجمعة الماضي قام ثوار التاميل باقتحام مسجدين في (كاثانكودي) في مقاطعة (باتيكالو) المجاورة وفتح نيران مدافعهم الرشاشة على المصلين وقد لقي 140 مسلما على الأقل مصرعهم في هذه المذبحة»[2].

خامسا: التعصب العرقي والديني واللغوي، ومثاله الوضع في السودان:

أ) التعصب العرقي:

إن السودان من أكثر البلدان اختزالا لشتى المتناقضات العرقية واللغوية والدينية، إذ يسود التنازع ثقافيا بين فكرة العروبة وفكرة الإفريقية إضافة الى الانقسام الديني بين الاسلام والديانات الأخرى.

(1) جريدة الدعوة الإسلامية عدد 411 الصادرة بتاريخ: 1990/08/07م.

(2) جريدة الشعب (الجزائرية) الصادرة بتاريخ: 1990/08/07م.

والسودان يتكون أصلا من أكثر من 530 قبيلة تتوزع أصولها بين ما يعتقد بأنه العرق العربي والعرق الزنجي وتنتشر على خريطة السودان الواسعة كلها، ونستطيع أن نوزع تلك القبائل حسب توزعها الجغرافي، إذ نجد في منطقة البحر الأحمر قبائل الهندور والبشارية وبني عامر التي تتكلم بلغة قديمة مشتقة من السامية، كما نجد قبائل النوبة في شمال وادي النيل، وهي تتكلم العربية مختلطة ببقايا اللغة النوبية. أما في وسط البلاد فهناك مجموعة من القبائل العربية كالكباش والكواهلة والجعليين والرشايدة (وهي مختلطة مع قبائل الصعيد المصري)، أما في الجنوب فجل سكانه من القبائل الزنجية كالنويروالشلك والكاوكا، إضافة الى الدينكا أكبر القبائل الزنجية في البلاد [1] والتي ينتمي اليها المتمرد الحالي العقيد «جون غارنغ».

ونظراً للدور الكبير الذي لعبته قبيلة الدينكا منذ ظهور الحركات الانفصالية في الجنوب السوداني (حيث كانت هي المصدر أو الممول الرئيسي للميليشيات المسلحة في الجنوب) فهي تعتبر كمثال للأقلية العرقية التي لم تنصهر في المسار الثقافي الحضاري العربي الإسلامي للسودان.

ينتمي سكان قبيلة الدينكا الآن الى مديرية بحر الغزال وهي إحدى مديريات الجنوب الثلاث، ويبلغ سكانها حوالي مليون نسمة، وهي قبيلة تهتم أساسا برعاية الأبقار وتعيش في منطقة السدود التي تغمرها المياه في فصل الأمطار (ماي ـ سبتمبر) وتنحصر المياه على ضفافها في فصل الجفاف.

ويقوم الدينكا بحرق الأعشاب الجافة حتى ينمو محلها عشب أخضر يستفيدون منه لرعي الأبقار. ويعتمدون في غذائهم على لحوم الحيوانات البرية وعلى الأسماك المتوفرة في مستنقعات السدود . وعندما تحدث المجاعات بسبب تأخر الأمطار فإنهم يضطرون الى بيع أبقارهم لتجار الشمال ليتمكنوا من شراء الحبوب، وتعد ملكية الأبقار من

(1) لواء د. محمود خليل: الأمن القومي السوداني ومشكلة الجنوب، ص: 235.

أهم مصادر المكانة الاجتماعية والاقتصادية، وهي مقياس حياتهم ومعاملاتهم.

لقد وجد الاستعمار البريطاني في قبيلة الدينكا تربة خصبة لنشر الثقافة الغربية، أضف الى هذا نشاط الإرساليات التبشيرية المسيحية. واستطاع الاستعمار أن ينمي في نفوسهم فتيل الانفصال والتناحر العرقي واللغوي والديني، وبالتالي ساعدهم على تكوين تصورهم الخاص بمفهوم الانتماء والوطنية.

ونظرا للتداخل العرقي والثقافي الفريد الذي يتميز به السودان فقد ظهرما يسمى بمفهوم «أفرو ـ عربية» الذي يؤكد على البعد الإفريقي للثقافة العربية الإسلامية للسودان، وهو ما رمزوا له «بالغابة والصحراء» أي أنه دعوة صريحة للتصالح بين الثقافتين العربية والإفريقية، ومن الناحية البيولوجية يقوم المفهوم على ما روجه المؤرخون والأثنوغرافيون خلال هذا القرن من أن سكان شمال السودان هجين عربي إفريقي، واعتبار عرب الشمال عربا أقحاحا، إن «الأفرو ـ عربية» يمكن اعتبارها صورة أخرى من صور الخطاب الثقافي المطروح في الساحة الثقافية السودانية.

ومن الثمار المرة لهذا التعصب العرقي المدمر أن في سنة 1983 قد أعلن العقيد «جون غارنغ»[1]، (الضابط السامي السابق في صفوف الجيش السوداني) عن بداية فصل جديد من فصول حرب الأقليات في الجنوب أكثر دموية، وأشد تعقيدا وأبعد خطرا، وذلك بإنشائه لحركة تمرد جديدة يمثل شقها العسكري «الجيش الشعبي لتحريرالسودان».

بينما تمثل «الحركة الشعبية لتحرير السودان» شقها السياسي التنظيمي وبذلك تعلن عن نفسها في شكل متمايز وواضح ينذر بالكارثة!!

ان (جون غارنغ) زعيم هذه الحركة قد جمع (تحت البدلة المرقطة التي يرتديها) متناقضات ليس من السهل أبدا هضمها. فهو من جهة

---

(1) المحجوب عبد السلام، التمرد الجديد وانقلاب الأدوار بين غارنغ والنميري، جريدة العالم 3 أكتوبر 1987 العدد: 194.

الإبن الشرعي لنظام جعفر النميري (السابق) بالتزاماته العسكرية الغربية التي دفعت السودان الى شفا الهاوية، وهو الذي ثارعليه بعد أن أدرك أن النميري استنزف، ولم يعد لديه ما يقدمه له ولغيره من الجنوبيين الذين تحالفوا معه من جهة أخرى. وهو الذي رفع شعارات يسارية وشيوعية، ويتلقى السلاح من الاتحاد السوفياتي وكوبا، ويقيم معسكرات التدريب لقواته في إثيوبيا (منغستو هيلا مريام) الذي لم ينس أبدا أن السودان النميري قدم الدعم لثوار إرتيريا في وقت من الأوقات، في حين يتلقى المال والسلاح أيضا من المخابرات الأمريكية والغربية عموما ومن مجلس الكنائس العالمي، وغيرهما من الأطراف الدولية التي قد تختلف ايديولوجيًا خارج السودان، ولكنها تتفق كلها على تدمير هذا البلد المسلم من الداخل. بمعنى أن هذا الظابط شيوعي مع الإتحاد السوفياتي وكوبا واثيوبيا، وليبرالي مع أمريكا، ومسيحي مع مجلس الكنائس العالمي، إنه الضابط الذي درس في أمريكا وتدرب في إسرائيل «الاينانيا» [1].

إن تعصب جون غارنغ القبلي (نسبة الى قبيلة الدينكا) جعله يحلم بأن يصبح المحرر الأسطوري لأقليته من حكم العرب المسلمين، ولكن فاته أن أطرافا دولية كثيرة اخترقت منظمته، بل أنشأتها أصلا لتجعل منه دمية تتحرك شرقا وغربا دون أن تمتلك حرية قرارها، ودون أن تدرك الخطر الكبير الذي تمثله على السودان ككل!

والدليل على قولنا هذا هو مرونة النظام الديمقراطي الجديد في السودان الذي تعامل بكل عقلانية ووطنية والتزام تجاه مشكلة الجنوب إلا أن رد (غارنغ) كان وحشيا ومنحطا، إذ تمثل في إسقاط طائرتين مدنيتين تغصّان بالركاب [2]. الى جانب مهاجمة المراكز السكانية والاقتصادية حيث توقفت كل أعمال التنقيب عن النفط في (بانتيو) وفي مشروع حفرقناة (جونقلي) الشيئ الذي لم تقم به حركات التمرد السابقة، مما جعل

(1) (كريس كوتشيفا) «المسيرة الكبرى للعقيد في السودان» مجلة ليكسبرس الصادرة بتاريخ: 1985/06/05.

(2) ريستيان هوش، السودان: «ميليشيات الرعب» مجلة (ليكسبرس) بتاريخ:1988/03/25.

سكان الجنوب ينزحون بأعداد هائلة الى الشمال ليضيفوا الى مأساة السودان مآس أخرى، حتى أننا نجد أن بعض المتمردين السابقين حملوا السلاح في وجه غارنغ، لأنهم يرون فيه خطر ا يهدد الجنوب وسكانه قبل أن يهدد الشمال!

ب) التعصب الديني:

من تحصيل الحاصل أن نؤكد أن الإسلام هو الدين السائد في السودان، إذ يدين به ثلاثة أرباع السكان، وقد تميز تاريخ الإسلام في السودان بظهور العديد من الطرق الصوفية التي تجمع حولها العديد من الأتباع والمريدين، والتي أثرت كثيرا في مسار الحياة الاجتماعية والسياسية وأهم هذه الطرق: الهدفة (الأنصار) والختمية والقادرية والسمانية وغيرها...

و إلى جانب المسلمين يوجد في الجنوب عدد لا يستهان به من الوثنيين المنحدرين من أصل إفريقي تصل الى خمس السكان، هذا بالإضافة الى أقلية مسيحية ـ عكس ما يقال عن وجود أغلبية مسيحية في الجنوب ـ لا تتجاوز 5٪ تنقسم بين البروتستانت، والكاثوليك والأرثوذوكس، وخاصة الأقباط الذين يرتبطون ارتباطا روحيا بأقباط مصر، وقدوجد الأقباط في السودان منذ دخلت المسيحية إليه ـ بل هم النواة الأولى للمسيحية ـ إذ كان انتقال المسيحية الى السودان على يد الأقباط، وفي وقت مبكر من ظهور المسيحية في مصر، ونظراً للتقارب الجغرافي والثقافي بين السودان ومصر، فقد ساعدت الإرساليات القبطية المصرية على زيادة عدد السودانيين الأقباط «والأقباط أقلية دينية يؤمنون بالمسيحية بعقيدتها الأرثوذوكسية التي تقودها الكرازة المرقسية ومركزها مدينة الأسكندرية التي بدأ منها القديس مرقس أحد رسل السيد المسيح في التبشير برسالة المسيحية في إفريقيا »[1]، وقد تفاعل الأقباط

---

(1) البحث عن الأقباط في السودان، مقدم في الندوة المنعقدة حول الأقليات في الوطن العربي، الخرطوم، مارس 1988.

مع المجتمع السوداني وانخرطوا في حركته التنموية في مختلف المجالات، دافعهم الى ذلك إيمانهم العميق بأن السودان صار وطنا لهم كبقية السودانيين، وشعارهم الذي يعملون من أجل تطبيقه هو «الوحدة من خلال التنوع».

أما الكنيسة الغربية فقد دخلت الى السودان مع الاستعمار البريطاني خاصة، إذ كان الهدف الذي ترمي إليه الإرساليات التبشيرية على اختلافها هو وضع حاجز ديني ثقافي حضاري، يفصل جنوب السودان (المسيحي والوثني في الغالب) عن شماله المسلم، والدليل على ذلك أنها زرعت في نفوس بعض الجنوبيين بذرة الولاء للغرب بكنائسه ولغته على حساب انتمائهم الى وطنهم وبيئتهم الأصلية، وقد تكفل «مجلس الكنائس العالمي» بإكمال المهمة بعد خروج الاستعمار البريطاني من السودان، وهو الآن من أهم الداعمين (لجون غارنغ) في حربه الانفصالية ضد الحكومة الشرعية السودانية. أما الوثنيون فكما أسلفنا يمثلون غالبية سكان الجنوب، وهم ينحدرون في غالبيتهم من قبائل إفريقية زنجية لها امتدادات في دول كثيرة لها حدود مشتركة مع السودان، أما طقوسهم فلا يعرف عنها الشيء الكثير!

جـ) التعصب اللغوي:

بغض النظر عن اللغة العربية التي تمثل العلامة البارزة الرئيسية في الهوية العربية للسودان، نجد أن السودان يضم داخل حدوده المترامية الأطراف لغات كثيرة جدا وصلت الى أكثر من مائة وخمسين لغة تقسم على النحو التالي:

1 ـ لغات سودانية في الجنوب والشرق والغرب وأعلى الإقليم الشمالي.

2 ـ لغات ذات أصول في دول غرب إفريقيا منها: الهوسا، الفولاني، البرق، البرنو، وغيرها.

3 ـ لغات إثيوبية: وهي اللغات التي تتحدثها المجموعات النازحة

أو اللاجئة التي استقرت في المدن والقرى السودانية واندمجت في المجموعات السودانية.

4 ـ لغات من دول أخرى كالهند (اللغة القوجراتية) [1].

5 ـ لغات شرق إفريقيا ووسطها (السواحلية والنقالا).

6 ـ هذا الى جانب اللغة الأنجليزية السائدة في الجنوب.

إلا أنه وعلى الرغم من هذه اللغات المتعددة تبقى السيطرة للغة العربية، ذلك أن السمة الجوهرية للأوضاع اللغوية في السودان هي الانتقال التدريجي المتواصل من السيطرة التاريخية للغات السودانية (الأقلية حاليا) في اتجاه سيطرة اللغة العربية، أي أن العربية ظلت تنتشر تدريجيا كلغة تواصل بين المجموعات العرقية ـ اللغوية المختلفة، وكذلك داخل المجموعة العرقية ـ اللغوية الواحدة، وقد أكدت على هذا الوضع الدراسات المختلفة في الجنوب وفي اقليم (دارفور) غرب السودان في منطقة جبال النوب،وفي الإقليم الشرقي.

هذا في مستوى التنظير التاريخي، أما في مستوى الممارسة السياسية فإننا نجد أن دستور السودان الانتقالي ومن قبله دستور 1973 لا يشيران مطلقا الى ذكر اللغات الأقلية في السودان، بل يشيران فحسب الى أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للدولة، ومن ذلك نجد أن اتفاقية أديس أبابا قد خصت اللغات الأقلية بنص جاء في الفصل الثالث (المادة رقم 1).

«تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للسودان. وتكون الأنجليزية اللغة الرئيسية للأقليم الجنوبي، دون أن يمنع ذلك من استخدام أية لغة أو لغات قد تخدم حاجة ضرورية للتصريف الفعال والسريع للمهام التنفيذية والإدارية للإقليم» [2].

---

(1) د. عشاري أحمد محمود: «أوضاع اللغات الأقلية مستقبلها في السودان» بحث مقدم لندوة الأقليات في الوطن العربي الذي نظمته الجمعية العربية للعلوم السياسية، وقسم العلوم السياسية بجامعة الخرطوم، المنعقدة من 02/28 الى 1988/03/01.

(2) نفس المرجع السابق ذكره.

بيد أنه ينبغي أن نذكر هنا أن اللغة الأنجليزية ونتيجة لبعض الظروف السياسية قد تصبح اللغة المسيطرة في جنوب السودان، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أن اللغة دخلت لعبة الصراعات السياسية في السودان، إذ أن اللغة برزت كرمز للصراع السياسي في جنوب السودان، مما جعلها تحقق بعض المكاسب على حساب اللغات الأخرى وخاصة العربية.

السودان يمثل أوضح نموذج لأخطار التعصب المركب:

وكخلاصة لما توصلنا اليه من العروض المختلفة لحالات التعصب المركب والمضاعف الحدة والتأثير في عملية التدمير لوحدة الشعب الذي يسود فيه... يمكن أن نجد في السودان أقوى النماذج التي تتوفر فيها كل العناصر السابقة..

أن السودان (هذا البلد العربي الكبير) المتاخم لدول إفريقية زنجية متعددة يحوي أنواعا شتى من التناقضات، وضروبا متنوعة من الاختلافات تهدد دعائم وجوده وانسجامه الداخلي، وتضع هويته العربية الإسلامية في خطر. فهو يضم ـ كما أسلفنا ـ أقليات متعصبة كثيرة تمثل جميع أنواع المتناقضات السالفة، فهي تدعي التميز دينيا وعرقيا ولغويا عن باقي الجسد السوداني المتكامل، ادعاءات بلغت من الحدة والتحدي في الوقت نفسه مرحلة خطيرة، واجتازت مرحلة التسامح والعقلانية، إذ حملت السلاح في وجه التمثيل الرسمي والشرعي للدولة السودانية، معتمدة في ذلك على أطراف خارجية متباينة، إنها النار التي تأكل الأخضر واليابس في الجنوب، وهذا ما اصطلح على تسميته بمشكلة الجنوب السوداني «التي ما تزال نار التعصب فيه تحصد آلاف الأبرياء من ابناء الوطن الواحد».

إن السودان من أكبر الدول العربية مساحة وأكثرها مواجهة لعناصر إفريقية متباينة، مما ترتب عنه مواجهات حضارية مصيرية، وثقافات متباينة من حيث المصدر والاهتمامات.

إن أي متقص لمشكلة الجنوب السوداني يمكنه أن يلاحظ بسهولة بصمات الاستعمار البريطاني الذي كان له دورهام في تأجيج التعصب والنعرات الطائفية والعرقية بين السكان السودانيين الشماليين وغالبيتهم من المسلمين، وبين السكان الجنوبيين وغالبيتهم من الوثنيين والمسيحيين.

لقد ساعد الحقد الصليبي الدفين المغروس في صدر الاستعمار البريطاني على ترسيخ هذه المفاهيم في عقول الجنوبيين، وهي مفاهيم ستؤدي - عاجلا أم آجلا - الى تفجير النسق الذي تبنى عليه هوية السودان نفسه!

وعموما فقد استندت سياسة بريطانيا في السودان الى النقاط الرئيسية التالية:

1 ـ منع أي اتصال بين الشمال والجنوب، فيما عرف بقانون المناطق المقفلة، والذي تحقق عبر نظام تأشيرات الدخول للجنوب المفروضة على أبناء الشمال، والعكس بالعكس!.

2 ـ تشجيع نشاط الإرساليات المسيحية التبشيرية ومحاصرة الدعوة إلى الإسلام (هذا النشاط يقوم به حاليا مجلس الكنائس العالمي).

3 ـ إنشاء وحدة عسكرية عرفت فيما بعد بالفرقة الاستوائية، لا تضم إلا أبناء الجنوب ومقرها الجنوب.

4 ـ اعتبار اللغة الأنجليزية هي اللغة الرسمية في المديريات الجنوبية.

5 ـ اعتبار يوم الأحد يوم العطلة الرسمية في المديريات الجنوبية.

6 ـ إعتماد قدر من الحكم الذاتي لحكام المديريات الجنوبية الثلاث [1] مديرية بحر الغزال وعاصمتها واو، والمديرية الاستوائية وعاصمتها جوبا، ومديرية أعالي النيل وعاصمتها مالكال.

---

(1) المحجوب عبد السلام : ربع قرن من العزلة من مقال في مجلة العالم الصادرة في لندن بعنوان: فصول في حريق الجنوب السوداني، السبت 5 أيول سبتمبر1987م العدد 186، ص:62.

ذلك ما يمكن أن نختم به هذا الفصل وهو يعبر عن الأخطار المتفاوتة التي يمثلها التعصب المتداخل العناصروالمستغل من الداخل والخارج، كما هوالحال في هذا النموذج، ويمكن أن تقاس عليه الحالات المشابهة أو المتقاربة معه في كل أنحاء العالم في الماضي والحاضر والمستقبل على حد سواء، بمعنى أن التعصب إذا ساد في بلد بعينه بسبب عنصرمن العناصر الهامة الثلاثة (الدين ـ العرق ـ اللغة) فتكون نتيجته الحتمية هي الدمار الكامل للمجتمع الذي يكون ساحة له، ولا علاج للتعصب الأعمى (بسيطا أو مركبا) سوى التسامح في حدود المعقول والمقبول والذي لا يمسّ جوهر الكيان، وذلك ما سنتناوله في هذا الفصل الأخير.

الفصل السادس

ضرورة التسامح لعلاج التعصب وتفادي الصراع الحتمي.

لقد تبين لنا من خلال ما عرضناه من نماذج وأمثلة لأهم أنواع التعصب والصراع (العرقي والديني واللغوي) أن لهذا الداء ـ عند استفحاله ـ أخطاراً وخيمة على الأفراد والجماعات والأمم، سواء كان في شكله الأحادي الجانب! مثل أمريكا وجنوب إفريقيا وكندا وبلغاريا وإثيوبيا والاتحاد السوفياتي والبوسنة ... أو في شكله المركب مثل قبرص وموريتانيا أو السودان وسري لانكا... حيث بلغ التعصب والصراع الدموي في هذه الأقطار درجة تنذر بزوال هذه الدول والأمم، وتفتيتها إلى دويلات وأُمَيْمات بعدد أعراقها وأديانها ولغاتها، ولا يمكن التخفيف من حدة هذه الأخطار إلا بالتسامح في حدود المعقول والمقبول، ونورد فيما يلي مجموعة من النماذج للحالات التي يسود فيها التسامح بين الأفراد والجماعات اللامتجانسة عرقيا، أو دينيا، أو لغويا.

أولاً ـ التسامح العرقي:

ومن أبرز الحالات التي يسود فيها التسامح العرقي فيما نعلم:

1 ـ **كوبا:** من المعلوم أن هذا البلد الأمريكي اللاتيني مكون من خليط من الأعراق اللامتجانسة الأصول والألوان، حيث نميز فيها بكل وضوح بين ثلاثة ألوان متباينة، منها الزنجي الإفريقي، والأبيض

الأوروبي، والأحمر الهندي.. ولكن على الصعيد الاجتماعي لم يسجل التاريخ في علمنا او على المستوى الرسمي على الأقل أية حادثة لظاهرة التمييز العنصري بين هذه الفسيفساء من الألوان البشرية، ودون الدخول في التفاصيل التشريعية والنظامية والعقائدية السائدة في هذا البلد والتي تناهض التمييز العنصري وتدعو الى تحقيق المساواة بين أبناء آدم على أساس الوحدة الطبقية (الاقتصادية) بدل الوحدة العرقية أو اللونية أو الدينية.. فإننا نلاحظ أن انتفاء التعصب العرقي في هذا البلد أدى الى نوع من الاستقرار الاجتماعي الذي لا تعرفه بلاد أخرى مماثلة في التعدد العرقي واللوني، وماقيل عن كوبا يمكن أن ينسحب على بلد آخر في القارة الأمريكية ذاتها وهو البرازيل، وذلك رغم اختلاف النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتبع في كلا البلدين، مما يدل على أن التعصب العنصري مثلما هو موجود في بلدان مختلفة الأنظمة (السياسية والاقتصادية) يمكن للتسامح أيضا أن يسود في بلدان أخرى ذات أنظمة متباينة من حيث المنهج المتبع لتحقيق التقدم والازدهار في الحياة المادية لأبناء الأمة الواحدة، كما يدل أيضا على أن اختلافها في بعض جوانب فلسفة الحياة (بقيمها الاجتماعية والاقتصادية) لم يمنعها من الاتفاق في النظرة الى جوهر الإنسان، ككائن ذي قيمة موحدة بذاتها، وفي ذاتها، لا دخل للون البشرة وأصل العرق ـ المفترض ـ للأفراد في تغيير هذه القيمة.

2 ـ **الجزيرة العربية:** وإذا كان انتفاء التعصب في كل من كوبا والبرازيل عائدا لقيم إنسانية وضعية، فإن انتفاء التعصب العرقي في شبه الجزيرة العربية عموما، يعود الى قيم روحية سماوية تفضل لون القلب على لون البشرة، فتقرب بلالا وسلمانا وصهيبا، وتبعد أبا لهب وأباجهل والوليد بن المغيرة، وتضم مجهول النسب إذا كان أخاً في العقيدة والتمسك بوحي السماء، وتنبذ شريف النسب إذا ظل متمسكا بعبادة الأوثان. فالعقيدة الدينية ها هنا قد سوت بين أفراد البشر في القيمة، حيث لم يصبح بعدها فرق في القيمة بين عربي واعجمي أو أبيض وأسود إلا بالتقوى!

وماقيل عن بلاد الحجاز (مهبط الوحي ضد التعصب العرقي واللوني العنصري) ينسحب على جل البلاد العربية المسلمة الأخرى مثل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب (باستثناء موريتانيا التي تسود فيها ظاهرة التعصب العرقي نتيجة التعصب اللغوي المغذي له والمدعم من أطراف خارجية كما سبق التفصيل). رغم أن سكان البلد يدينون بالإسلام مائة بالمائة، وهو ما يؤكد ما أشرنا اليه في مكان سابق، بأن التعصب اللغوي شديد الارتباط بالتعصب العرقي، وأن العرق ألصق باللغة منه بالدين.. وما عدا هذا الوضع الخاص الذي يميز موريتانيا والسودان (للأسباب المذكورة) فإن انتفاء التعصب العرقي في البلاد العربية الأخرى رغم اختلاف ألوان بشرة أفرادها، سواء في الجزائر أو المغرب أو تونس أو ليبيا أو مصر... تعود أسبابه الى انتفاء وجود لغة مكتوبة منافسة للغة العربية التي هي لغة العبادة والتواصل بين مختلف فئات الشعب قبل الغزو الصليبي للبلاد، مما جعل الاختلاف في ألوان البشرة غير ذي وزن أو تأثير أمام وحدة ألوان اللسان، ووحدة ألوان الجنان، والدليل على ذلك أن انتفاء التعصب العرقي بين أبناء الجنوب الجزائري وأبناء الشمال، رغم اختلاف لون البشرة، لا يعادله أي تسامح في الشمال بين أصحاب البشرة الواحدة نظرا لوجود ظاهرة التعصب اللغوي الناتج عن الاستعمار الفرنسي الذي يغذي بعض الفعاليات المستبدة بالحكم، والفارضة لسيادة اللغة الفرنسية على الفئات العريضة من أبناء الشعب في الإدارة وأجهزة الإعلام والتعليم الجامعي، وهو ما أحدث في الوقت الراهن بوادر للتعصب اللغوي الذي - إن لم يقض عليه بالتعريب الكامل لاسترجاع السيادة اللغوية لوحدة البلاد والشعب قضاء فعالا وتاما - سيتحول في المستقبل القريب الى أهم رافد للتعصب العرقي، ليس بين أهل الشمال والجنوب فحسب، وإنما بين أهل الشمال أنفسهم من أبناء اللون الواحد المتجانس، وذلك بسبب الانتماء المختلف الى اللغة المكتوبة، وبالتالي الى حضارة وثقافة وقومية اللغة المكتوبة، أي إلى حضارة الشرق

أو حضارة الغرب، على غرار السودان والسينغال أو موريتانيا في الوقت الحاضر!!...

وما نستخلصه من هذا المثال هو أن أفضل دواء للتعصب العرقي، وبالتالي أنجع وسيلة للتسامح في هذا المجال هو تطبيق تعاليم الدين الاسلامي على وجه الخصوص، والعمل في نفس الوقت على تفادي أي نوع من اللاتجانس في مجال الاستعمال اللغوي المكتوب.

فبقدر ما يعتبر الإسلام علاجا للتعصب العرقي يعتبر الإختلاف اللغوي مثيرا له ومضاعفا لخطورته باستمرار، كما تثبت كل الأدلة والشواهد المذكورة في سياق الكتاب وغير المذكورة فيه، والتي سيؤكدها المستقبل في الجزائر على وجه الخصوص، ان لم تتمسك - عمليا - بتقديس وحدة الاستعمال اللغوي المكتوب، ونقصد هنا اللغة العربية، مثل فرنسا (في فرنسا) بالنسبة للغة الفرنسية.

ومثلما لم نعدم وجود الأمثلة العديدة للتعصب الديني لانعدم ـ أيضا ـ وجود نماذج في التاريخ الماضي والحاضر للتسامح بين الأديان المختلفة، ولذلك نسوق الأمثلة التالية:

أولا: تسامح الإسلام مع المسيحية واليهودية:

إن أقوى البراهين على مبدأ التسامح في الإسلام إزاء الديانات السماوية الأخرى يكمن في النص القرآني ذاته، مثل : **«وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** {النحل الآية: 25} ، **«لَكُمْ دِينُكُم وَلِي دِين»** {الكافرون الآية: 6}، **«إنما أَنْتَ مُذَكِّر لَسْتَ عَلَيهِمْ بِمُسَيطِر»** {الغاشية الآية: 21-22}، **«لاَ تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنْ اللَهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاء»** {القصص الآية: 56}، **«لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّين»** {البقرة الآية: 256}، و في الحديث الشريف، (مَنْ دَخَلَ بيت أبي سفيان فهوآمن). هذا من ناحية المبدأ ذاته، أما من ناحية التطبيق، فيمكن أن نسوق أمثلة كثيرة جدا على ذلك، ولعل من أهمها وأبرزها في اعتقادنا، ذلك السلوك التسامحي الرائع والرائد الذي سلكه

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه) في القدس الشريف بعد فتحها، والسيطرة الكاملة عليها، وفي ذلك يقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (الفاروق عمر..) ما نصه: «... ولم يكن من حظ أبي بكر أن يذهب الى القدس... وها هو عمر قد أوتي الحظ الكبير وفتحت له بيت المقدس أبوابها واستقبلته مرحبة مبتهجة.. فهو لا يدخلها قاهرا غازيا، ولكن يدخلها وقلبه عامر بأسمى مبادئ العدل والتسامح، ليقيم شريعة أساسها «لاإكراه في الدين» وأن الدعوة الى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

كان عمر بن الخطاب هو أول رجل من رجال محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، يصلي في القدس!.

... وجاء سفرنيوس في الصباح، وسار مع عمر خلال المدينة، يريه آثارها... وما أكثرها وما أقدمها من آثار، هذا قبر أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، هذه صخرة يعقوب، هذه أطلال هيكل سليمان، هذه آثار معبد داوود، هنا بشّر يوحنا المعمدان بمقدم المسيح، هنا عاش المسيح مبشرا بدين المحبة والسلام، هذه كنيسة القيامة التي يؤمن المسيحيون بأن جثمان المسيح دفن فيها، ثم رفعه اللّه الى السماء.

وبينما هما في كنيسة القيامة أدرك عمر موعد الصلاة.. فطلب إليه أسقف المسيحيين أن يصلي في الكنيسة، فهي معبد من معابد اللّه.. فآعتذر عمر!!

اعتذر عمر قائلا للأسقف أنني لو صليت في الكنيسة لاتخذها المسلمون سنة يتبعونها حتى يخرجوا النصارى من كنيستهم.. مخالفين بهذا عهد الأمان الذي أعطيته لكم! وخرج من الكنيسة، وصلى في مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل.. وفي هذا المكان أقام عمر مسجداً بسيط البناء مثل مسجد الرسول صلى اللّه عليه وسلم في المدينة المنورة يوم أقيم! [1].

---

(1) عن جريدة «أخبار اليوم» الصادرة بتاريخ: 07/01/1978م.

وكشأن المستشرقين دائما في الطعن في تسامح الإسلام فقد قال بعضهم فيما بعد «أن عمر بن الخطاب لم يصل في الكنيسة لما فيها من صور وتماثيل، وأنه اعتذر بما اعتذر به حتى لا يحرج شعور الشيخ الطيب أسقف المسيحيين».

هذا كلام لا وزن له ولا أساس.. ألم يكن رسول الله (ص) قبل هجرته الى المدينة يصلي في الكعبة وبها ما بها من الأصنام !؟

ألم يجيء رسول الله (ص) بعد سبع سنوات من الهجرة الى الكعبة ومعه ألفان من المسلمين وطافوا بالكعبة التي تحيط بها الأصنام و الأوثان من كل جانب.. ثم علا بلال فوق سقف الكعبة وأذن لصلاة الظهر، وصلى محمد (ص) وصلى ألفان وراءه صلاة الإسلام! فهل تحول الأصنام والأوثان.. بين قلب المسلم المؤمن الخاشع وبين الله الواحد الأحد؟

وعمر نفسه صلى في إحدى الكنائس في فلسطين.. صلى في كنيسة المهد في بيت لحم.. وكان الأسقف سفرنيوس ينتظره حتى يتم الصلاة.. وفي كنيسة المهد من الصور والتماثيل والصلبان مثل ما في كنيسة القيامة.. وخشي أن يتخذ المسلمون من صلاته فيها سنة يتبعونها، فيخرجوا منها أصحابها ويجعلونها مسجدا.. فكتب لسفرنيوس عهدا خاصا بكنيسة المهد، يقضي بألا يدخلها من المسلمين أكثر من شخص واحد في المرة الواحدة [1].

وتأكيدا لذلك يقول الأستاذ عبد الحميد الكاتب في مقال له بعنوان: «خليفة المسلمين وأسقف المسيحيين يتجولان في القدس» ما نصه: «ابتهج أسقف القدس، البطريرك سفرنيوس بالوثيقة التي جاء بها رجاله تحمل توقيع خليفة المسلمين عمر بن الخطاب.

كان الأسقف سعيدا، وكان المسيحيون في القدس وفي فلسطين أكثر سعادة بالوثيقة التي تحمل إليهم بشرى السلام الدائم، وأسمى مبادئ التسامح.. وكلما استمعوا الى الوعاظ في الكنائس يقرؤون هذه الوثيقة

---

(1) نفس المرجع السابق ذكره.

تبينوا أنها ليست مجرد وثيقة صلح تضع هدنة بين جيشين .. أو تقيم سلاما بين خصمين .. بل أنه «عهد أمان» أعطاه عمر نيابة عن المسلمين، في عصره وفيما يليه من العصور، ووضع به الدستور الذي تحكم مبادئه العلاقات بين المسلمين والمسيحيين أينما كانوا.

وقد بلغت شروط هذا العهد من العدل و من التسامح ما جعل بعض المسيحيين يتشككون فيما وراءه من نوايا.. فقالوا فلننتظر حتى يوضع عهد الأمان موضع الاختبار، لنرَ كيف يكون التطبيق والتنفيذ..؟ فهذا أهم من الوثيقة وما فيها من مبادئ ونصوص.

فلنمض إذن لنرى ماذا يفعل عمر الواقف مع رجال عند مشارف القدس..؟ منذ ذهب عمر الى القدس في السنة السابعة عشر بعد الهجرة، وعلى وجه التحديد في شهر فبراير في سنة 638، بدأت القدس وبدأت فلسطين مرحلة طويلة من الأمن ومن الاستقرار، فعاشت الأغلبية المسيحية والأقلية الإسلامية معا، يجمعهما الجوار الطيب وصلات المودة والتعاون.

و في هذا الجو الإنساني الذي ساد البلاد استطاع عدد قليل من اليهود المسنين أن يأتوا الى القدس، حيث عاشوا منعزلين في حيّهم، ويتكسبون من العمل في التجارة، قانعين بالذهاب يوم السبت للبكاء عند أطلال الهيكل القديم.

وعلى مدى قرنين من الزمان كانت القدس هي مدينة السلام.. وكانت فلسطين هي أرض السلام.

وصارت القدس مركز الاتصال السلمي بين العالم الإسلامي في آسيا، والعالم المسيحي في أوروبا.. فقد وافق هارون الرشيد على أن يسافر راهب من القدس إسمه زكريا، حاملا معه مفاتيح كنيسة القيامة ليسلمها للأمبراطور شارلمان، تهنئة له بتتويجه إمبراطورا على أوروبا.. وقد رأى عمر أن الروم ـ في ازدرائهم لليهود وللمسيحيين معا ـ قد جعلوا من الصخرة مكانا يرمون فيه الكناسة أو القُمامة ويكوّمونها.. فاذا بأمير المؤمنين، وخليفة المسلمين وقاهر كسرى وهرقل وفاتح فارس

والشام والعراق وفلسطين .. إذا به يشمر عن ساعديه، ويأمر أصحابه أن يفعلوا مثلما يفعل فيزيح بيديه ما على الصخرة من كناسة، ويلقي بها بعيدا، وما زال عمر وأصحابه بالصخرة حتى أزالوا كل ما عليها!

ومنذ ذلك اليوم أخذ المسلمون يرعون الصخرة الى أن جاء الخليفة عبد المالك بن مروان فأقام عليها القبة الرائعة»[1].

هذا وإذا رجعنا الي عصر النبوة نفسها فلم يحدثنا التاريخ ـ قط ـ أن محمدا (ص) عاقب أو ضايق مسيحيا أو يهوديا (بسبب ملته) أو أمر أتباعه بذلك على الرغم من أنه (صلّى اللّه عليه وسلم) علم المسلمين أن الإسلام يختلف اختلافا جذريا عن المسيحية واليهودية كما حدد عقيدة المسلم بقواعد دينية واضحة منها قوله تعالى : **«لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا»** {البقرة الآية: 256}، فالإسلام ـ إذن ـ لا يكتفي من المسلم أن يؤمن باللّه، وإنما يطلب منه كذلك أن يكفر بالطاغوت.. ومن ثمة فيظل من الواجب على علماء المسلمين توضيح أركان العقيدة الإسلامية دون أن يعتبر ذلك أمرا مقوضا لمبدأ التسامح في ذاته.

و عن تطبيقات مذهب التسامح الإسلامي فيما بعد عبر البلاد المفتوحة وفي مقدمتها أرض الكنانة «مصر» يقول الدكتور عبد الناصر العطار: «ولقد فتح المسلمون مصر على يد عمرو بن العاص، ولم يحدثنا التاريخ أنهم طلبوا من المسيحيين ترك عقيدتهم أو أنهم سعوا الى تقويض المسيحية، بل التزموا أوامر نبيهم (صلى اللّه عليه وسلم) الذي «أمرنا بترك أهل الذمة وما يدينون»[2].

إن الدين الصحيح والكامل هو أساس التسامح، فالمسيحي إذا تدين تدينا كاملا سعى الى المحبة، والمسلم هو الآخر ـ ومن باب أولى ـ

---

(1) عن مقال للأستاذ عبد الحميد الكاتب، منشور في جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ 1978/01/07.

(2) جريدة الأهرام القاهرية الصادرة بتاريخ: 1989/05/28م.

إذا تدين تدينا صحيحا وصادقا سارع الى الخيرات، والدين الكامل لا تنفصل فيه العقيدة عن الشريعة وعن الأخلاق «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (حديث نبوي شريف).

فالأخلاق النابعة من الدين تصقل صاحبها فتجعله ينظر الى نفسه على أنه عبد من عباد الله، وينظر الى ما حوله من الكائنات على أنها من مخلوقات الله المعبود، فلا يتعامل معها إلا بالحسنى في إطار سماحة الشرع، وبالتالي فلا يمسها بسوء أو بأذى مادي أو معنوي.

على أن المبادئ السماوية اذا لم تجد من يؤمن بها الإيمان الراسخ ويطبقها التطبيق الصادق والكامل، فإنها تبدأ في إفراز التعصب أو اللاتسامح بين أصحاب الملل، وعن بعض هذه الأسباب والظواهر التي تبذر التعصب في القلوب الضعيفة والنفوس الخفيفة التي لا تعرف حدود التفريق بين الدين واحترام الرأي الآخر والدين الآخر، يقول الدكتور عبد الناصر العطار ما نصه: «إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، ولا ينال من كرامة من نختلف معهم في الرأي، ولا حرج فيه. فالمسيحي أخ المسلم، والمسلم أخ المسيحي في الإنسانية، كلهم لآدم وكلهم له كرامته الإنسانية مصداقا لقوله تعالى : **«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم»** {الإسراء الآية: 70}. وكل إنسان ليس معصوما من الخطأ إلا الأنبياء، وشعار العقلاء أن رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ولقد أدهشني أن يطالب بعض إخواننا المسيحيين بنقل آيات القرآن والأحاديث النبوية من كتب القراءة الى كتب التربية الإسلامية. بزعم رفع الحرج الناتج عن إلزام أولادهم بدراستها أو حفظها، والحق أن كل علم يدرس على أصوله، ولا حرج في العلم ولا انتقاص فيه من كرامة المتعلم. وفي اللغة العربية يدرس شعر الأخطل وهوشاعر مسيحي، وأولادنا في كلية الآداب والحقوق وغيرها يدرسون التاريخ المسيحي والفلسفة المسيحية والأحوال الشخصية لغير المسلمين.. كما يدرسون التاريخ الإسلامي والفلسفة الإسلامية والشريعة الإسلامية.. ولا فرق في

ذلك بين طالب مسلم أو طالب مسيحي. كما يدرسون فكر ماركس الذي يحارب الأديان وفكر داروين الذي يتعارض مع الدين »[1].

وعن هذه السماحة التي يتميز بها الإسلام بصفة خاصة يقول الدكتور مصطفى الشكعة ما نصه: «إنني أعلق طرفي بهذا الحاضر القاسي فيقشعر بدني ثم أسرح بطرفي بعيدا الى الماضي الذي يرجع الى مئات السنين، فأجد دنيا واسعة تظلها سماحة الإسلام، يعيش في حماها المسلم وغير المسلم في حصن من الأمان، وحال من الرضا تحت حكم المسلمين، لا ظلم ولا تعصب ولا عسف ولا اغتصاب بل عدل وسماحة وأمان وسلام »[2].

ثانيا: التسامح الإسلامي مع الزرادشت في إيران:

إن الزرادشت هم عبدة النار والشمس، نظرا للمكانة الكبرى التي يولونها للنار والشمس، فأماكنهم المقدسة ومحافلهم الدينية وحتى بيوتهم لا تخلو مطلقا من النور والنار.

وحتى يومنا هذا لا تزال معابدهم تحتضن مواقد النار «المقدسة» التي لا تزال مستعرة منذ قرون طويلة.. وتعتبر النار والنور والشمس لدى الزرادشت من العناصر المقدسة والهامة في الحياة الاجتماعية والدينية، وعندما ظهرت فلسفة «قدسية» النار لدى هؤلاء القوم، انتشرت في تلك الفترة أفكار مختلفة من قبل العديد من السحرة والمشعوذين لترويج فكرة قدسية النار وعبادتها ، وعبادة الشمس التي تعتبر المصدر الأساسي للنار والنور، وانتشرت ونمت هذه الفكرة على أيدي الزرادشت فيما بعد في كل من إيران والهند وأفغانستان، وللزرادشت كتاب مقدس يسمى «أوشتا » وهو مدون باللغة الفارسية الى جانب اللغة الزرادشتية، وهويحتوي على أناشيد الزرادشت...

---

(1) نفس المرجع السابق ذكره.

(2) جريدة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ: 10/08/1989م.

ومظاهر التسامح بين المسلمين والزرادشت ليست بنت اليوم، بل تعود الى بداية الإشعاع الإسلامي في هذا البلد، حيث أنه ما أن نصب سلمان الفارسي (رضي الله عنه) حاكما على المدائن.. حتى انتشر الإسلام في جميع أنحاء إيران، وقليل من الزرادشتيين من تمسك بعقيدته، والذين تمسكوا أعطوا الجزية للمسلمين كسائر أهل الكتاب. وقد لقوا نصيبهم كذلك إبان الغزو المغولي والتتاري للدول الإسلامية وقد هرب الكثير منهم الى مناطق جبلية في إيران.

يقول الزرادشت أنهم قوم مسالمون يحبون السلام والتعايش السلمي، يشيرون الى أن ملابسهم بيضاء، وأخلاقهم الحسنة تدل على أنهم يريدون التعايش بسلام مع المجتمعات البشرية، ويبدو أنهم مرتاحون نسبيا لكل الأوضاع السائدة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، خاصة فيما يتعلق بحرية الأديان. فبالنسبة للشعائر وإقامة الطقوس والمراسيم يقول الزرادشت أنهم أحرار في إقامة المراسيم وليس هناك أية قيود من جانب الحكومة، وكذلك الحال في إقامة الأعياد والأعراس والمآتم، وأن إقامة هذه العادات تشبه بكثير عادات المسلمين وسائر الأديان الأخرى.

أما بشأن معابد الزرادشت فإن هناك الكثير من معابد النار لا تزال مفتوحة وتجري فيها مراسيم وطقوس العبادة الخاصة للزرادشت بكل حرية، ودون أية مضايقات من جانب المسلمين، ولدى الزرادشت مجلة خاصة باللغة الفارسية تسمى «فروهر» وأخرى مشتركة مع المسلمين تسمى (جيستا). يقدر الزرادشت نفوسهم في إيران بحوالي 30 ألف نسمة، وأكثر من مائة ألف نسمة في الهند ويقارب 50 ألف في باكستان.

وعندما سئل السيد شهرزادي عن سياسة الحكومة الإسلامية تجاه الأقلية «الزرادشت» قال بأن الزرادشت يحترمون القوانين الإسلامية ويلتزمون بدستور البلاد، وبالمقابل فإن الحكومة الإسلامية لم تتعرض مطلقا الى الأقليات الدينية، بل بالعكس فلقد تلقوا تسهيلات خاصة من

طـرف رئاسـة الـوزراء [1] وما قـيل عن تسامح الإسلام مع الزرادشت في إيران ينطبق أيضا على اليهود والنصارى على حد سواء دون أي تمييز أو تحيز ملي...

و إذا كان هذا هو شأن الإسلام مع غير المسلمين، فمن باب أولى أن يكون التسامح هو السيد بين أبناء الملة الواحدة، وأصحاب القبلة الواحدة، مهما اختلفت أسماء مذاهبهم، ولكن الواقع المعيش في حياة المسلمين ليس على هذه الصورة ـ المفترضة ـ لأسباب لا تعود الى الدين الحنيف في ذاته (كما سبقت الإشارة) وإنما تعود أساسا الى جهل وتعصب أطراف كل مذهب ديني على حدة، مما جعل من تعدد المذاهب ـ أحيانا ـ نقمة على المسلمين بدلا من أن يظل رحمة بهم ...

فالاسلام الموسوم بالتسامح الداعي الى السلام قد تخضبت دماء أبنائه بدماء بعضهم بعضا، نتيجة الخلافات المذهبية (المسيّسة) وضيق الأفق الذي حل بهؤلاء المتعصبين، والذي انتهى في كثير من الأحيان الى الاقتتال الدامي بين الأشقاء المتجهين بوجوههم وقلوبهم نحو قبلة واحدة!!

وعن سؤال حول هذا التعدد المذهبي والخلاف الذي يتجاوز حده لينقلب الى ضده، أجاب أحد المهتمين بهذا الموضوع في الوقت الحاضر وهو الدكتور (مصطفى الشكعة) بقوله: «ما من شك في أن للخلاف المذهبي المتمثل في الفرق الكثيرة أثر سيء على الإسلام، ووحدة المسلمين .. ولقد نالت هذه القضايا اهتمامي منذ وقت بعيد، مما دفع بي الى تأليف كتابي (إسلام بلا مذاهب) بمعنى أن هناك إسلاما واحدا هو الذي جاء به محمد (ص) وكل اتجاه مستحدث بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى يتحتم إعادة النظر فيه، ورد الأحكام الى أصولها، ومن الثابت علميا أن المذاهب التي عرفت في تاريخ الإسلام بعضها اندثر وبعضها قائم، وبعضها تداخل في مذاهب قائمة. وفي يقيني أنه يمكن التقارب بين المذاهب المعتدلة عن طريق الحوار الصادق، والجدل على الطريقة الإسلامية، فمن

---

(1) مجلة العالم، العدد: 177، الصادرة بتاريخ: 4 جويلية 1987م.

الميسور أن تتقرب هذه المذاهب الواحد من الآخر في سهولة ويسر، وأن تلتقي في منتصف الطريق، وأن تعقد الجلسات والمؤتمرات التي تظللها السماحة، ويكون رائدها الخير للسلام والمسلمين »[1]، وتماشيا مع هذه النظرة الصادقة لرص صفوف المسلمين، أثمرت الجهود الحثيثة التي بذلها المخلصون من أبناء الأمة عن عقد أول مؤتمر للتقارب بين المذاهب الإسلامية في سلطنة عمان في مستهل سنة 1988، ومما ورد في هذا المؤتمر على لسان الأستاذ فهمي هويدي في جريدة الأهرام ما نصه: «... والأهمية منصبة على الموقف الذي سجله المؤتمر، والذي أحسب أن أجلّ ما فيه هو المبدأ والمنهج، أعني مبدأ فتح الأبواب بين مختلف المذاهب، ومد الجسور بين أتباعها من المسلمين من أجل تحقيق التقارب والتفاهم، لا التنابذ والتخاصم، كما أعني بالمنهج تجميد صراعات الأمة التي خلت وإغلاق ملفات الخلافات التي لم يعد لإحيائها معنى أو جدوى »[2].

ويضيف الكاتب قوله عن وحدة الصف: «... لقد قلت أن أهم ما في توصيات مؤتمر عُمان هو المبدأ التوحيدي الذي انطلقت منه، والمنهج العملي الذي دعت اليه في تجاوز الخلاف، والارتفاع فوق ما هوعقيم من أسبابه.. وتحت كل من العنوانين هناك الكثير مما ينبغي أن يقال، سواء لإثراء لغة الخطاب الإسلامي المعاصر أو لتصحيح صيغة الأداء من جانب المشتغلين بالعمل الإسلامي،وذلك أن المرء يكاد يفتقد المنطلق التوحيدي في الخطاب الإسلامي الذي تتعدد منابره وأصواته في زماننا، فضلا عن أن الأداء الإسلامي ممثلا في بعض فصائله الكبيرة لم يستوعب بعد فكرة (تجاوز المراحل) سواء تمثلت في عملية تجميد الصراعات العميقة أو إغلاق ملفات قديمة »[3]. ويضيف قوله في مكان آخر تحت عنوان «أهل القبلة أولا »: «أن الدعوة الى وحدة الصف لا يراد بها دمج مذاهب

---

(1) عن استجواب أجرته معه جريدة الشرق الأوسط ونشر في: 1989/08/10م.

(2) جريدة الأهرام، الصادرة بتاريخ: 1988/05/03م.

(3) نفس المرجع السابق.

المسلمين في فرقة واحدة، ولا حتى إلغاء المذهبية، وإنما هي تستهدف بالدرجة الأولى توفير سبيل للتعايش الكريم بين أتباع المذاهب في غير خصومة أو تعصب، والتعامل مع هذه المذاهب بحسبانها مدارس فكرية، وليست (ميليشيات) متناحرة، وهي تستهدف أيضا فتح الباب أمام أهل العلم من كافة الأطراف. وهذا للتلاقي ومواصلة الحوار لتصحيح المحاور والمعتقدات، ودون الدخول في التفاصيل، فإنني أحسب أن السعي الى وحدة الصف الإسلامي ينبغي أن يميز بين فرق تتفق بين الأصول الاعتقادية وتختلف في الفروع، وهي التي يتعين علينا أن نركز جهود التوفيق والتقريب في نطاقها، وأخرى تدّعي انتماءها للإسلام وقد يمتد اختلافها في الأصول، وهذه ينبغي ألا يفرط فيها حتى لا توظف لصالح الغير، وإنما يتم التعامل معها على أساس سياسي وحضاري.. وفي كل الحالات فإن فض الاشتباك بين هذه المذاهب ينبغي أن يسبق أي دعوة للحوار أو التقارب.

إذا حاولت تنزيل هذه الفكرة على الواقع، فقد تتدرج الدعوة الى وحدة الصف على النحو التالي:

- مستوى يوحد عنده الصف السني بالأخص في الجانب المتعلق بالحرب المستمرة التي يشنها السلفيون على المتصوفة.

- مستوى يتحقق في ظله التعايش والحوار وحسن الجوار بين المذاهب التي قلنا أنها لا تختلف مع أهل السنة في الأصول أومن يسمون بأهل «القبلة» وهم الشيعة الاثنى عشرية أو الجعفرية أو الزيدية في اليمن، والإباضية في عمان، وفي شمال إفريقيا، وقاديانية لا هور في باكستان الذين لا يؤمنون بنبوءة غلام أحمد القادياني»[1].

وعلى ذكر المذهب الإباضي يقول أحد الباحثين، (وهو الأستاذ مصطفى رمضان) في بحث مطول له نقتطف منه الفقرات التالية:

«فليس بين الإباضية والمالكية عداوة في قضايا دينية ـ كما يحلو لبعض المدعين أن يختلقوا ـ باستنادهم لما قرأوه في بعض الكتب

---

(1) الأهرام نفس المرجع السابق ذكره.

والمقالات المفتنة التي تثير الحساسيات بغير علم وتوقع التصدع بين الإباضية وغيرهم من أهل المذاهب الأخرى لأغراض حاقدة.

فالأسف كل الأسف على العقلية المذهبية الحاقدة التي سفلت الأفكار الى الحضيض بينما أن المذاهب أتصورها بكل بساطة مثل الحافلات المتنوعة الصنع، فالمهندسون الذين صنعوها مهما كانت شركاتهم مختلفة فلن يختلفوا في التركيب الأساسي لصناعة هذه الحافلات، لأن القواعد العامة في الصنع معروفة وموحدة. فإذا أتى خبراء في الميكانيك والكهرباء وفحصوا عدة حافلات مصنوعة في شركات مختلفة فلا يجدون اختلافات جوهرية في التركيب الميكانيكي والكهربائي، وهذا هوالأساس، لأنه بفضل هذا التركيب تتحرك تلك الحافلات وتحقق الغرض المتمثل في التنقل. وكذلك الأمر بالنسبة للتركيب الهيكلي، فكل الحافلات تحتوي على مقاعد للجلوس وهي جميعها تحقق الغرض المتمثل في الجلوس والاستراحة للوصول الى المقصد في أمان وسلام. أما الجزئيات المتمثلة في أشكال الحافلات ولونها فلا يهم بالنسبة للمسافرين.

وهكذا المذاهب الإسلامية فهي وسائل مختلفة لعبور الدنيا نحو الآخرة. فكل جماعة من الناس يتوجهون الى الوسيلة التي يرون أنها تحقق لهم أمانا أكثرفي عبورهم وتوصلهم الى السلام المترجى من طرف الجميع، ولكن لا أحد يضمن بأن وسيلته هي أكثر ضمانا من الأخرى في النقل، فالمهم أن تكون هذه الوسائل جيدة الصنع وسائقوها مدربون. فإذا تساوت هذه الشروط عند تلك الوسائل النقلية فلا فائدة من تضييع الوقت في النقاش عن أشكالها وألوانها.

إنني أتصور مثل (بفتح الميم والثاء) شركتين للحافلات تنقلان المسافرين عبر خط واحد، وحدث مرة أن وقع اصطدام طفيف بين حافلتين تسببت فيه الأحوال الجوية الرديئة، وعدم انتباه أحد السائقين أو كليهما، فاستغلت هذا الحادث إحدى الشركتين أو كلاهما للاطاحة بسمعة الشركة المنافسة فتصبح كل واحدة منهما تطلق الدعايات الكاذبة على الشركة

الأخرى بأن حافلاتها هي ذات صنع رديئ وبأن سائقيها غير مؤهلين للسياقة.. والغرض من هذه الدعايات هو الإطاحة بسمعة الشركة المنافسة والرغبة في الاحتكار» [1].

ويضيف الكاتب قائلا في مكان آخر في تفسيره لأسباب التصادم بين الفرق المذهبية ما نصه: «نعم أقول أن التصادم الذي يقع من حين لآخر بين معتنقي المذهبين المالكي والإباضي في ميزاب بالذات لا يمكن أن نرجعه الى عدم صلاحية أحد المذهبين، أوعدم كفاءة علمائه المجتهدين، ولكن سوء الظن المركب في نفوس بعض معتنقيه وتشهيهم الغلبة على الغير والتكبر وحب التسلط هوالذي أورث هذه الوضعية المتفجرة.

لقد قمت شخصيا باستفسار أشخاص كثيرين يظهر عليهم التشدد في اعتناق مذهبهم من الإباضية والمالكية على السواء، فوجدت من خلال أجوبتهم عموما أن مظهر الخلاف الذي يرونه ليس إلا في المسائل البسيطة، ولم يستطيعوا أن يقدموا حججا على أسباب تفضيلهم مذهبا دون مذهب آخر، فاستنتجت عندئذ أن جل ضروب الخلاف التي شعبت المجتمع ترجع الى مصالح دنيوية أكثر مما ترجع الى غيرة دينية، فسوء الظن بالآخرين وتشهي الغلبة عليهم وتضخيم الهفوات التي تقع منهم واختلاق آراء رديئة لم يقولوا بها، وتمني بقائهم على الخطأ والغفلة. هذه جميعا رذائل إذا تفشت في مجتمع فلن تقوم له رسالة ولن ينجح له قصد ولن يتماسك له كيان» [2].

ذلك إذن هو تشخيص الداء المذهبي وتلك هي وصفات الدواء التي لا تتطلب سوى الوعي والإخلاص والتسامح، بل والإخلاص للمبدأ الإسلامي ذاته الذي يتسامح مع غير المسلمين (كما رأينا) فما بال المسلمين ـ إن كانوا حقًا كذلك ـ لا يطبقون تسامح الإسلام مع من يخالفونهم الرأي والاجتهاد، من أبناء ملتهم، ولا نعتقد الإسلام إلاملة واحدة مهما تعددت فرقه ومذاهبه، ومدارسه الفقيهة.

---

(1) جريدة الشعب (الجزائرية) الصادرة في: 1990/07/24م.
(2) نفس المرجع.

ثالثا: التسامح اللغوي:

وعلى الرغم مما يشوب هذا الموضوع الحساس والخطير من تعقيد، بوصف اللغة أساسًا للشخصية وعنوانا للجنسية ورمزا للسيادة الوطنية .. إلا أن هناك بعض المجموعات البشرية قد وجدت نفسها (لظروف تاريخية معينة) تعيش على رقعة جغرافية واحدة، مع تباين انتمائها اللساني، وتشتته بين عدة قوميات.. وبدلا من أن تسلك طريق التعصب لسيادة أحد هذه الألسنة على الأخرى فيحدث التصدع الحتمي لوحدة المجموعة البشرية المتساكنة في الرقعة الجغرافية المعينة.. تسلك طريق التسامح اللساني بإيجاد صيغة مقبولة لتحقيق حد أدنى من التعايش بين الأطراف المختلفة الألسن، والمقصود هنا بالألسن هي اللغات الحضارية ذات التراث المكتوب (وليس اللغات الشفوية البدائية، واللهجات الشعبية المتفرعة عن لغات قديمة مندثرة كما هو الشأن في العديد من البلاد الإفريقية الحالية الناطقة بالفرنسية أو الانجليزية، أو الإيطالية، أو البرتغالية)، والبلد الوحيد الذي يكاد يشذ عن القاعدة في تحقيق التسامح اللغوي بين مواطنيه كبديل للإنقسام الحتمي وزوال الدولة التي لم تكن لها لغة مكتوبة خاصة بها كباقي بلاد العالم وتحمل اسمها هي:

سويسرا:

إن سكان هذا البلد الأوروبي الصغير منقسمون حول عدة لغات وأديان، فثلاثة أخماسهم من البروتيستانت وخمساهم من الكاثوليك ويتكلم 74٪ منهم الألمانية و21٪ الفرنسية، وحوالي 4٪ الإيطالية، وواحد بالمائة الرومانسية، (وهي لغة مشتقة مباشرة من اللاتينية)، وعندما يستعرض المرء أضرار الانقسامات الداخلية وضغط الدول المجاورة يجد أن نجاح السويسريين في إيجاد سويسرا، واستمرار اتحادهم وتطورهم ديمقراطيا، يشكل معجزة!

ففي القرون الوسطى كان جميع السويسريين من الكاثوليك يتكلمون اللغة الألمانية، ولكن النزاع الديني شق السكان فحاربوا بعضهم بعضا، وفي خلال القرن الثامن عشر عندما أخذت الدبلوماسية والقوة العسكرية والثقافة الفرنسية تمارس نفوذها، أقدم السويسريون الألمان، (الذين يعتبرون الكونفدراليين الوحيدين أو الأعضاء الحقيقيين في الأمة)، على التسامح بحكمة، مع اللغة والثقافة الفرنسيتين بسبب أنهم لو حاولوا فرض اللغة والثقافة الألمانيتين على حلفائهم ورعاياهم الفرنسيين لدفعوا بهم حتما الى الارتماء في أحضان فرنسا!

وبعد الثورة واحتلال نابوليون لسويسرا سنة 1898، تدفقت الليبرالية الفرنسية مع الغزو، وأعلن نظام نابوليون الجديد المساواة بين جميع المواطنين السويسريين واضطرت السياسة المتبعة حتى الآن في هذا البلد الى قبول مبدأ تعدد اللغات بدل الانقسام وزوال الدولة وتفككها الى دويلات منحازة و متناحرة!! كما هو الشأن في كل الأقطار المماثلة في العالم!!

فالسويسريون يجبرون أنفسهم على تعلم لغة ثانية على الأقل، هي عادة الفرنسية أو الألمانية، ذلك أن التنوع اللغوي يتيح للسويسريين الاستفادة من ثلاث ثقافات لأوروبا العظمى، المرتكزة على الفرنسية والألمانية والإيطالية.

والخلاصة التي نخرج بها من هذا المثال الذي لا يمثل القاعدة في مجال التسامح اللغوي بين الأفراد والأمم (للأسباب المذكورة) هو أن التسامح مهما يكن فهو يفيد دائما ولا يضر أبدا، والتعصب على العكس من ذلك فهو يضر دائما، عندما يتجاوز حده المعقول، شأنه شأن الحرية الفردية التي تنتهي عند بداية حرية الغير أو حرية الآخر.

على أن التسامح المقصود هنا لا يعني إطلاقا عدم التمسك بالمبادئ والقيم المتعلقة بالشرف والعرض والكرامة والثوابت القومية، وكل ما يرفع من قيمة الإنسان في هذه الحياة.

فإذا كان التعصب هو عدم التسامح مع الغير، فإن التسامح لا يعني الذوبان في هذا الغير والتنازل عن الذات والحقوق المشروعة والمقدسة لحساب هذا الغير، فهذا يسمى انتحارا من طرف واحد، وليس تسامحا قائما بين طرفين، وذلك لأنه إذا كان التعصب مذموما مع التسامح، فالتسامح ضياع مع التعصب، فخير الأمور أوسطها، والمعاملة بالمثل أساس الرضى في كل الحالات والبادئ أكرم أو أظلم!!

المراجع

1- ابن تيمية "رفع السلام عن الأئمة الأعلام".
2- بيار باولو جقليولي "اللغة والسياق الاجتماعي" كوكس واويان لِـ تي- دي بريطانيا 1972.
3- د. حامد زهران "علم النفس الاجتماعي" عالم الكتب القاهرة (بدون تاريخ).
4- شكيب أرسلان "مختارات نقدية" طبعة 2 ، دار الكلمة للنشر، بيروت 1983.
5- صلاح الدين الشامي دارسات في الجغرافيا السياسية، مكتبة الأنجلو-المصرية 1970.
6- د. عطوف محمد ياسين، مدخل في علم النفس الاجتماعي، دار النهار للنشر، بيروت 1991.
7- عبد العال صالح طه، تاريخ مسلمي الأندلس (الموريسكيون، حياة، ومأساة أقلية)، دار الاشراق 1988.
8- عبد العزيز النجاري، كشف الأسرار، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.
9- الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.
10- القاضي عياض، الأسماع إلى معرفة أصول الرواية، تنسيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة.
11- د. كمال دسوقي "دراسة المجتمع"، مكتبة الأنجلو-المصرية 1976.
12- د. كمال دسوقي "اختيار الأفراد"، الأنجلو- المصرية، 1962.
13- محمد رياض ، خرافات الأجناس، (بدون تاريخ).

14- محمد بن عبد الكريم، حكم الهجرة من خلال ثلاثة رسائل جزائرية، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع 1981.
15- مصطفى أبو زيد فهمي "النظرية العامة للقومية العربية" المكتبة الشرقية للنشر والتوزيع.
16- مصطفى زيور، سيكولوجيا التعصب، مجلة علم النفس، عدد: 23، 1952.
17- د. نور الدين حاطوم، تاريخ عصرنا، دار الفكر، دمشق 1985.
18- هنري داركي: تاريخ البلجيكيين، دار النشر (بوك) بروكسل.
19- معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (بدون تاريخ).
20- المعرفة والسلطة، معهد الانماء العربي 1989.

المحتوى

هذا الكتـــاب

«... وهكذا ظهرت مضاعفات مفعول التعصب في عصرنا الحاضر، فاتسعت دائرته بموجبها من المجال الديني الذي كانت فيه لعدة قرون، الى التعصب العرقي واللغوي، مع كل ما بين هذين العنصرين من تداخل شديد، على اعتبار ان اللغة الى جانب كونها تمثل أحد أقوى رموز السيادة الوطنية، فهي تشتق من اسمها الجنسية المرتبطة باسم العرق (أو الجنس) الذي يتمحور، هو الآخر، حوله ولاء الشعوب وانتمائها الى أمم وقوميات، وبصفة اللغة وعاء للثقافة، لها دور أيضا في تشكيل سمات الشخصية القومية التي تحمل - عادة - اسم اللغة واسم الجنس في نفس الوقت...

... سيقف القارىء الكريم على مفهوم التعصب وأسبابه، وأنواعه الهامة، مفصلة كلا على حدة، ثم عرضها مجتمعة، في شكلها المتداخل العناصر، بتقاطعاتها وأمثلتها الحية، وشواهدها الملموسة والناطقة في شتى بقاع العالم، بحسب الامتداد التاريخي، (الرأسي) والجغرافي (الأفقي)، مع عدم الاكتفاء في ذلك بالسرد التقريري والتحليل النظري (المدعم بالمقارنات والاستنتاجات) فحسب، بل أولى البحث اهتماما لوصف العلاج بقدر المستطاع - لتفادي الأخطار الناجمة عن التعصب والتخف من حدته المدمرة، بتنبيه المهتمين والساسة للنقاط الحساس وتشخيص الداء الذي يعتبر نصف الدواء، مع إعطاء الفر للوقاية التي تظل دائما خيرا من العلاج...».

من المقدمة

ISBN. 9961-67-021-3